الرثاء في الشعر الأندلسي في عصري المرابطين والموحدين

إعداد

مهدي عواد الشموط

المشرف

الدكتور حمدي منصور

قدّمت هذه الرسالة استكمالاً لمتطلبات الحصول على درجة الماجستير في

اللغة العربية وآدابها

كلية الدراسات العليا
الجامعة الأردنية
كانون الثاني /٢٠١٠

قرار لجنة المناقشة

نوقشت هذه الرسالة (الرثاء في الشعر الأندلسي في عصري المرابطين والموحدين) وأجيزت بتاريخ ٣١ / ١٢ /٢٠٠٩

أعضاء لجنة المناقشة	التوقيع
الدكتور /حمدي منصور (مشرفاً ورئيساً) أستاذ الأدب الجاهلي والأندلسي/ الجامعة الأردنية	....
الأستاذ الدكتور/ صلاح جرار (عضواً) أستاذ الأدب الأندلسي والمغربي / الجامعة الأردنية	....
الدكتور / ياسين عايش (عضواً) أستاذ الأدب العباسي / الجامعة الأردنية	....
الأستاذ الدكتور / يونس شنوان (عضواً) أستاذ الأدب الأندلسي والمغربي / جامعة اليرموك	....

تعتمد كلية الدراسات العليا
هذه النسخة من الرسالة
التوقيع........ التاريخ ٢٤/١/٢٠١٠

الجامعة الأردنية

نمـــوذج تفـــويض

أنا مهدي عواد ذنيبات الشموط ، أفوض الجامعة الأردنية بتزويد نـــسخ من أطروحتي للمكتبات أو المؤسسات أو الهيئات أو الأشخاص عند طلبها.

التوقيع: [توقيع]

التاريخ: ١٤ / ٦ / ٢٠١٠ م

الإهداء

إلـــى ...

الشمعة المضــيئة،،،،

والربــوة المنيــفة،،،

أمّـــي...

إلـــى ...

ذلك الملهم العاصــف،،

الأبـــي الشامــخ ،،،

أبـــي ...

إلـــى ...

إخــوتي وأخــواتي وأصــدقائي

وإلـــى ....

بني صـــخر جميعاً

مهدي الشموط

شكر وتقدير

أتقدم بجزيل الشكر والعرفان إلى الدكتور المشرف / حمدي منصور على ما قدم من نصح ، وإرشاد ، وتوجيه ، فكان الأستاذ، والأب ، الناصح الأمين .

كما أتقدم بالشكر الوافر ، والثناء العاطر لأعضاء لجنة المناقشة وهم :

الأستاذ الدكتور / صلاح جرار نائب رئيس الجامعة الأردنية لشؤون الكليات الإنسانية وأستاذ الأدب الأندلسي والمغربي في الجامعة الأردنية .

والدكتور / ياسين عايش أستاذ الأدب العباسي في الجامعة الأردنية.

والأستاذ الدكتور / يونس شنوان أستاذ الأدب الأندلسي والمغربي الذي تجشّم عناء المجيء من جامعة اليرموك .

على تفضلهم بقبول مناقشة هذه الدراسة ، وعلى ما بذلوه من جهد في تقويمها.

و الشكر موصول إلى أولئك الذين كانوا ، وما زالوا يوقدون القناديل لينيروا لنا عتمة الليل، ويخرجوا الأمة من غياهب الضلال، والظلام نحو فجر أبلج مشرق ... إلى أساتذتنا الكرام في الجامعة في قسم اللغة العربية.

واللهَ أسأل أن يوفقنا لما فيه خير الدارين : الدنيا والآخرة .

فهرس المحتويات

الموضوع	الصفحة
قرار لجنة المناقشة.	ب
الإهداء.	ج
شكر وتقدير.	د
فهرس المحتويات.	هـ
الملخص باللغة العربيّة.	ح
المقدمة	١
أولاً: المرابطون أو الملثمون: نشأتهم، وأصلهم، وسبب تسميتهم:	١
– الأندلس قبل دخول المرابطين	٢
– المرابطون في الأندلس	٣
ثانياً : دولة الموحدين	٦
ثالثاً : الرثاء	٩
الفصل الأول : رثاء الأقارب	**١١**
المبحث الأول : رثاء الذكور	١٢
أولا: رثاء الآباء	١٢
ثانياً : رثاء الأبناء	٢٣
ثالثاً : رثاء الأخوة	٣٣
رابعاً:رثاء الأقارب الآخرين	٤٠
المبحث الثاني: رثاء المرأة	٤٥
أولاً : رثاء الأمهات	٤٦
ثانياً : رثاء الزوجات	٥٥
ثالثاً : رثاء البنات	٦٦
رابعاً : رثاء الجدات	٧١
خامساً : رثاء العمات	٧٢
الفصل الثاني : رثاء النفس والكتابة على شواهد القبور	**٧٥**
المبحث الأول : رثاء النفس	٧٦
المبحث الثاني : الكتابة على شواهد القبور	٩١
الفصل الثالث : رثاء الشخصيات العامة	٩٦
المبحث الأول : رثاء الملوك	٩٧
المبحث الثاني : رثاء الأمراء	١٠٣
المبحث الثالث : رثاء الوزراء والرؤساء	١٠٥
المبحث الرابع : رثاء العلماء	١١١
المبحث الخامس : رثاء القادة	١٢١
المبحث السادس : رثاء آل البيت	١٢٨
الفصل الرابع :رثاء الأصدقاء والجواري والغلمان	١٣٦
المبحث الأول : رثاء الأصدقاء	١٣٧
المبحث الثاني : رثاء الجواري	١٤٢

المبحث الثالث : رثاء الغلمان	١٤٦
الفصل الخامس: رثاء الدول والممالك	**١٥٣**
المبحث الأول : رثاء الدول والممالك	١٥٤
أولاً : رثاء دولة بني عباد	١٥٦
ثانياً :رثاء دولة بني الأفطس	١٦١
المبحث الثاني : رثاء المدن الأندلسية	١٦٥
الفصل السادس: الدراسة الفنية	**١٨١**
المبحث الأول : بنية القصيدة	١٨٢
المبحث الثاني : اللغة والأسلوب	١٩٦
المبحث الثالث :الصورة الفنية	٢١٥
الخاتمة.	٢٢٣
المصادر والمراجع.	٢٢٤
الملخص باللغة الإنجليزيّة.	٢٣٣

الرثاء في الشعر الأندلسي في عصري المرابطين والموحدين

إعداد

مهدي عواد الشموط

المشرف

الدكتور/ حمدي منصور

ملخّص

الحمد لله رب العالمين ، والصلاة والسلام على سيدنا محمد، وعلى آله، وأصحابه أجمعين، الحمد لله الواحد الأحد الفرد الصمد الذي لم يلد ولم يولد ، ولم يكن له كفواً أحد .

أما بعد ؛ فالموت حقيقة وجودية حتمية، لا ينجو منها أحد ، وليس للخلاص منها سبيل وقد عبر الشعراء عن هذه الحقيقة كلٌّ حسب موقفه من الموت والحياة؛ فمنهم من تأثر بالفلاسفة الذين قالوا: " إن موت الجسد ولادة للنفس "، ومنهم من وجد في الموت باباً ليدخل منه إلى مايريد ، فتصنع الرثاء ليستميل إليه قلوب ذوي المرثي ، ويصل إلى هدف سياسي ، أو اقتصادي. وقد وجد الشعراء الأندلسيون في عصري المرابطين والموحدين، بيئة ساعدتهم لينظموا أشعاراً في الرثاء ، عندما رأوا الموت يحل قريباً منهم فيتخطف الآباء والبنين والزوجات والملوك والرؤساء ، بل إن منهم من وجد نفسه مهدداً بالموت بين فينة وأخرى، فراحوا ينظمون أشعاراً تمثل مشاعرهم وما يختلج في صدورهم، تجاه حقيقة الموت التي لا تُرد ولا تُمنع ولاتُدفع. فمنهم من كان صادقاً في رثائه يعمله على الوفاء، ومنهم من كان متكسباً يصنعه على الرجاء ، وكثير منهم اقتفى في مراثيه طريقة فحول القدماء، فتأسى بمن سبق ، وضرب أروع الأمثلة ، وأصدقها على فناء الدنيا وزوالها.

وثمة دراسات تناولت الرثاء في الشعر العربي ، منها رسالة حسين خريوش التي تناول فيها صاحبها الرثاء في الأدب الأندلسي بعامة ، فلم تكن الرسالة متخصصة في حقبة زمنية معينة ، أو قاصرة على لون محدد من الرثاء . وكذلك رسالة عبد الرحمن حسين التي تناول فيها الباحث رثاء المدن والممالك في الشعر العربي حتى سقوط غرناطة ، وهي رسالة تحدث فيها صاحبها عن سقوط المدن وزوال الممالك في الشعر العربي المشرقي والأندلسي ، فجاءت الرسالة عامة غير قاصرة على فترة زمنية معينة ، إذ تناولت الموضوع على امتداد الزمان والمكان في الشعر العربي.

ومن هنا تبرز أهمية هذه الدراسة ؛ وذلك أن الأندلس قد مرت بأزمات كثيرة ، كان للرثاء دورٌ كبير في التعبير عنها ، سواء أكان ذلك في رثاء الأقارب كالآباء ، والأبناء

والزوجات ، أم الرثاء الرسمي الذي يكون في رثاء أرباب الدول، و رثاء المدن الأندلسية الذي مازال شاهداً على صدق انتماء الشاعر الأندلسي إلى مدينته ، بل إلى جزيرته برمتها .

وبناء على ما سبق ؛ فقد اتجه الباحث لدراسة أشعار الرثاء في عصري المرابطين والموحدين، في محاولة منه لإبراز تلك الظاهرة، والكشف عن عناصرها ومصادرها وخصائصها الفنية في ذينك العصرين .

ومما حدا الباحث إلى الاتجاه إلى دراسة "الرثاء في عصري المرابطين والموحدين" في رسالة مستقلة أن ظاهرة الرثاء في الأندلس قد دُرِسَت في عصر ملوك الطوائف عند الباحثة فدوى عبد اللطيف قاسم في رسالتها الموسومة بعنوان " **الرثاء في الأندلس في عصر ملوك الطوائف** " ثم جاءت الباحثة فاطمة مفلح العبد اللات ، ودرست الرثاء في عصر بني الأحمر في رسالتها الموسومة بعنوان " **شعر الرثاء في الأندلس في ظل بني الأحمر** " . فظل عصرا المرابطين والموحدين ينتظران من يتصدى لدراسة ظاهرة الرثاء فيهما، لا سيما أنهما أطول العصور الأندلسية امتداداً، فاستشرت الدكتور حمدي منصور فشجعني على ذلك.

وقد جاءت الدراسة في مقدمة تاريخية موجزة تناولتُ فيها التعريف بالمرابطين والموحدين، وتاريخ بدء هاتين الدولتين في الأندلس، ثم اتجهتُ إلى الرثاء فعرفته لغة واصطلاحا.

تحدث الفصل الأول عن رثاء الأقارب ، وقد قُسِّمَ هذا الفصل إلى مبحثين كبيرين الأول كان في رثاء الأقارب من الذكور ؛ كالآباء ، والأبناء ، والأخوان ، ثم الأقارب الآخرين .

تلاه المبحث الثاني الذي تناول رثاء المرأة ؛ كالأمهات ، والزوجات، والبنات والجدات والعمات. وقد ظهر للباحث أن الشعراء في هذا النوع من الرثاء صادقون لأنهم ينظمون أشعارهم ، وأكبادهم تحترق على من فقدوا من الأهلين.

الفصل الثاني قُسِّمَ إلى مبحثين : الأول كان في رثاء النفس ، والثاني في الكتابة على شواهد القبور ، وقد مزج هذا النوع من الرثاء بين الفلسفة والحيرة والصدق في التعبير ، فكان في معظمه يصور أنات شاعر بات يرى الموت قريباً ، والرحيل محققاً.

ثم كان الفصل الثالث الذي اصطلح على تسميته رثاء الشخصيات العامة وقد جاء أيضاً في مباحث : الأول كان في رثاء الملوك ، والثاني: في الأمراء ، والثالث في الوزراء والرؤساء و الرابع: في العلماء، والخامس : في القادة، والسادس : في رثاء آل البيت . وقد تنوع هذا

اللون من الرثاء فمنه ما تميز بصدق التعبير ، وجزالة العبارة، وفخامتها ومنه ما كان فاتراً باهتاً تظهر فيه سمة التكلف والصنعة.

جاء الفصل الرابع في ثلاثة مباحث، الأول : في رثاء الأصدقاء ، والثاني : في الجواري ، والثالث : في رثاء الغلمان. فكان هذا الفصل مثالاً صادقاً على مشاعر الحب والإخلاص التي كانت تميز الأندلسيين في عصري المرابطين والموحدين ، وتظهر مدى تمييزهم بين الجارية والزوجة ، كما ظهر ذلك عند ابن حمديس في رثاء جاريته ، وقد كان رثاء الغلمان سمة محيرة عند أولئك الشعراء الذين خلطوا الرثاء بالغزل.

قسم الفصل الخامس إلى مبحثين: الأول : في رثاء الممالك ، والثاني : في رثاء المدن ، و هذان الفصلان شاهدان كبيران على صدق انتماء الشاعر الأندلسي الذي رأى مدينته تؤخذ ، وجزيرته تسلب ، ومساجده تُنَصَّر فما كان منه إلا أن نظم أشعاراً تصور فداحة الأمر ، وعاقبة البعد عن الدين فكانت تلك القصائد تحث سامعيها على قتال النصارى، واستعادة الحق المسلوب.

ثم جاء الفصل الأخير الذي خُصِّصَ للدراسة الفنية التي قصرتها على ثلاثة مباحث الأول في بنية القصيدة ، والثاني : في اللغة والأسلوب ، والثالث : في الصورة الشعرية .

أما المنهج الذي اتبعته في هذه الدراسة ، فهو المنهج الوصفي التحليلي ، ذلك أنني عكفت على قراءة الأشعار من دواوينها ومصادرها ومظانها المختلفة، وحللتها وتوصلت إلى ما ترمي إليه في حدود ما أعلم ، ولولا أن الله قيَّض لي مشرفاً حصيف الرأي ،رحب الصدر، دقيق الملاحظة لما خرج هذا العمل إلى الوجود.

وهذا البحث كغيره من البحوث التي لا تخلو من النقص والخلل، وهذه سنة الله في الكون ، فالكمال لله وحده.

وهنا لا بد لي أن أشكر لأعضاء اللجنة الموقرة الذين كلّفوا أنفسهم عناء قراءة هذه الدراسة ، فلهم الشكر والتقدير أساتذة أجلاء نقف لهم إجلالاً واحتراماً وتقديرًا .

و لا يسعني إلا أن أشكر الدكتور حمدي منصور على ما قدّم من توجيه وإرشاد ومتابعة، فكان كالنجوم التي تهدي من ضل طريقه.

وفي الختام أتوجه بخالص الشكر والعرفان لأساتذتي ، وإخواني وأصدقائي ، وكل من وقف إلى جانبي وكان عوناً لي في إتمام هذا العمل .

والله ولي التوفيق

مهدي عواد الشموط

بسم الله الرحمن الرحيم

المقدمة

أولاً: المرابطون أو الملثمون: نشأتهم، وأصلهم، وسبب تسميتهم:

قوم صحراويون من قبائل صنهاجة، خرجوا من صحراء موريتانيا برسالة دينية سامية تقوم على جهاد المارقين عن الدين الحنيف[١]. وقد أطلق عليهم المؤرخون اسم "قبائل الملثمين"، لاتخاذهم اللثام شعاراً يميزهم عن سائر قبائل المغرب[٢].

وسمّوا أيضاً بـــ"المرابطين"[٣]، وهذا الاسم أطلقه عليهم شيخهم عبد الله ين ياسين، بعد أن لازموا الرباط الذي أنشأه لهم للدرس والعبادة في المغرب، ويعني أيضاً أنهم الملازمون لثغور الأعداء.

وهم قبائل عدة ينتسبون إلى حمير، أشهرها لَمْتُونَة، ومنها أمير المسلمين علي بن يوسف ابن تاشفين، وجَدَالَة، ولَمْطَة، وكان أول مسيرهم من اليمن أيام أبي بكر الصديق – رضي الله عنه – فسيَّرهم إلى الشام، وانتقلوا إلى مصر، ودخلوا المغرب مع موسى بن نصير، وتوجهوا مع طارق إلى طنجة، فأحبّوا الانفراد، فدخلوا الصحراء واستوطنوها[٤].

وقد حرموا تذوق الرفاهة التي تخلقها حضارة الإنسان، ولكنهم كانوا بمنجاة من الرذائل التي تترتب على ارتفاع مستوى الحياة البشرية[٥].

---

(١) موسوعة تاريخ المغرب العربي، (١٤١٤هـ/١٩٩٤م). **المغرب العربي بين الفاطميين والمرابطين والموحدين ٢٩٦-٦٦٨هـ/٩١٠-١٢٧٠م دراسة في التاريخ الإسلامي**. ج٣، (ط١). القاهرة: مكتبة مدبولي، ص١٠١.

(٢) محمود، حسن أحمد، ( ). **قيام دولة المرابطين صفحة مشرقة من تاريخ المغرب في العصور الوسطى**. القاهرة: دار الفكر العربي، ص٣٩.

(٣) ابن خلدون، عبد الرحمن بن محمد، (١٩٩٩). **تاريخ ابن خلدون**. ج٦، (طبعة جديدة ومنقحة اعتنى بتصحيح ألفاظها والتعليق عليها تركي فرحان المصطفى)، بيروت: دار إحياء التراث العربي ، ص١٨٣.

(٤) ابن الأثير، عز الدين أبو الحسن علي بن أبي الكرم محمد بن محمد الشيباني (٥٥٥-٦٣٠هـ). **الكامل في التاريخ**. (تحقيق: خليل مأمون شيحا)، ج٨، بيروت: دار المعرفة، ص١٦٦.

(٥)أشباخ، يوسف، (١٩٥٨). **تاريخ الأندلس في عهد المرابطين والموحدين**. (ترجمه ووضع حواشيه محمد عبد الله عنان)، (ط٢)، القاهرة: مؤسسة الخانجي، ص٦٢.

قامت الدولة المرابطية الكبرى في بلاد المغرب والصحراء، أقامها يوسف بن تاشفين، وأرسى قواعدها، ووطَّد أركانها، واختطَّ عاصمتها، ونظّم جيوشها، واتخذ الحشم والخدم

والأعلام والبنود، بعد أن وضع أسسها الأولى، وربّى روادها الفقيه الزاهد عبد الله بن ياسين تربيةً إسلاميةً تقوم على إقامة شعائر الإسلام وفق ما جاء في القرآن والسنة الشريفة، فقد قامت الدولة المرابطية على أساس من فقه ودين[١].

الأندلس قبل دخول المرابطين:

كانت الأندلس تخضع لحكم ملوك الطوائف، الذين كانوا كما وصفهم لسان الدين بن الخطيب "وجعل الله بين أولئك الأمراء ملوك الطوائف من التحاسد والتنافس والغيرة، ما لم يجعله بين الضرائر المترفات، والعشائر المتغايرات..."[٢].

وقد وصف ملوكَ الأندلس الشاعر أبو الحسن بن الجد، في مدحه للأمير يوسف بن تاشفين، مبينا ما كانوا عليه من الانغماس في الشهوات والملذات في قوله[٣] :

فـــي كُـــلِّ يَـــومٍ غَرِيْـــبٌ فِيْـــهِ مُعتَبَـــرٌ ... نَلْقَـــاهُ أَو يَتَلقَانَـــا بِـــهِ خَبَـــرُ
أَرَى المُلُـــوكَ أَصَـــابَتْهُم بِأَنَـــدُلُسٍ ... دَوَائِـــرُ الـــسَّوءِ لا تُبْقِـــي وَلا تَـــذَرُ
نَامُوا وَأَسْـرى لَهُـم تَحْـتَ الـدُّجَى قَـدَرٌ ... هَـوَى بِـأَنْجُمِهِم خَـسْفاً ومـا شَـعَرُوا
وَكَيْـفَ يَـشْعُرُ مَـن فِـي كَفِّـهِ قَـدَحٌ ... يَحْـدُو بِـهِ مُلْـهِياهُ النَّـايُّ وَالـوَتَرُ

وبعد أن أحسّ المعتمد خطر النصارى الحقيقي، وخاف على سقوط الأندلسن بأيديهم رأى أن يستنجد بالمرابطين ، فقال له ولده الرشيد: "حاول الأمر بجهدك مع النصراني، ولا تستعجل بإدخال من يسلبنا المُلك، ويشتت الشمل. فالناس من علمت!"، فقال المعتمد: "يا ولدي لأن أموت راعياً بالمغرب خير عندي من أن أرى الأندلس دار كفر؛ فتكون اللعنة عليَّ من المسلمين أبد الدهر!"، فقال: "يا أبت افعل ما أراك الله!". فخاطب المعتمد يوسف بن تاشفين، غرّة جمادى الأولى من سنة ٤٧٨هـ يستأذنه في القدوم عليه لتقرير أحوال الناس[٤].

---

(١) منصور، حمدي، (٢٠٠٣). **الطبيعة في الشعر الأندلسي**، عمان ــ دار الجوهرة ،ط١، ص١٧و١٨.

(٢) ابن الأثير، **الكامل في التاريخ**. ج٨، ص١٦٨.

(٣) ابن الخطيب، لسان الدين، (٢٠٠٤). **(أعمال الأعلام فيمن بويع قبل الاحتلال من ملوك الإسلام)**. (تحقيق وتعليق: ليفي بروفنسال)، (ط١)، القاهرة: مكتبة الثقافة الدينية، ص٢٤٤.

(٤) المصدر نفسه ، ص٢٤٤.

المرابطون في الأندلس (٤٨٤-٥٤١هـ):

ما إن وصل المرابطون إلى الأندلس حتى بدأت عهداً جديداً كله جهاد، فلم يكن أمام يوسف بن تاشفين، وهو يرى ضعف ملوك الطوائف وطمع النصارى في البلاد، إلا أن يستنقذ الجزيرة، فقد قال: "...إنما كان غرضنا في ملك هذه الجزيرة أن نستنقذها من أيدي الروم، لما رأينا استيلاءهم على أكثرها وغفلة ملوكهم وإهمالهم للغزو وتواكلهم وتخاذلهم وإيثارهم الراحة... ولئن عشتُ لأعيدنَّ جميع البلاد التي ملكها الروم في طول هذه الفتنة إلى المسلمين، ولأملأنها عليهم خيلاً ورجالاً، لا عهد لهم بالدعة ولا علم عندهم برخاء العيش، إنما هم أحدهم فرس يروضه ويستفرهه، أو سلاح يستجيده، أو صريخ يلبِّي دعوته[١]".

ومن أهم الانتصارات التي حققها المرابطون في الأندلس معركة **الزلاقة**، التي كانت في العشر الأول من شهر رمضان سنة تسع وسبعين بعد المائة الرابعة للهجرة، ومن الإنصاف أن نشير إلى دور المعتمد بن عباد، الذي أصيب بجراحات في وجهه، وظهرت ذلك اليوم شجاعته. ولم يرجع من الفرنج إلى بلادهم غير ثلاثمائة فارس، وغنم المسلمون كل ما لهم من مال، وسلاح، ودواب، وغير ذلك[٢].

وبعد ذلك أخذت المدن الأندلسية تتهاوى أمام جيوش المرابطين الواحدة تلو الأخرى، ولم يزل أصحاب يوسف بن تاشفين يطوون تلك الممالك مملكة مملكة إلى أن دانت لهم الجزيرة بأجمعها، حيث استوثق أمر الأندلس لهم بعد القبض على المعتمد بن عباد، وسقوط إشبيلية سنة (٤٨٤هـ)، إذ كان المعتمد كبش كتيبتها. وتابع المرابطون فتوحاتهم، فسقطت معظم ولايات الأندلس مثل غرناطة، ومالقة، وجيان، وقرطبة، وألمرية، في وقت يسير، لم يتجاوز ثمانية عشر شهراً، وسقطت الأندلس كلها ما عدا ولاية سرقسطة في يد المرابطين، في حدود سنة (٤٨٧هـ) على أبعد تقدير[٣]، وما كانت سنة (٤٨٤هـ) تطل على الأندلس، حتى كان الزحف المرابطي يلتهم دول الطوائف الواحدة بعد الأخرى بقيادة سير بن أبي بكر، وتساقطت الحصون الأندلسية

---

(١) المراكشي، عبد الواحد الراكشي ت ٦٤٧هـ، (**المعجب في تلخيص المغرب ١٩٩٤**)، تحقيق محمد زينهم محمد عزب، دار الجرجاني للتوزيع والنشر، ص٢٢٦.

(٢) ابن الأثير، **الكامل في التاريخ**، ج٨، ص٣١٢.

(٣) منصور ، حمدي **الطبيعة في الشعر الأندلسي**، ص٣٨.

تباعاً، منها بحرب، ومنها بغير حرب، وهكذا انضوت الأندلس تحت حكم المرابطين، وأصبحت ولايةً تابعةً لإمبراطوريتهم في المغرب[١].

وقد استطاعت دولة المرابطين أن تجمع بين المغرب والأندلس، وأن تبسط نفوذها حتى إقليم السنغال والنيجر، وجمعت بين المؤثرات الأندلسية والمغربية والسودانية، وألفت بين التراث الأندلسي والمغربي والسوداني، كما استطاعت أن ترفع من شأن مذهب الإمام مالك، وتعلي كلمته في الأندلس، وعملت على إقامة مجتمع فاضل يقوم على إحياء السنة، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، ومحاربة البدع، والتوسع الجهادي بصورة لم تكن معروفة من قبل، كما عملت على القيام بإصلاحات اقتصادية واضحة[٢].

تسمى يوسف بن تاشفين باسم "أمير المسلمين وناصر الدين"، وخاطب الخليفة العباسي المستظهر بالله ببغداد، وبعث إليه عبد الرحمن بن محمد بن العربيّ المعافري الأشبيلي، وولده القاضي أبا بكر، فطلبا من الخليفة أن يعقد ليوسف بن تاشفين على المغرب والأندلس، فبعث إليه بمرسوم الولاية والخلع، والتشاريف، وأقيمت الخطبة العباسية بممالكه، وذكر اسم الخليفة في سكته[٣].

اتسعت حدود الدولة المرابطية في عهد الأمير علي بن يوسف، وخطب له على ألفي منبر ونيف وثلاثمائة منبر، وملك من البلاد ما لم يملكه والده، لأنه وجد البلاد هادئة والأموال وافرة، والملك قد توطّد والأمور قد استقامت، وأصبحت الأندلس لأول مرةً ولايةً تابعة للمغرب[٤].

ظلت سيطرة المرابطين على الأندلس إلى أن انقرضت دولتهم، وزالت عن الوجود وغابت شمسهم في أواخر سنة (٥٤١هـ) وأوائل سنة (٥٤٢هـ) على يد الموحدين[٥].

---

(١) السعيد، محمد مجيد، (١٩٨٠). **الشعر في عهد المرابطين والموحدين بالأندلس**. بغداد: دار الرشيد للنشر، سلسلة دراسات ١٦١، ص١٣.

(٢) ملحس، ثريا عبد الفتاح، (١٩٨٨). **المرابطون اللمتونيون**. (ط١)، بيروت: الشركة العالمية للكتاب ودار الكتب اللبنانية، ص٢٩.

(٣) روض القرطاس، ص١٣٦، ١٥٧.

(٤) منصور، حمدي الطبيعة في الشعر الأندلسي، ص٣٩و٤٠.

(٥) النويري ، (شهاب الدين أحمد بن عبد الوهاب ، ت٧٣٣هـ/١٣٣٣م) ، **نهاية الأرب في فنون الأدب ٢٠٠٤**، تحقيق: عبد المجيد ترحيني ، بيروت ــ دار الكتب العلمية ، مجلد١١ ، الجزء ٢٤، ص١٥٢ .

ثانياً: دولـــة المـــوحـــديـــن :

أول من ظهر من ملوك هذه الدولة، وأسس قواعدها، وقام بأعبائها وأنشأها، المهدي محمد بن تومرت. وهو أبو عبد الله محمد بن تومرت الحسني، وقبيلته من المصامدة تعرف بهَرَغة في جبل السوس، نزلوا به لما فتحه المسلمون مع موسى بن نصير. وكان فقيهاً فاضلاً محدّثاً، عارفاً بأصولي الدين والفقه، محققاً لعلم العربية، وكان ورعاً ناسكاً. وقد ابتدأ أمره وظهر في سنة أربع عشرة وخمسمائة [١]، وزعم بعض المؤرخين أن نسبه من أهل البيت[٢].

كان عبد المؤمن ثائراً على دولة المرابطين ، محرضا على الخروج عليهم ، لأنهم اتبعوا الباطل ، وسمى أتباعه: بالموحدين، وأعلمهم ان النبي صلّى الله عليه وسلم ــ بشر بالمهدي الذي يملأ الأرض عدلا ، ويخرج من المغرب الأقصى[٣]. فقام إليه عشرة رجال وقالوا له " أنت المهدي " وبايعوه ، وساروا في ركابه ، فدعاهم إلى جهاد المرابطين ، وأباح لهم دماءهم ، فبايعوه على الموت، فراحوا يغزون في بلاد المغرب ويوقعون بالمرابطين حتى بلغوا مراكش فحاصروها ، ولكنها امتنعت عليهم[٤]. ومات المهدي سنة ٥٢٤هـ قبل أن يتم ما بدأ به ، ويقيم دولته ، وكان قد أوصى بعده لعبد المؤمن بن علي ، أحبّ صحابته إليه ، فبايعوه بالخلافة ، وتلقب بأمير المؤمنين . وتابع جهاده حتى أزال دولة المرابطين وأقام دولة الموحدين ، وضم الأندلس إلى ولايته الجديدة .

وفي ذي القعدة سنة (٥٥٥هـ)، جمع عبد المؤمن جموعاً عظيمة، وعبر بنفسه إلى الأندلس، ونزل بجبل طارق، وسمّاه جبل الفتح، وأقام عبد المؤمن يرتب أمور الأندلس، فقسمها إلى ولايات يحكمها أبناؤه، ثم رجع إلى مراكش بعد ما ملأ ما ملكه من أقطار جزيرة الأندلس خيلاً ورجالاً من المصامدة، والعرب، وغيرهم من أصناف الجند، ثم جاز عبد المؤمن إلى "سلا"، حيث مرض هناك، وتوفي في جمادى الآخرة سنة (٥٥٨هـ)، ودفن بجوار قبر المهدي بتينمل[٥].

---

(١)**النويري: نهاية الأرب في فنون الأدب**، مجلد ١١، الجزء ٢٤، ص١٥٢.
(٢)ابن خلدون : تاريخ ابن خلدون ، ج٦، ص٢٢٧.

(٣)ابن الأثير، **الكامل في التاريخ**،ج٨، ص٦٠٥
(٤)الركابي، جودت : في الأدب الأندلسي ، ص٢٨
(٥)ابن خلدون : تاريخ ابن خلدون ، ج٦، ص٢٢٧

وإذا كان المهدي هو المؤسس الروحي للدولة فإن عبد المؤمن بن علي الكومي المنشئ الحقيقي لتلك الدولة، وعلى يديه توطد سلطانها بالمغرب وإفريقية والأندلس، وفي ظله تحولت الخلافة الموحدية شيئاً فشيئاً من إمامة دينية إلى خلافة دنيوية يتوارثها أبناؤه، وإلى ملك سياسي باذخ، وذلك مع الاحتفاظ برسوم الإمامة المهدية.

ومن الإنجازات العظيمة التي حققها الموحدون في الأندلس **معركة الأرك** التي وقعت في عهد الخليفة الموحدي المنصور، في التاسع من شعبان سنة (٥٩١هـ)، بمقربة من قلعة رباح، فقد هُزِمَ فيها النصارى أشد هزيمة، فقد قال ابن عذاري في وصف هذه المعركة: "كان الناس يضربون الأمثال بوقعة الزلاقة، ويعظمون أمرها، ولا يذكرون غيرها... وجاءت هذه الوقعة، فأنست كل فتح الأندلس، وبقي بأفواه المسلمين إلى الممات ذكرها[١]

ومن أهم ما حققته معركة الأراك أنها أخرت – إلى حين – سقوط الأندلس بيد النصارى وقد عاث المنصور في أراضي النصارى بعد هذه المعركة، ووصل إلى مواضع "لم يصل إليها ملك من المسلمين قط، إلا إنه لم يحاول الاستمرار في توسعاته بعد توسلات ألفونسو ملك قشتالة، فهادنه إلى عشر سنوات، وعبر البحر إلى مراكش سنة (٥٩٤هـ)، فتوفي بها بعد عام واحد، وذلك سنة (٥١٥هـ).

على أن الموحدين هزموا بالأندلس سنة (٦٠٢هـ)، وخليفتهم الملقب بالناصر في وقعة العقاب، وهزموا أيام ابنه الملقب بالمستنصر سنة (٦١٠هـ) في معركة أبي دانس.

وكانت هذه الهزائم إيذاناً بضعف الموحدين ، وكانت فرصةً سانحةً لممالك النصارى في الشمال لتحتل معظم بلاد الأندلس في عقود قليلة من القرن السابع الهجري، وإنهاء دور الموحدين في الأندلس.

---

(١) ابن عذارى، المراكشي : البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب١٩٨٥،ط١، تحقيق: محمد إبراهيم الكتاني وآخرون، دار الغرب الإسلامي ــ بيروت، ص٢٢٠ –٢٢١ .

وقد كانت موقعة العقاب نذيراً بضعف الدولة الموحدية في الوقت نفسه الذي كانت فيه نذيراً باضطراب أحوال الأندلس، وظهور فترة مشابهة لمدة عصر الطوائف في التشرذم والضعف، وتكالب العدو على البلاد والعباد[١].

وكانت مدة قيام هذه الدولة من حين ظهور المهدي محمد بن تومرت في سنة أربع عشرة وخمسمائة ، إلى حين انقراضها سنة ست وستين وستمائة، مائة سنة وثلاثا وخمسين سنة تقريبا[٢].

(١) الداية، محمد رضوان، (). **في الأدب الأندلسي**. بيروت: دار الفكر، ص٣٧.
(٢)النويري: نهاية الأرب في فنون الأدب ،مجلد١١، الجزء٢٤،ص١٩١.

ثالثاً: الـــــرثـــاء:

الرثاء لغة: الرثاء في اللغة يعني البكاء على الميت ، ومدحه بعد موته. وقد ورد تعريف الرثاء عند ابن منظور وغيره من أصحاب المعاجم، وجميعهم يحومون حول المعنى المتعارف عليه للرثاء وهو: البكاء على الميت، وذكر محاسنه.

ورثى فلانٌ فلاناً: إذا بكاه بعد موته، ورثوتُ[١] الميت أيضاً إذا بكيته وعددت محاسنه، وكذلك إذا نظمت فيه شعراً.

والرثاء عند الخليل[٢]، بعني البكاء على الميت ، ومدحه.

أما المعنى الاصطلاحي للرثاء فقد جاء عند عدد من الأدباء والنقاد، ومنهم النويري الذي رأى "أن المراثي جعلت تسلية لمن عضته النوائب بأنيابها، وفرقت الحوادث بين نفسه وأحبابها، وتأسية لمن سبق إلى هذا المصرع، ونهل من هذا المشرع، ...ثم فصل في باب الرثاء فقال عنه: " باب فسيح الرحاب، والنوادي، فصيح اللسان في إجابة المنادي، ذي القلب الصادي، متباين الأسلوب، مختلف الأطراف، متباعد الشعوب منه ما يصمي القلوب بنباله، ومنه ما يسليها بلطيف مقاله، ومنه ما يبعثها على الأسف، ومنه ما يصرفها عن موارد التلف..... [٣]"

أما المبرد فقد حصر الرثاء في التعزية[٤]، ". والعزاء هو السلو، وحسن الصبر على المصائب". وأحسن الشعر عنده "ما خلط مدحاً بتفجع، واشتكاء بفضيلة، لأنه يجمع التوجع الموجع تفرجاً، والمدح البارع اعتذاراً من إفراط التفجع باستحقاق المرثي. فإذا وقع نظم ذلك بكلام صحيح ولهجة معربة، ونظم غير متفاوت فهو الغاية من كلام المخلوقين".

وقد قسم أبو البقاء الرندي، الرثاء إلى ثلاثة أقسام : التوجع والتأبين والتعزية .

---

(١) ابن منظورمحمد بن مكرم بن علي (ت٧١١هـ/١٣١١م).**لسان العرب** ، ط١، دار صادر للطباعة والنشر ، بيروت ، مادة (رثأ).

(٢) الخليل ، أحمد ، (ت١٧٠هـ/٧٨٦م). **كتاب العين١٩٨٠** ، تحقيق مهدي المخزومي، وإبراهيم السامرائي) القاهرة ــ دار ومكتبة الهلال ،ج٨، ص٢٣٤.

(٣)النويري ، شهاب الدين أحمد بن عبد الوهاب ، (ت ٧٣٣هـ/١٣٣٣م): ، **(نهاية الأرب٢٠٠٤)**، تحقيق : يحيى الشامي ، بيروت ــ دار الكتب العلمية ــ مجلد ٣، الجزء الخامس، ص١٦٠-١٦١.

(٤) المبرد ، أبو العباس محمد بن يزيد (٢٨٦هـ،٨٦٦م). **التعازي والمراثي والمواعظ والوصايا والحكم** ، تقديم وتحقيق: محمد إبراهيم الجمل) ،دار نهضة مصر للطباعة والتوزيع والنشر ، ص٤٥.

"فالتوجع: يكون بتعظيم الرزء وإجلال الخطب ، وإعمال التأسف . والتأبين :بذكر مآثر المرثي ومكارمه ، ووصف ما يجب له . وأما التعزية : فبالحض على الصبر والترغيب في الأجر ، والتأسي بالسلف فيما ناب عن مجامع الدنيا[١] " .

وبناء على ما سبق نستنتج أن الرثاء يعني :البكاء على الميت، ومدحه ،مع ذكر صفاته الحسنة، وأخلاقه النبيلة، ومواقفه المشرفة ، والدعاء له بالرحمة والمغفرة ، وحث ذويه على الصبر والسلوان .

(١) الرندي ، أبو البقاء صالح بن شريف (ت ٦٨٤هـ) . **الوافي في نظم القوافي** ، تونس ، دار الكتب الوطنية ، رقم :١٨٠٧٧ مركز الوثائق والمخطوطات ــ الجامعة الأردنية ، رقم ٩٦٥. (صورة بالميكرو فيلم)، ص٢٨.

الفصل الأول

رثاء الأقارب

المبحث الأول: رثاء الذكور:

أولاً: رثاء الآباء

ثانياً: رثاء الأبناء

ثالثاً : رثاء الأخوة

رابعا: رثاء الأقارب الآخرين

المبحث الثاني : رثاء المرأة

أولاً : رثاء الأمهات

ثانيا : رثاء الزوجات

ثالثاً : رثاء البنات

رابعاً : رثاء الجدات

خامسا : رثاء العمات

المبحث الأول : رثاء الذكور

أولا : رثاء الآباء

الأب هو المعيل لأسرته الراعي لها، وهو الناصح الأمين، والركن المتين الذي بفقده تفقد الأسرة رأسها، ومعيلها، وحاميها، ولذا ليس غريباً أن يهتم الشعراء بذكر مآثر آبائهم.

وقد تأثر الشعراء الأندلسيون كغيرهم بفقد آبائهم، ورثوهم بقصائد عبروا فيها عن آلامهم وأحزانهم وعظيم مصابهم، وقد أكثر الشعراء من رثاء آبائهم، وذكر مناقبهم وصفاتهم، ولعل أبرز الشعراء الذين أفاضوا في رثاء آبائهم ابن حمديس الصقلي[١]، ففي واحدة من قصائده التي يرثي فيها والده، تظهر الروح الإسلامية متمثلة بتسليمه لقضاء الله وقدره، واطمئنانه إلى فناء الدنيا، وأنها لا تساوي شيئاً، وأنها إلى زوال، وأن البقاء لله وحده وارث السماوات والأرض ومحيي العظام وهي رميم، وهو في هذا كله متأثر بالقرآن الكريم من نحو قوله تعالى: ﴿**كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ**﴾[٢]، وقوله تعالى: ﴿**كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلاَّ وَجْهَهُ**﴾[٣]، وقوله: ﴿**إِنَّا نَحْنُ نَرِثُ الأَرْضَ وَمَنْ عَلَيْهَا وَإِلَيْنَا يَرجِعُونَ**﴾[٤]، وقد لجأ الشاعر إلى استخدام المحسنات البديعية بما يخدم المعنى، ويزيد القصيدة جمالاً إلى جمالها، موظفاً الاستعارة توظيفاً جاء في مكانه، يقول[٥]:

يَـــــدُ الـــــدَّهْرِ جارِحَـــــةٌ آســـــيَه ... وَدُنيَـــــــاكَ مُفنِيَـــــــةٌ فَانيَـــــــه
وَرَبُّـــــــــكَ وارثُ أَربابِهـــــــــا ... وَمُحيـــــــي عِظَـــــامَهُمُ البَاليَـــــه
رَأَيْـــــتُ الحِمَـــــامَ يبيـــــدُ الأَنَـــــامَ ... وَلَدغَتُـــــهُ مـــــا لَهَـــــا راقيَـــــه
وأَرواحُنـــــــا ثَمَـــــــراتٌ لَـــــــهُ ... يَمُـــــدُّ إِلَيهـــــا يَـــــداً جانيَـــــه

فالشاعر على يقين أن لا نجاة لأحدٍ من الموت، وأن نيل الخلود مستحيل، وكل ما يرجوه أن تكون يد ملك الموت حانية وهي تستل روح والده، ولا يغفل الشاعر عن طلب السقيا لروح

---

(١) ابن حمديس: أبو محمد عبد الجبار بن محمد بن حمديس الصقلي، وُلد سنة (٤٤٧هـ/١٠٥٥م)، من أصل عربي أزدي، من عائلة محافظة فيها وترٌ قوي من التدين، ووتر آخر من ثقافته الأدبية الأولى، التي مكنته من قول الشعر في صباه. عاش طويلاً، وتوفي في (رمضان ٥٢٧هـ/ تموز ١١٣٣م). دُفن ببجايه، وألحد الرجل الغريب في أرض غريبة. ابن حمديس، (١٩٦٠). **الديوان**، (صححه وقدم له: إحسان عباس)، بيروت: دار صادر، ص٣-١٦.

(٢) سورة الرحمن، آية ٢٦.

(٣) سورة القصص، آية ٨٨.

(٤) سورة مريم، آية ٤٠.

(٥) ابن حمديس، **الديوان**، (صححه وقدم له: إحسان عباس). بيروت: دار صادر، ص٥٢٢.

والده، فطلب السقيا عند الشعراء معروف منذ العصر الجاهلي كما ورد عند المتلمس الضبعي مثلاً في رثائه نفسه، وذلك قوله [١]:

فَمُــــرَّا عَلـــــى قَبْـــــري فَقُومـــــا فَـــــسَلِّما وَقـــولا سَـــقاكَ الغَيْـــثُ والقَطْـــرُ يـــا قَـــبرُ

وعند النابغة الذبياني، كما في قوله[٢]:

سَقى الغَيـــثُ قَبْـــراً بَـــينَ بُـــصْرى وَجاســـمٍ بِغَيـــثٍ مِـــنَ الـــوَسميِّ قَطْـــرٌ وَوابـــلُ

وإذا كان ابن حمديس يطلب السقيا لقبر أبيه، فهو لا ينسى أن يقرن هذا بالدعاء له وطلب الرحمة والمغفرة، وأن تؤول روحه إلى عيشة راضية، يقول ابن حمديس[٣]:

سَقـــــــى قَبْـــــــرَ أبي رَحْـــــــــمَةً فَـــــــسُقْـــياهُ رائـــــــحَةٌ غاديَـــــــة
وَسُـــــــيِّرَ عَـــــنْ جِـــــسمِهِ روحـــــــه إلى الـــــرَّوْحِ والعِيـــــــشَةِ الرّاضـــــيَة

ثم أخذ الشاعر في تعداد مآثر أبيه، وأخلاقه، وصفاته، مستخدماً كم الخبرية ليدلل على كثرة الصفات الحميدة؛ فهو صاحب خلق رضي، وهمة عالية، وكرم ومروءة وشهامة؛ فلو أن أخلاقه كانت للدهر لصفى لإنسانه، وعذب لأهله، يقول في ذلك[٤]:

فكَــــمْ فيــــهِ مِـــــنْ خُلُـــــقٍ طـــــاهِرٍ وَمِـــــنْ همَّـــــةٍ في العُلـــــى ســـــامِيَة
وَمِـــــــنْ كَـــــــرَمٍ كـــــــان في أَوَّلٍ وَشَـــــمْسُ النَّهـــــارِ لَـــــهُ ثانيَـــــة
وَلَـــــو أنَّ أخْلاقَـــــــهُ للزَّمـــــــانِ لَكانَـــــــتْ مَـــــــوارِدُهُ صَـــــافيَة

وبعد أن ذكر الشاعر بعض صفات أبيه التي جعلته أهلاً لأن يرثى، وأن يحزن عليه؛ فهو عالي الهمة معطاء، يعود الشاعر ليصف لنا كيف كان وقع الخبر عليه، وكيف استقبل خبر وفاة أبيه، يقول[٥]:

---

(١) الضبعي، المتلمس، (١٩٨٨). **الديوان، رواية الأثرم وأبي عبيدة عن الأصمعي.** (تحقيق محمد التنوخي)، (ط١)، بيروت: دار صادر، ص٨٦.

(٢) النابغة الذبياني، (٢٠٠٤). **ديوان النابغة الذبياني.** (شرح وتقديم عباس عبد الساتر)، (ط١)، بيروت: دار الكتب العلمية، ص١١١.

(٣) ابن حمديس، **الديوان**، ص٥٢٢.

(٤) المصدر نفسه، ص٥٢٢.

(٥) ابن حمديس، **الديوان**، ص٥٢٣.

أَتـــــاني بِـــــدارِ النَّـــــوى نَعْيُـــــهُ ... فَيـــــا رَوعَـــــةَ الـــــسَّمعِ بالدَّاهيَـــــة
فَحَمَّـــــرَ مـــــا ابْـــــيَضَّ مِـــــنْ عَبْـــــرَتي ... وَبَـــــيَّضَ لِمَّـــــتي الدَّاجيَـــــة
فَمَثَّلـــــتُ في خَلَـــــدي شَخْـــــصَهُ ... وَقَرَّبْـــــتُ تُربَتَـــــهُ القَاصـــــيَة
وَنُحْـــــتُ كَثَكْلـــــى عَلـــــى ماجِـــــدٍ ... ولا مُـــــسْعِدٍ لي سِـــــوى القافيَـــــة

فالشاعر يقف في أبياته السابقة على حقيقة الموت التي حلت بأبيه، وهو عنه بعيد وقد كان لذلك أثر كبير عليه، فوقف مذهولا للداهية التي دهته ، والمصيبة التي حلّت به، ووصف ذلك وصفا مروعا مبينا أثر الخبر على محياه، فقد صارت عيونه حمرا من شدة الحزن، واشتعلت لمته شيبا ، وما هذا إلا لهول الحدث وفداحة الأمر، من هول ما سمع. ولم يكتفِ بالبكاء فقط، وإنما صار ينوح على المرثي؛ أي يرفع صوته عالياً بالبكاء، وما هذا إلا لشدة المصيبة، لذلك لجأ إلى الشعر لأنه متنفسه الوحيد ليعبر فيه عما حل به، وقد يكون النواح من علامات الوفاء للميت ، هذا مع العلم أن ابن حمديس يشبه نفسه بالثكلى التي فقدت أولادها، ومن المعلوم أن النائحة الثكلى من أشد الناس حزنا، وقد قيل: "ليست النائحة الثكلى كالنائحة المستأجرة"[١].

وبعد تلك الأبيات التي عبّر فيها الشاعر عن حزنه وغربته، صار يعقد مقارنةً بين حاله وحال أبيه؛ فالشاعر يعاني من مرارة الاغتراب، وأبوه ذهب إلى غير عودة، ولكن نصائحه ما زالت كالنجوم التي تهدي من يضل طريقه، يقول [٢]:

ورحْـــــتُ إلى غُربَـــــةٍ مُـــــرَّةٍ ... وَراح إلى غُرْبَـــــةٍ ســـــاجيَة
وَقَـــــدْ أوْدَعَـــــتْني آراؤه ... نُجومـــــاً طَوالِعُهـــــا هاديَـــــة
سَـــــمِعْتُ مَقالَـــــةَ شَـــــيخي النَّـــــصيح ... وأرضـــــي عَـــــنْ أَرضِـــــهِ نائيَـــــة

ويسلم الشاعر أمره لله الذي لا ملجأ منه إلا إليه ، معزياً نفسه بأنه لاحق بأبيه؛ فالموت لا مفر منه، ولكن العزاء أن يبقى ذكرأبيه في نفسه، وتبقى نصائحه كالنجوم التي تهدي من ضَلَّ السبيل؛ فالشاعر وإن كان غريبا عن أبيه لكنه مازال مخلصاً لذلك الشيخ الذي أحكمته التجارب ، وعركته الأيام ، فأبقى للولد من النصح ما لو أخذ به لكان في مأمن من هذه الدنيا .

---

(١) الميداني، أبو الفضل أحمد بن محمد بن أحمد، (٢٠٠٢). **مجمع الأمثال**. (ط١)، بيروت: دار صادر، مج٣، ص١٥٤.
(٢) ابن حمديس، **الديوان**، ص٥٢٤.

ويختتم ابن حمديس رثائيته عائداً لحقيقة الوجود المكتوبة على الخليقة ؛ وهي الموت الذي فتك بآبائه وأجداده فكان لزاما على أبيه أن يمضي كما مضى غيره من الآباء الكرام، والأجداد العظام، الذين إن غيبهم الموت فلن يغيب ذكرهم ، ومفاخرهم ومآثرهم، ثم يبين الشاعر أنه لم يرثِ أباه فور موته وإنما بعد أن بكاه مدة من الزمان ، وقد وصف لوعته ، ودموعه الجارية على الفقيد ، هذا مع علمه أن لاحق بأبيه ، يقول في ذلك[١]:

مَضَى سالِكاً سُبْلَ آبائه ... وَأَجْدَاده الغُرَرَ الماضية
كِرامٌ تَوَلَّوا بِرَيْبِ المَنُون ... وَأَبْقَوا مَفَاخِرَهُم بَاقِيَة
بَكَيْتُ أَبِي حِقْبَةً والأسى ... عليَّ شَوَاهِدُهُ باقِيَة
وَمَا خَمَدَتْ لَوعةٌ تَلتَظي ... وَلا جَمَدَتْ عَبْرَةٌ جارية
وَنَفْسِي وَإِنْ مُدَّ في عُمْرِها ... بِما لَقِيَتْ نَفسُهُ لاقِيَة

وكذلك رثى الشاعر أبو العباس أحمد بن شكيل[٢] والده أبا الحكم المتوفى في شوال سنة ثلاث وستمائة رحمه الله، وقد بدأ الشاعر قصيدته بلغة الحكيم الجَلِدِ الذي عرف الدنيا الغدارة الغرارة ، والزمان وتقلباته ، فهي تسر حينا، وتبكي أحيانا، يقول[٣]:

حَذَار حَذَارِ من رُكُونٍ إِلَى الزَّمَن ... فَمَنْ ذَا الَّذي يُبْقِي عَليه وَمَن وَمن
أَلَم تَرَ للأَحْداث أَقْبَلَها المُنَى ... وَأَقتَلَها ما عَرَّضَ المَرءَ للفتَن
تُسَرُّ مِنَ الدُّنْيَا بِما هُوَ ذَاهِبٌ ... وَيَبكِي علَى ما كانَ مِنها وَلَمْ يَكُن
أَرَى دَارَنَا لَيْسَتْ بِدارِ إِقَامَةٍ ... أَرَدنا نواءً عِنْدها وَهيَ في ظَعَن

فالشاعر يحذر من الدنيا الغدارة الخوانة الغرور التي ما أعطت إلا وأخذت وما أسرت إلا وأحزنت لا يدوم نعيمها ولا يؤمن بأسها ، تسر حينا ، وتبكي أحيانا، راحلة مدبرة مولية معرضة عمن أحبها وأرادها .

---

(١)ابن حمديس، **الديوان**، ص٥٢٤.

(٢) ابن شكيل: أبو العباس أحمد بن أبي الحكم يعيش بن علي الصّدفي، أديب وفقيه، من أهل شريش. أحد شعرائها الفحول مع نزاهة ومروءة سابقة الذيول، له ديوان شعر، وكان في مدة منصور بني عبد المؤمن. وُلد سنة (٥٧٨هـ)، وتوفي معتبطاً سنة (٦٠٥هـ). ابن شكيل، أبو العباس أحمد، (١٩٩٨). **شاعر شريش**. (ط١)، أبو ظبي: المجمع الثقافي، ص٣-٥.

(٣) ابن شكيل، أبو العباس أحمد، (١٩٩٨). **الديوان**، (تقديم وتحقيق حياة قارة)، (ط١)، أبو ظبي: المجمع الثقافي، ص٨١.

ويتأسى الشاعر بمن سبقه من الملوك الأعزة الذين أعطتهم الدنيا الملك ،والسلطة والخدم والحشم ، وكانت نهايتهم الموت . وهذه الطريقة في الرثاء عند القدماء كما ذكر ابن رشيق القيرواني "ومن عادة القدماء أن يضربوا الأمثلة في المراثي بالملوك الأعزة، والأمم السالفة، والوعول الممتنعة في قلل الجبال، والأسود الخادرة في الغياض ، وبحمر الوحش المتصرفة بين القفار ، والنسور ، والعقيان والحيات لبأسها، وطول أعمارها"(١)، يقول معتبراً(٢):

فَكَمْ سَكَنَ الدُّنيا مُلُوكٌ أعِزَّةٌ ... تَفَانَوا فَلَم تَسْتَبْقِ مِنْهُم لَهَا سَكَنْ
وَكَمْ فِي الثَّرى دَسَّتْ جَبِينَ مُتَوَّجٍ ... فَأَصْبَحَ بِالأَقْدَامِ يُوطَا ويُمْتَهَنْ
وَذِي جُنَّةٍ كَانَتْ تَقِيهِ مِنَ الرَّدى ... أتَاهُ الرَّدى فَاعتاضَ منها ثَرى الجَنَنْ
وَمَنْ ضَاقَتْ الدُّنيَا بِهِ وَبِجَيْشِهِ ... طَوَت شَخْصَهُ في قَيْدِ شِبرٍ مِنَ الكَفَنْ

وقد دلل الشاعر على كثرة الملوك الأعزة الذين صاروا في باطن الأرض باستخدام "كم الخبرية" التي تدل على الكثرة، وفي البيت الأخير نلاحظ أن الشاعر قد تأثر بالمتنبي في قصيدته التي قالها يمدح أبا المنتصر شجاع بن محمد بن أوس بن معن الأزدي(٣):

مِنْ كُلِّ مَنْ ضاقَ الفضاءُ بجيشه ... حَتَّى ثَوى فَحْواهُ لَحْدٌ ضَيِّقُ

وظل الشاعر يذكر ويتأسى بمن قبله، ليبرهن على أنه ليس الوحيد الذي مات أبوه، فقبله كثير ممن كان له حاجب، وحرس ومن يعتني به، ومن كان يؤمل أن يعيش طويلاً، ولكن كانت النهاية أن آل إلى الفناء ، فلم يغن عنه حرسه، ولم ينفعه حجابه فانقلبت الأمور رأساً على عقب، وكان الموت الذي لا مَفَرَّ منه(٤):

وَمُحْتَجَبٍ لا يَخْرِقُ الإذنُ حُجْبَهُ ... وَلَجْنَ مَناياهُ عَلَيهِ وَما أَذِنْ
وَذي حَرَسٍ لا يَغفَلُونَ احْتِراسَهُ ... رَمَتْهُ فَلَمْ يُنْصَر عَلَيها وَلَم يُعَنْ
وَمَاسِحِ عِطْفَيهِ مِنِ الدَّرِن انبَرَتْ ... لَهُ الدُّودُ أَكْلاً فَانثَنَى دَرَنَ الدَّرَنْ

---

(١) ابن رشيق ، أبو الحسن بن رشيق القيرواني (ت: ٣٩٠-٤٦٥ هـ)، (٢٠٠٣). **العمدة محاسن الشعر وآدابه** (١٩٨٨)، (تحقيق : محمد قرمزان)، ط١ دار المعرفة: بيروت، ج٢، ص٨١٠.
(٢) أحمد بن شكيل، **الديوان**، ص٨٣.
(٣) المتنبي، أبو الطيب أحمد بن الحسين، (د.ت). **شرح ديوان المتنبي**. بيروت: منشورات دار مكتبة الحياة، ص١٨٦.
(٤) أحمد بن شكيل، **الديوان**، ص٨٢.

وبعد أن أفاض الشاعر في حديثه عن الدنيا وغدرها ، وشدة بطشها بمحبيها ، وأنها عدو في ثياب صديق ، والمستغر بها كالمستجير من الرمضاء بالنار ، عاد ليستأنف قصيدته متحدثا عما أصابه من أحزان، وأرزاء عظيمة من أهمها موت أبيه " أبي حكم "، و أخيه " أبي الحسن " وقد كان لذلك أثرٌ كبيرٌ على الشاعر ، يقول (١):

لَعَمْــرُكَ إِنِّــي قَــدْ حَزِنْــتُ فَلَــمْ أَهِــنْ ... وَكُنْــتُ جَــدِيرَ الــرُّزْءِ بــالحُزْنِ والــوَهَنْ
دَهَـــــتْنِي المنايــــا في أبي حَكَــــمٍ أبي ... وَمِنْ قَبْــلُ وَارَيْــتُ الــشَّقِيقَ أبــا الحــسنْ
فَيـــا لَكُمـــا بَـــدْري عَـــلاءٍ تَـــساقَطا ... وَكَانَـــا سَـــنَا عَيْنِـــي وأَسْـــنَاهُما الأَسَـــنْ
تَـــضَمَّنَ شَـــوَّالُ مَناياهُمَـــا مَعَـــاً ... فَبَيْنَهُمَـــا حَـــولٌ وَفَقْـــدُهُما قَـــرَنْ
تَـــلا فَقْـــدَ هـــذا فَقْـــدُ ذا مُتَتابِعـــاً ... فَشَمْسٌ تَلَــتْ بَــدْرًا وَأَصْــلٌ تَــلا غُــصُنْ

ونلاحظ أن الشاعر قد بدأ هذا القسم مستخدماً أسلوب القسم "لعمرك"، ليؤكد أنه حزن على فقد أبيه؛ فأبوه يستحق أن يحزن عليه، ولكن المنايا لم تترك الشاعر ليفقد عزيزاً واحداً فقط، وإنما أصيب بأخيه، وبعد حول فقد أباه، فكانت مصيبة الشاعر في عزيزين. وقد أصاب الشاعر في وصفه في البيت الثالث، عندما شبههما بالبدرين، وعبّر عن موتهما بـ"تساقطا"، وأيضاً وفق الشاعر في بيان الزمن الذي كان بين موت أبيه وأخيه، فقد وافتهما المنية في شوال، فقد توفي أخوه وبعد حول لحقه أبوه، وأيضاً كان الشاعر موفقاً في تعبيره في البيت الأخير.

ومن ثم يعود الشاعر ليصف حاله كيف صارت بعد فقد هذين العزيزين، يقول(٢):

خَـــلا مِنـــهُما النَّـــادي وَكانـــا وَقـــارَهُ ... فَزُلزِلَ رَضْــوى واســتطيرت رُبــا حَــضَنْ
وَلَـــمْ يُبْـــقِ رَوضـــي بَعْـــدَ هَلكِهِمـــا الحَيـــا ... وَكُنْـــتُ أَسَـــقِّي مِنْهُمـــا الـــسُحُبَ الهَـــتَنْ
فَللـــه صَـــبْري بَـــلْ شُـــجُوني فَـــإنَّني ... نَشَرْتُ اصْــطِبارًا وانْطَوَيْــتُ عَلــى شَــجَنْ
بَـــدا أَعْظَـــمَ الأَرْزاءِ وَاكْتـــتَمَ الأَسَـــى ... فَنَاقَــضْتُ جُــلَّ النَّــاسِ فِي الــسرِّ والعَلَــنْ

فقد أصبح المكان خالياً، وصار الشاعر وحيداً، وجبل رضوى قد زلزل، وربا حضن وهو أيضاً جبل بقلة نجد، طار من مكانه، والشاعر يتعجب من صبره " فلله صبري"، ويبين لنا أن هذا الفقد من أعظم المصائب التي مرت عليه فقد كتم أساه، وناقض الناس في السر والإعلان.

---

(١) أحمد بن شكيل ، الديوان ، ص٨٢.
(٢) المصدر نفسه، ص٨٢.

ويرسم الشاعر حواراً دار بينه وبين نفسه، وروحه وفؤاده، ويظهر في هذا الحوار عمق الأسى الذي حل بالشاعر بعد موت أبيه ، يقول(١):

فَقُلْتُ لجِسْمي خَالياً أَنْتَ والضَّنى ... وَللُّروحِ بئس الرُّوحُ مالكَ لَمْ تَبِنْ
فَقالَ فُؤادي هَلْ أذُوبُ مِنَ الأَسى ... مَعِي الدمُّ مَسْفوحاً فقُلْتُ افْعَلي وإنْ

إذن فهو يستهجن العيش بعد أبيه ، ويعجب كيف بقي على قيد الحياة ، وقد فارق أعز الناس عنده، ولو كان الأمر بيده لفداه بروحه ، وذاب فؤاده ، وسُفِحَ دمه ، وما هذا إلا لشدة حبه لأبيه وقوة ارتباطه به.

وبعد هذا الحوار الفائض بالأسى والحزن صار الشاعر يتساءل عن النعم التي أسبغها عليه الوالد ، في مراحل حياته جميعها ؛ الطفولة ، والكهولة ، والشيخوخة ، ثم تساءل عن حنان أبيه الذي غيبه الموت ، و كان لفقدان الحنان حزنٌ في القلب لا يجف ترياقه، ثم يعود الشاعر فيذكر النعم التي أغدقها عليه الوالد ، وعطفه ، وعظيم خلقه ، يقول(٢):

فَأيْنَ الأيَادي السَالفاتُ التي بها ... شَهيدٌ عَلَيَّ الطِّفْلُ وَالكَهْلُ والْيَفَنْ"
وَأَيْنَ حَنانٌ كُنْتُ أَعْرِفُهُ بِهِ ... فَيا قَلْبُ ما أَشْجى عَلَيْه وَما أَحَنْ
وَكَمْ مِنَنٍ مِنْ دون مَنٍّ تَتابَعَتْ ... عَلَيَّ لَهُ والنَّاسُ مَنٌّ بِلا مِنَنْ
وَكَمْ مِنْ عَظيمٍ قَدْ وَقاني بِنَفسِهِ ... فَهانَ وَلَولا عَطْفُهُ بِيَ لَمْ يَهُنْ

وبعد أن بيَّن الشاعر مكانة أبيه منه، فقد كان كريماً معطاءً، مربياً فاضلاً، صار الشاعر يعدد محاسن المرثي و صفاته التي خلّدت ذكره ، وأبقت اسمه وكان لفقدها أثر في نفس الشاعر فقد كان المرثي وحيد زمانه ، رجل الشدائد ، جواداً، يأمر بالمعروف بعيداً عن البخل، يقول(٣):

أبي مَا أبي لا يُبْعِدُ اللَّهُ مِثْلَهُ ... وَمَنْ مثلهُ ذو اليُسْرِ في عُسْرَةِ الزَّمَنْ
جَوَادٌ يَزينُ الجُودَ منهُ تَواضُعٌ ... فَفَوقَ الَّذي أبْدى مِنَ الجُودِ ما أكَنْ
إذا سُئلَ المَعْرُوفَ أسْبَلَ وَابلا ... وَإنْ هُوَ لَمْ يُسْألْ تَفجَّرَ أوْ هَتَنْ
وَلَمْ يَدَّخِرْ في أمْسِهِ قُوتَ يَومِهِ ... نَزاهَةَ نَفسٍ لا كَمَنْ حاطَ واخْتَزَنْ

(١)أحمد بن شكيل، **الديوان**، ص٨٢.
(٢)المصدر نفسه ، ص٨٣.
(٣)المصدر نفسه، ص٨٣.

فالشاعر يبين أن أباه فريد عصره جواد متواضع، يعطي إن سئل وإن لم يسأل، لا يدخر المال تخوفاً من الزمن أو كما يفعل البخلاء، وجميع الصفات السابقة هي صفات نفسية والمدح بالصفات النفسية، هو ما ذهب إليه قدامة بن جعفر، الذي قال: "... إنه لما كانت فضائل الناس، من حيث إنهم أناس، لا بد من طريق ما هم مشتركون فيه مع سائر الحيوان على ما فيه من أهل الألباب من الاتفاق في ذلك، إنما هي العقل والشجاعة والعدل والعفة، كان القاصد لمدح الرجال بهذه الأربع الخصال مصيباً، والمادح بغيرها مخطئاً، وقد يجوز في ذلك أن يقصد الشاعر للمدح منها بالبعض، والإغراق فيه دون بعض"(١).

ثم يفصّل الشاعر حياة أبيه كيف كانت؛ فقد أمضى شبابه كريماً معطاءً، وأنهى شيبته مؤدياً واجبات ربه، ومتمثلاً لسنة نبيه (ﷺ)(٢):

شَـــبِيبَتُهُ بَـــيْنَ المَكَـــارِمِ وَاللُّهَـــا ... وَشَـــيْبَتُهُ بَـــيْنَ الفَـــرَائضِ وَالـــسُّنَنْ

ويعود الشاعر في القسم الأخير من القصيدة، ليقسم أن أباه نعم المرء حياً وهالكاً، ويبارك قبره، والثرى الذي ضمه، وضم روحه وبدنه، ثم يطلب من الله تعالى بأسمائه الحسنى وصفاته العظمى أن يعفو عن أبيه ،راجيا له حب النبي (ﷺ)، وأن يكون ممن يشرب من حوض النبي (ﷺ)؛ فقد كان موحداً، مصلياً الخمس، متبعاً سنن النبي (ﷺ)(٣):

لَعَمْـــري لَـــنِعْمَ المَـــرءُ حَيَّـــاً وَهالكَـــاً ... لدافنـــه الفَخْـــرُ العَظِـــيمُ بمَـــنْ دَفَـــنْ
فَبُـــورِكَ مِـــنْ قَبْـــرٍ وَطُهِّـــرَ مِـــنْ ثَـــرَى ... وَقُـــدِّسَ مِـــنْ رُوحٍ وَعُـــوفِيَ مِـــنْ بَـــدَنْ
رَجَـــوتُ لَـــهُ عَفـــوَ المُهَـــيمِنِ إنَّـــهُ ... هُـــوَ المَلِـــكَ الغَفَّـــارُ ذو الطَّـــولِ وَالمِـــنَنْ
وأَرْجُـــو لَـــهُ حُـــبَّ النَّبِـــيِّ مُحَمَّـــدٍ ... فَـــذَنبُ مُحبِّـــه بِغُفْرانـــه قَمَـــنْ
وأَرْجُـــو لِـــسُقياهُ ســـقايةَ مَـــوردٍ ... حَـــلا حَوضُـــهُ مَـــا بَـــينَ أيْلَـــة والـــيَمَنْ
فَقَـــدْ قَـــامَ بِالتَوحيـــدِ والخَمْـــسِ عُمْـــرَهُ ... وَصَـــلَّى عَلَـــى المُختَـــارِ وَاتَّبَـــعَ الـــسُّنَنْ

ويختم الشاعر قصيدته بمخاطبة خليليه بأن الصبر هو طريقه الوحيد على هذا المصاب الجلل، ويطلب أيضاً منهما أن يقفا ويحييا القبر الذي حل فيه أبوه ، ويرى أنه لم يفقد أباه لأن

(١) قدامة بن جعفر، (١٣٠٢هـ). **نقد الشعر**. (ط١). القسطنطينية: مطبعة الجوائب، ص٢٠.
(٢) أحمد بن شكيل، **الديوان**، ص٨٣.
(٣) المصدر نفسه ،ص٨٣ و٨٤.

ذكراه لا تفارقه ، وإن غاب شخصه ؛ فهو ماثل في شمائله وخلاله وصفاته ، ومناقبه ، ثم يتصبر على فراقه ، ويتجلد منتظرا أن يلحق به عما قريب وأن يجمعهما الفردوس الأعلى [١]:

خَليلَـــيَّ إنَّ الـــصَّبْرَ صَـــبْرٌ وَلا أَرى ... ســـواهُ لِـــشَجْوي أَنَّـــهُ أعْـــصَمُ الجُـــنَنْ
قِفَـــا حَيِّيـــا القَبْـــرَ الَّـــذي حَلَّـــهُ أبي ... معـــي إنَّـــهُ رَأيٌ بَـــريءٌ مِـــنَ الغَـــبَنْ
وَلَـــسْتُ، وَإنْ أنْحـــى الزَّمـــانُ بِـــصرْفِه ... عَلَـــيّ وَنَـــالَتْني صُـــروفٌ مِـــنَ المِحَـــنْ
بِفاقِـــدِ شَـــيءٍ مِـــنْ أبي غَـــيرَ شَخْـــصِه ... وَلا بـــائعِ القُـــربى بِـــبَخْسٍ مِـــنَ الـــثَّمَنْ
عَـــسَى اللهُ في الفِـــردَوسِ يَجْمَـــعُ بَيْنَنَـــا ... فَـــإنَّ الـــرَّدى إنْ كَـــانَ يَجْمَعُنَـــا حَـــسَنْ

ومن الشعراء الذين رثوا آباءهم أبو الربيع الداني[٢]، الذي كانت مصيبته في أبيه أكثر من غيره، وكانت سمة الوحشية ظاهرة في الانتقام[٣]؛ فقد أمر المستنصر الموحدي بضرب ابن غالب الداني ألف سوط، وصلبه، فضرب بأشبيلية خمسمائة، وفاضت روحه، إلا أنهم استمروا في ضربه بقية الألف حتى تناثر لحمه، ثم صلب فرثاه ابنه، قائلا[٤]:

جَهْـــلاً لِمثْلِـــكَ أَنْ يَبْكِـــي لِمـــا قُـــدِّرا ... وَأَنْ يَقـــولَ أَســـىً يـــا لَيتَـــهُ قُبِـــرا
فَاضَـــتْ دُمُوعُـــكَ أَن قَـــاموا بِأَعظُمِـــه ... وَقَـــد تَطـــايرَ عَنْـــهُ اللَّحـــمُ وانتَثـــرا
وَأَوثَقـــوهُ إلى شَـــمَّاءَ ماثلَـــةٍ ... يُـــنَكِّسُ الطَّـــرفَ عنـــهَا كُـــلُّ مَـــنْ نَظـــرا
ضَـــاقَت بِـــهِ الأرضُ ممَّـــا كَـــانَ حَمَّلَهَـــا ... مِـــن الأيَـــادي فَمَجَّـــتْ شِـــلْوَهُ ضَـــجرا
وَعَـــزَّ إذ ذاكَ أَنْ يَحْظَـــى بِـــهِ كَفَـــنٌ ... فَمـــا تَـــسَربَلَ إلا الـــشَّمْسَ والقَمَـــرا

فالشاعر يصور أباه بطلا، رغم الظلم والاضطهاد والعذاب الذي تعرض له ، وأي عذاب أكثر من أن يوثق الرجل ويضرب بالسياط حتى يتناثر لحمه عن عظمه، ولكن الشاعر استطاع أن يرسم صورة بطولية للمرثي، وذلك عندما صور الأرض ضيقة بجثمانه ، لما له من

---

(١)أحمد بن شكيل، **الديوان**، ص٨٤.

(٢) أبو الربيع الداني: سليمان بن أحمد بن أبي غالب، ويكنى أبا داود، واشتهر بالداني، كان أبو داود من نبهاء طلبة مالقة وأدبائها، كاتباً بليغاً وشاعراً مطبوعاً، وكان في صغره من أجمل الناس. ابن خميس، أبو بكر محمد بن علي، (ت: ٦٣٩هـ)، **أدباء مالقة، المسمى مطلع الأنوار ونزهة البصائر والأبصار فيما احتوت عليه مالقة من الأعلام والرؤساء والأخيار، وتقييد ما لهم من المناقب والآثار**(١٩٩٩). (حققه وقدم له صلاح جرار)، (ط١)، عمّان: دار البشير، ص٣٧٢-٣٧٣. وانظر: ابن سعيد، أبو الحسن علي بن= =موسى، (ت: ٦١٠-٦٨٥هـ)، (١٩٥٩). **اختصار القدح المعلى في التاريخ المحلى**. (اختصره أبو عبد الله محمد بن عبد الله بن خليل)، (تحقيق إبراهيم الأبياري)، القاهرة: الهيئة العامة لشؤون المطابع، ص٥٣.

(٣) عصمت دندش، (١٤٢٥هـ). من مظاهر الحياة الاجتماعية بالأندلس: "طقوس الجنائز"، **مجلة دراسات أندلسية**، (١٣)، ص٢٥.

(٤) ابن سعيد، **اختصار القدح المعلى**، ص١٢٣.

أيادي خيّرة ، وأفعال حسنة ، وهبات وعطايا، وما إلى ذلك من آثار طيبة تدل على أن المرثي محمود السيرة عظيم الأخلاق عالي الشأن ، ثم يلتفت الشاعر إلى الشمس والقمر ويبين أنهما صارا قمصانا وأكفانا للمرثي، وتظهر في الأبيات النبرة الثورية، وتذكرنا بأبي الحسن الأنباري في رثاء وزير الدولة البويهي[١]:

عُلُـــوٌّ فِـــي الحَيَـــاةِ وَفِـــي المَمَـــاتِ لَحَـــقٌّ أنـــت إحْـــدى المُعجِـــزات

وقد كان للداني قصيدة رثائية أخرى تحمل اللغة الخطابية، ونلمح فيها أبياتاً تنكر الظلم، وفيها ما يدل على أن المرثي كان مشهوراً بالعفة والأدب، موصوفاً بالجلالة والصيانة، وقد صور الشاعر الليل يشتاق للمرثي ، فقد كان مصليا في غياهب الظلام ، يتلو كتاب الله آناء الليل ثم يصور الشاعر المرثي بالسراج الذي يستضاء به، فلما انتقل إلى رحمة ربه خبت تلك الأنوار وتعكر صفوها ، يقول في ذلك مصرحا بالمرثي أحمد بن علي [٢]:

يَـا "أَحْمَـدَ بـنَ عَلِـيٍّ" هُـبَّ مِـنْ وَسَـنٍ فَمَـا عَهِـدْتُكَ تَكْـرَى قَبْلَهَـا سَـحَرَا
تَاقَ الـدُّجَـى وَالمُـصَلَّى تَـحْـتَ غَـيْهَبِـهِ إلَـى تِـلَاوَتِـكَ الآيَـاتِ وَالسُّـوَرَا
قَـدْ كُـنْتَ فِـيهِ سِـرَاجـاً نَسْتَـضِيءُ بِـهِ حَـتَّى إذَا مَـا خَـبَـتْ أنْـوارُكَ اعْتَـكَرَا

ويصوّر الداني ساعة دفن أبيه في حمص[٣]، وهي ساعة عصيبة يَهْجُرُ لهولها خليلُه طعامه ومنامه ، أما الداني فيغص بدموعه لحزنه، وهو يواري أباه التراب، وكأنه يغمد سيفا في بيته[٤] :

خَلِيْلَـيَ لَـوَ تَـرَى فِـي حِمْـص دَفنِـي أَبِـي لَهَجَـرتَ طَعمَـكَ وَالمَنَامَـا
أُوَارِيـهِ بِـسترٍ مِـنْ ضَـرِيحٍ كَـأَنِّي مُغْمِـدٌ فِيْـهِ حُـسَامَا
كَـأَنَّ مَحَـاجِرِي وَدَقَـت لَدَيْـهِ عَـشِيَّةَ قُمْـتُ أَدفِـنُهُ غُمامَـا

(١) النويري، **نهاية الأرب في فنون الأدب**،تحقيق: يحيى الشامي،مجلد٣، الجزء الخامس ،ص٢٢٢.
(٢) ابن سعيد، **اختصار القدح المعلى**، ص١٢٣.
(٣) حمص : إشبيلية .
(٤) المصدر نفسه ، ص١٢٣.

ويذكر صاحب أدباء مالقة أن للداني مرثية أخرى في أبيه ، يبين فيها الطريقة التي قتل فيها فكان أن مات صلبا حسب ما صرح بذلك ، ثم بين منزلة المصلوب ومكانته وعلو شأنه مشبها المرثي بالبدر الذي يأفل إذا تم تمامه وحان أوانه [١]:

صَلَبُوكَ لا كَلَفاً بِعَيْش فِيْهُمُ   يَبْكِي لِفَقْدِهم وَلا مُتَأسِّفا
يَا مَنْ رَأى بَدْرَ الدُّجَى لِتَمامِهِ   عَبَثَتْ بِهِ أَيدي الزَّمانِ تَصَرُّفا

وتبين لنا مما سبق أن رثاء الآباء كان من أهم الموضوعات التي تطرق إليها الشعراء في الأندلس ، في عصري المرابطين والموحدين ، وكثيرا ما حاول الشعراء في هذا الموضوع من الرثاء أن يعزوا أنفسهم بمن سبقهم من الأمم السابقة ، والعهود السالفة ،وما هذا إلا ليخففوا على أنفسهم ألم الفراق ، ويكون لهم العبرة والعظة بمن سبقهم، فالموت لا يرد ولا يدفع ولاتنفع معه أية تميمة كما ذهب أبو ذؤيب الهذلي .

ومن الملاحظ أيضا أن الشعراء في رثائهم لآبائه كانوا حريصين على بيان صفات آبائهم الحسنة ؛ كالكرم والشجاعة والحكمة وغيرها ، ثم يسألون الله الرحمة لأولئك الذين أفضوا إلى ما عملوا لعل الله يرحمهم ، ويجعل مصيرهم الجنة .

---

(١) ابن خميس، **أدباء مالقة**، ص٣٧٥.

ثانياً: رثاء الأبناء:

الابن قطعة من كبد أبيه، يحبه ويفدّيه بالغالي والنفيس، ويؤمل عليه المستقبل، وقد جاء في العقد "أن موت الولد صدع في الكبد لا ينجبر آخر الأمد"[(١)].

فكيف فعل الشاعر الأندلسي، وهو يرى فلذة كبده يجود بنفسه، ويفارق الحياة، ويتركه وحيدا فهل سيصبّر نفسه، ويعزّيها "... بالأمم السابقة والوعول الممتنعة في قلل الجبال"[(٢)]، أم أنه سيقف موقفاً مغايراً، جاعلاً من شعراء المشرق العربي قدوة له، ومن أشهرهم في هذا النوع من الرثاء ابن الرومي، وأبو ذؤيب الهذلي، أم ستكون له فلسفته الخاصة تجاه هذا الحدث الجلل.

ومن أهم الشعراء الذين رثوا أبناءهم، فكانت قصائده تفيض لوعة وأسىً الشاعر والملك المعتمد بن عباد، الذي أضحى لا ملك له ولا ولد، وحيداً مكبلاً بالقيود في سجن أغمات بعد أن استولى المرابطون على ملكه وأوثقوه بالقيود وأسروه، وقتلوا ابنيه المأمون، والراضي[(٣)]، فراح يبكيهما كما بكى نفسه، يقول[(٤)]:

يَقُولـــونَ صَـــبْراً لا سَـــبيلَ إلى الـــصَّبرِ!	**سَأبكي وَأَبكـي مـا تَطـاولَ مِـن عُمـري**
نَـــرى زُهْرَهـــا في مَـــأتَمٍ كُـــلَّ ليلَـــةٍ	**يُخَمِّـــشْنَ لَهفـــاً وَسْـــطَهُ صَـــفحةَ البَـــدرِ**
يـــنُحن علـــى نَجْمَـــينِ أثكلـــنَ ذا وَذا	**ويا صَبرُ ما لِلقَلـب في الـصَّبرِ مِـن عُـذرِ**
مَـــدى الـــدَّهْرِ، فَلْيَبْـــكِ الغمـــامُ مُـــصابَهُ	**بِـــصنوَيْهِ يُعـــذَرُ في البُكـــاءِ مَـــدى الـــدَّهرِ**

فالشاعر في الأبيات السابقة يستحضر مشهد عزاء، فيه المعزون الذين يطلبون منه الصبر، ولكن الرد غير المتوقع، فالشاعر لا سبيل للصبر عنده، وسيبكي أبناءه فيما تبقى له من عُمر. وفي البيت الذي يليه نلاحظ أن الشاعر يرسم صورة مأتم في السماء، وكأن الزهرة عندها مأتم ، والنجوم يخمشن الوجوه، على فقد نجمين من خيرة نجومهما غابا ولن يعودا أبدا ، وقد استطاع الشاعر أن يسقط نفسه على الزهرة، فالزهرة تمثل المعتمد وزوجته، والراضي

---

(١)ابن عبد ربه : (**العقد الفريد١٩٩٩**)،أحمد بن محمد ت٣٢٨هــ ، مكتبة التراث العربي ــ دار إحياء التراث لبنان، ط٣، ج٢ ص٢٥٧.

(٢) ابن رشيق، أبو الحسن القيرواني، **العمدة في محاسن الشعر وآدابه**، ج٢،ص٨١٠.

(٣) المأمون، قتله جيش ابن تاشفين بقرطبة (٤٨٤هــ)، والراضي قتله جيش ابن تاشفين برندة (٤٨٤هــ)، المعتمد الديوان، (الفتح : القلائد)

(٤) المعتمد، محمد، (ت: ٤٣١-٤٨٨هــ)، (د.ت.). **ديوان المعتمد بن عباد، ملك إشبيلية**. (جمع وتحقيق رضا الحبيب السويسي)، تونس: الدار التونسية للنشر، ص١٦٢.

والمأمون هما النجمان اللذان ثكلهما المعتمد، وبعد ذلك يبين عظم مصيبته، ويخاطب الصبر أن لا عذر للقلب فيه.

وفي البيت الرابع يطلب من الغمام أن يبكي مصابه، وفي هذا أيضاً نلاحظ مدى مشاركة الطبيعة للشاعر في أحزانه، ومدى قدرة الشاعر على التفاعل مع الطبيعة ليجعل منها ملاذاً يعبر بتوظيفه لها عن أحزانه.

وظلت القصيدة على هذا المنوال من الحزن والحسرة والتفجع، "فسبيل الرثاء أن يكون ظاهر التفجع، بيّن الحسرة، مخلوطاً بالتلهف والأسف والاستعظام[١]...".

وقد استمرت القصيدة في قوتها، كما كانت من بدايتها، فقد خاطب فيها الشاعر البرق، وصوره مستمدا ناره من قلبه الذي صار جمرا حريقا على أولاده ، يقول[٢]:

وَبَـــرْقٍ ذَكَـــي النَّـــارِ حَتَّـــى كَأَنَّمـــا يُـــسَعَّرُ مِمَّـــا فِـــي فـــؤادي مِـــنَ الجَمْـــرِ

وتتجدد أحزان الشاعر كلما عنَّ على باله ولداه اللذان حرما الحياة وهم في ريعان شبابهما ، تاركين أبا مكلوما ، حزينا ، صغير الشأن مفجوعا ، يقول في ذلك :[٣]

تَوَلّيْتُمـــا والـــسِّنُ بَعْـــدُ صَـــغيرَةٌ وَلَـــم تَلْبَـــث الأيَّـــامُ أنْ صَـــغَّرَتْ قَـــدْرِي

ثم يتذكر المعتمد حقيقته المرة، وأن الموت خير من حياته، فماذا في الحياة بالنسبة له؟ إلا السجن والقيد. فيقرر أن الموت خير لولديه من رؤية أبيهما أسيراً، مكبلاً بالقيود ،[٤]:

فَلَـــوْ عُـــدتُما لاختَرتُمـــا العَـــودَ في الثَّـــرى إذا أَنتُمـــا أَبْـــصَرتُماني في الأَسْـــرِ
يُعيـــدُ عَلـــى سَـــمعي الحَديـــدُ نَـــشيدَهُ ثَقـــيلاً، فَتبكـــي العَـــينُ بِـــالجَسِّ والنَّقْـــرِ

ومما أشجى الشاعر وزاد في مصابه مشهد الأم " الرميكية " وبناتها ، وهن يندبن المتوفين ، فيرسم الشاعر لوحة تنبض أسى وحرارة ، وتفيض حزنا وألما على حال تلك النسوة وهن يبكين بدموع صادقة ، ثم يفصل الشاعر في بكاء الأم التي تحاول أن تصبر نفسها على آلامها ، ولكنها لاتستطيع ذلك فتبكي بدموع غزار لا تشبهها دموع السماء مع أنها تحاول الصبر

---

(١) ابن رشيق القيرواني، **العمدة في محاسن الشعر وآدابه**،ج٢، ص٨١١
(٢) المعتمد، **الديوان**، ص١٦٢.
(٣) المصدر نفسه، ص١٦٢.
(٤) المصدر نفسه، ص١٦٣.

طلبا للأجر وأنى لها ذلك . وفي نهاية القصيدة نلاحظ أن المعتمد لم ينسَ ابنه سراج الدولة[١] الذي صرعه ابن عكاشة بقرطبة سنة (٤٦٧هـ)، ولم يرثه المعتمد في تلك الفترة، لأنه كان ملكاً، قوياً، حريصاً على أن لا يظهر ضعفه. أما الآن وهو في الأسر فلا بد له من تصوير ما يعانيه من فقد الولد والملك، والعز والسلطة، فكانت هذه القصيدة التي تعبر عما في نفسه ، من لغة شاعرية، يفيض منها الأسى واللوعة والحرمان، يقول[٢]:

معـــي الأخَـــواتُ الهالكـــاتُ عَلَيْكُمـــا ... وَأُمُكُمـــا الثَّكْلـــى المُـــضرَّمَة الـــصَّدر
تُـــذَلِّلُها الـــذِّكْرى فَتَفْـــزَعُ لِلبُكـــا ... وَتَصْبِرُ – فِي الأحْيانِ – شُحًّا عَلـى الأجْـرِ
فَتَبكـــي بِـــدَمْعٍ لَـــيْسَ لِلقَطْـــرِ مِثْلُـــهُ ... وَتَزْجُرُهـــا التَّقـــوى فَتُـــصْغي إلى الزَّجْـــرِ
أَبـــا خالِـــد[٣] أَورَثْـــتَني البَـــثَّ خالِـــدًا، ... أَبَا[٤] النَّصْرِ مُـــذْ وَدَّعْـــتَ وَدَّعَـــني نَـــصْري
وَقَبْلُكُمـــا مـــا أَوْدَعَ القَلْـــبَ حَـــسرَةٌ ... تُجَـــدِّدُ طُـــولَ الـــدَّهْرِ ثُكْـــلُ أَبي[٥] عَمْـــرو

وقد عبَّر الشاعر فيما سبق، عن حجم المأساة التي حلت به، وبأهله، فقد صارت الرميكية ثكلى، تعيش ذليلة، تتذكر بين الحين والآخر فلذات كبدها ، وتصبِّر نفسها طلباً للأجر، ولكن هيهات لقلب الأم أن يصبر. وبعد ذلك يعود المعتمد لنفسه مخاطباً أبناءه مكنياً لهم "أبا خالد" مجنساً بين خالد "والبث خالداً"، جناساً يجعلنا نشعر بحجم ما يعانيه المعتمد من هم وحسرة، وجناسه أيضاً في عجز البيت بين "أبا النصر" و "ودعني نصري"، فيه تصوير للنصر الذي ودع المعتمد مع رحيل أبنائه، وفي البيت الأخير يظهر المعتمد وللمرة الأولى، وفاءه لابنه سراج الدولة وكنيته "أبو عمرو"، الذي كان لرحيله حسرة في قلب أبيه، تتجدد بين الحين والآخر.

وللمعتمد أيضاً قصيدتان بالغتا الأثر: الأولى كانت عندما رأى قُمْرِيّة بائحة بشجنها، نائحة بفننها على سكنها وأمامها وكر فيه طائران يرددان نغماً ويغردان[٦]، فما كان من المعتمد إلا أن فاضت نفسه وانطلقت قريحته وراح يبكي ابنيه، بشاعرية عالية، متخذاً من تغريد القُمْرِيّة مناسبةً ليعبر منها عن أحزانه، وفقده لخلانه

---

(١) المعتمد، **الديوان**، ص١٦٢ (نقلاً عن الفتح في القلائد، وقال الفتح في القلائد "فلم تحفظ له فيه قافية، ولا كلمة للوصية شافية إلا إشارته إليه في تأبين أخويه المأمون والراضي...".

(٢) المعتمد، **الديوان**، ص١٦٢.

(٣) كنية الراضي (ت: ٤٨٤هـ)، **الديوان**، ص١٦٤.

(٤) كنية المأمون (ت: ٤٨٤ هـ)، **الديوان**، ص١٦٤.

(٥) كنية سراج الدولة (ت: ٤٦٧هـ)، **الديوان**، ص١٦٤.

(٦) المعتمد، **الديوان**، ص١٦٤.

يقول[١]:

بَكَــــتْ أنْ رأَتْ إلْفَـــين ضَــــمَّهُما وَكْـــرُ مَساءً، وَقَــد أخْــنى علــى إلْفــهالــــدَّهْرُ
بَكَــتْ لَـــمْ تُـــرِقْ دَمْعـــاً وَأَسْــبَلَتْ عَبْــرَةً يُقَــصِّرُ عَنْهــا القَطْــرُ مَهْمــا هَمــا القَطْــرُ
وَناحَــــتْ فَباحَــــت واسْــــتَراحَتْ بِـــسِرِّها وَمــا نَطَقَــتْ حَرفـــاً يَبُـــوحُ بـــهِ سِـــرُّ

وبعد هذه المقدمة التي وصف فيها حال القمرية مع فراخها، وهي في وكرها وقت المساء، عاد ليلوم نفسه إن لم يبك أبناءه وخلانه. وتظهر في القصيدة مقارنة بين حال القمرية التي فقدت أحد فرخيها، والمعتمد الذي فَقَدَ ألافا كثيرين، منهم أبناؤه. وفي هذه القصيدة أيضاً يشبّه المعتمد ولديه بالنجمين، ويبين أنهما قتلا بقرطبة ورندة، وفي نهاية هذه القصيدة يطلب من نجوم الزهر أن تبكيهما معه، يقول[٢]:

فَقُـــلْ لِنُجُـــومِ الزُّهْـــرِ تَبْكيهُمـــا مَعــــي لِمثلِهِمـــا فَلتَحْـــزَن الأنْجُـــمُ الزُّهْـــرُ

وأما القصيدة الثانية فقد توجه فيها الشاعر إلى الغيم وصار يقارن بين حاله واحزانه ونيرانه ، وبين الغيم وناره التي سرعان ما تنطفي إذا ما قورنت بنار ابن عباد التي تشتعل كالبركان ، يقول[٣]:

يــا غَـــيْمُ عَـــيْني أقْـــوى مِنْـــكَ هَتانَـــا أبْكــي لِحُـــزني وَمـــا حُمِّلْـــتَ أَحْزانـــا
وَنـــارُ بَرْقِـــكَ تَخْبُـــو إثْـــرَ وَقْـــدَتِها، وَنَـــارُ قَلْـــبِيَ تَبْقَـــى الـــدَّهْرَ بُركانَـــا

وتظهر في البيتين السابقين قدرة المعتمد الشعرية ، وبراعته الفنية في التشخيص ، وهو يصور الغيم باكيا حزينا، والبرق مشتعلا ، ثم يلتفت الشاعر إلى أحزانه التي تتزايد يوما بعد يوم ، ونيرانه التي تشبه البركان لكثرتها ، وقوتها، ولنا أن نقول: إن المعتمد يرى كل ما في هذا الكون يؤلمه فالغيم الذي يكون سببا للخير والأمطار التي تعم البلاد والعباد ما هو إلا مدعاة للحزن والألم مما يجعله حزيناً ، مكلوماً .

ويصرح المعتمد في القصيدة أنه بكى المأمون ولقبه بالفتح، وإذا أراد أن ينساه، تذكر الراضي ولقبه يزيداً، فزادت نيران قلبه، ويعود للنداء مخاطباً هذين العزيزين بأنهما فلذتا كبده

(١)المعتمد ، الديوان، ص١٦٤.
(٢)المصدر نفسه ، ص١٦٥.
(٣)المصدر نفسه، ص١٦٦.

ومما خفف عن المعتمد أنهما في ميزان أعماله يوم القيامة، يقول[١]:

بَكيـــتُ فَتْحـــاً[٢] فإمّـــا رُمْـــتُ سَـــلْوَتُهُ ... ثـــوى يَزيـــدُ[٣] فَـــزاد القَلْـــبَ نيرانـــا
يـــا فَلْـــذَتَيْ كَبِـــدي! يَـــأبى تَقَطّعُهـــا ... مِـــنْ وَجْـــدِها بِكُمـــا مـــا عِـــشْتُ سُـــلْوانا
مُخَفِّـــفٌ عَـــنْ فُـــؤادي أنَّ ثُكْلكُمـــا ... مُثَّقِـــلٌ لي يَـــوْمَ الحَـــشرِ ميزانـــا

ومن الأمور التي عزّى بها المعتمد نفسه أن المأمون شهيد، ولا يخفى علينا ما للشهيد من مكانة عظيمة، فقد جاء عن النبي (ﷺ): "**إن الشهيد يشفع في سبعين من أهل بيته**"[٤]، ويطمع أن يلقاه جذلانا. وفي البيت الذي يليه يوجه النداء ليزيد، راجيا من الله أن يجعل يزيد شفيعا له يوم القيامة.

ثم يطلب من الله أن يجزيهما بالإحسان إحساناً، ويدعو لهما بالمغفرة والرضوان والقبول عند الله، يقول في ذلك[٥]:

يـــا فَـــتْحُ قَـــد فَتَحَـــتْ تلـــكَ الـــشَّهادَةُ لي ... بـــابَ الطِّباعـــةِ في لُقْيـــاكَ جـــذلانا
وَيـــا يزيْـــدُ لَقَـــد زادَ الرَجـــا بِكُمـــا ... أَن يَـــشْفَعَ اللَـــهُ بالإِحـــسانِ إِحـــسانا
لَمّـــا شَـــفَعْتَ أَخـــاكَ الفَـــتْحَ تَتْبَعُـــهُ ... لقَّاكُمـــا اللَـــهُ غُفرانـــاً وَرِضـــوانا

ومن الشعراء الذين رثوا أبناءهم محمد بن جبير الكناني[٦]، فقد رثى ابنه أحمد الذي توفي بمرض الطاعون عن عمر يناهز الرابعة والعشرين عاماً، حسب ما ذُكِرَ في القصيدة، التي بلغت واحداً وخمسين بيتاً، ومثلت تلك المرثية حرقة الأب على فراق الابن.

وقد جاءت الأبيات الأولى من القصيدة على لسان الحزن الذي رُوِّع من كثـرة أحـزان الشاعر ، ولم يستطع قربه، وصار عاجزاً، بعد تيقنه أن الخطب الذي ألّم بالشاعر أعظـم مـن

---

(١)المعتمد ،**الديوان**، ص١٦٦.
(٢) المأمون بن المعتمد، **الديوان**، ص١٦٦.
(٣) الراضي بن المعتمد، **الديوان**، ص١٦٦.
(٤) رواه أبو داود، وابن حبّان في صحيحه.
(٥) المعتمد، **الديوان**، ص١٦٦.
(٦) ابن جبير: محمد بن جبير الكناني، من أهل غرناطة، سكن مالقة، وأقام بها مدة، ورحل إلى المشرق، وأقام هناك حتى توفي، كان من أهل العلم والفضل والدين والأدب البارع والكلام الرائع، توفي رحمه الله تعالى بالإسكندرية في ليلة الأربعاء السابع والعشرين لشعبان، عام أربعة وعشرين وستمائة. ابن خميس **أدباء مالقة** ، ص١٢٢ و١٣٤.

الحزن عينه، يقول(١):

رَأى الحُزْنُ ما عِنـــدي مِـــنَ الحُـــزْنِ والكَـــرْب ... فَـــروِّعَ مِـــنْ حَـــالي فَلَـــم يَـــسْتَطِعْ قُـــربي
وَأَظْهـــرَ عَجْـــزًا عَـــن مُقَاومَـــةِ الأســـى ... وأيْقَـــنَ أَنْ لا خَطْـــبَ أَعْظَـــمُ مِـــنْ خَطْـــبي
وَقَـــالَ الـــتَمِس غَيْـــري لِنَفْـــسِكَ صَـــاحِباً ... وَقُل للـــرَّدى حَـــسْبي بَلَغْـــتَ أَرى حَـــسبي

وبعد أن بيَّن الشاعر حجم مصيبته، توجه إلى ربه، وبدأ يشكو إلى الله ما حل به مصوراً المصائب أنها عكّرت صفوه وروّعته، ولكن نفسه قد رضت بقضاء الله وقدره، يقول(٢):

فأستَنْـــــشِقَنْ رَوحَ الرِّضـــــا بقَـــــضائه ... فَنادَيْـــتُ يـــا بـــرْدَ النَّـــسيمِ عَلـــى قَلْـــبي
إلى اللهِ أَشـــــكو بِالرَّزايـــــا وَفعْلِهـــــا ... فَقَد كَـــدَّرَتْ شُـــرْبي وَقَـــدْ رَوَّعَـــتْ سِـــربي

ثم بيَّن الشاعر أن الأحزان توالت عليه بالليل، ومنعته من النوم، وجعل الطبيعة تشاركه أحزانه، وقد أحسن الشاعر تصوير الطبيعة، فأقبل الليل يبكي بأنجمه الشهب، والرعد صار يئن والبرق كذلك، والقصيدة مليئة بهذه التصويرات الرائعة، يقول(٣):

سَلِ اللَّيْـــلَ عَنِّـــي هَـــلْ أنِـــسْتُ إلى الكَـــرى ... وَكَيْـــفَ وأَجْفَـــاني مَـــعَ النَّـــومِ في حَـــرْبِ
وَقَـــــدْ رَقَّ لي حَتَّـــــى تَقْـــــرَّى أَديمُـــــهُ ... وأقبـــــلَ يَبْكـــــيني بأنْجُمِـــــهِ الـــــشُهْبِ
وَمِنْ أَجْلِ مـــا بي أَبْـــدَت الـــشَّمْسُ بالـــضُّحى ... شُحُوبَ ضَـــياً قَبْـــلَ الجُنُـــوحِ إلى الحُجْـــبِ

ولم يغفل الشاعر حزن الأم التي تتقطع ألماً على فراق ابنها، وقد لجأ الشاعر للنداء "بُنَيّ"، ولكن متى أجاب الميت الدعاء؟! وكرر كلمة "بُنَيّ" تباعا ، وقد أحسن الشاعر في تصوير ما حلّ به من فراق ابنه، وحسبُك أيها القارئ الكريم أن تقرأ هذه الأبيات لتتبين حسرة الشاعر، وألمه على فراق ولده، وفلذة كبده، يقول(٤):

بُنَـــيَّ أَجِبْهـــا فَهِـــي تَـــدْعُوكَ حَـــسْرَةً ... وأَدْمُعُهـــا تَنْهَـــلَّ غَرْبـــاً عَلـــى غَـــرْبِ
بُنَـــــيَّ أَعِـــــرْني مِـــــنْ مَنامِـــــكَ ظُلَّـــــةً ... لَعلِّـــــيَ أَنْ أَلْقـــــى خَيالَـــــكَ بالغَيْـــــبِ
بُنَـــــيَّ أَرِحْـــــني بالإجابَـــــةِ مُخْبِـــــراً ... فَقَدْ كَتَمَـــتْ مـــا بِـــي فَمـــا لَـــكَ لا تُـــنْبي

---

(١) ابن خميس، **أدباء مالقة**، ص١٣٢.
(٢) المصدر نفسه ، ص١٣٢.
(٣) المصدر نفسه، ص١٣٢.
(٤) المصدر نفسه، ص١٣٢.

بُنَـــيَّ وَفي طَـــيِّ الحـــشا كُنْـــتَ ثَاويـــاً فَكَيْفَ سَـــخَتْ نَفـــسي بِـــدَفْنِك في التُّـــرْبِ

ولم يغفل ابن جبير حزن أقارب "أحمد" الآخرين ، فقد فجع به آل جبير أي فجيعة وخالاته حزينات، وأبناء خالاته ما زالوا عند الترب ،ويدل هذا على أن الميت وصول للقرابة والرحم ، ونستشف من ذلك أيضا التواصل الأسري الذي تتمتع به عائلات الأندلس في تلك الفترة، يقول[١]:

ويـــا أحمـــد المَحمـــود قَـــدْ كُنْـــتَ مُـــشْبِهاً بِطيـــبِ الخِـــلالِ الحُلْـــوِ والبـــارِدِ العَـــذْبِ
لآلِ جُبَيْـــــــرٍ فِيْـــــــكَ أَيُّ فَجيعَـــــــةٍ فمـــا مِـــنْهمُ مَـــنْ يَـــسْتَفيقُ مِـــن الكَـــرْبِ
وَكَـــمْ خالَـــةٍ أَمْـــسَتْ عَلَيْـــكَ بِحالَـــةٍ مِـــن الحُـــزْنِ مـــا تَنْفَـــكُّ ذاهِلَـــةَ اللُّـــبِ
وأَبْنَـــاءِ خـــالاتٍ سَـــقَيتَهُمُ الأسَـــى كَؤوســـاً وهُـــم حَتَّـــى إلى الآنَ في التُّـــربِ

ومن ثم يبين الشاعر حزن زوجته التي كان لها نعم الزوج المحبّ، وأصحابه الآخرين الذين أرقهم موت أحمد، ويعلل ذلك أنه رزق قبولاً لم يكن لأحد قبله مثله، يقول[٢]:

وَصـــاحِبةٍ قَـــدْ كُنْـــتَ صَـــبّاً بـــذِكْرِها وَكُنْـــتَ لَهـــا حِبـــاً وَناهيـــكَ مِـــنْ حِـــبِّ
وَكَـــمْ أَجْـــنَبِيٍّ فِيْـــكَ قَـــدْ بـــاتَ سَـــاهِراً تُقَلِّبُـــهُ الأفْكـــارُ جَنْبـــاً إلى جَنْـــبِ
رُزِقْـــتَ قُبـــولاً مـــا سَـــمِعْتُ بِمِثلِـــهِ فَهـــذا عَلـــى هـــذا بِإشْـــفاقِهِ يـــربي

وبعد أن بيَّن الشاعر أصناف الذين حزنوا على "أحمد" كـأمه، وأبيه، وصاحبته، وخالاته، وآل جبير، وأصدقائه، انتقل إلى بيان صفات ابنه التي جعلته أهلاً ليحزن عليه، فهو كما بيَّن وصول للقرابة، مجد إذا كُلِّف بأمرٍ، جواد كريم النفس، سخي، حريص على نيل المعاني، صاحب همة عالية، محب للمطالعة، صاحب نثر وشعر[٣].

وكُـــنتَ وَصُـــولاً لِلقَـــرابَةِ جـــارِياً لِمَـــرضـــاتِهِـــم بَـــراً بَريـــئـــاً مِـــنَ العُـــجـــبِ

مُـــجِـــداً إِذا كُلِّـــفـــتَ أمـــر مُلِمَّةٍ مَـــضَـــيتَ مَـــضاءَ السَّـــهمِ وَالصَّـــارِمِ العَـــضبِ

(١) ابن خميس، **أدباء مالقة**، ص١٣٣.
(٢) المصدر نفسه، ص١٣٤.
(٣) المصدر نفسه ، ص١٣٤.

حَـــريصـــاً عَـــلى نَيـــلِ المَـــعـــالي بِهِـــمَّةٍ كَـــسَبتَ بِـــها مِـــن ذُخـــرِها أفضَلَ الكَسبِ

وَكـــانَـــت لَـــك الآدابُ رَوضَـــةَ نُزهَـــة وَكُـــنتَ مُحِـــبًّا فِـــي مُـــطالَـــعـــةِ الكُـــتبِ

ولا يفوت الشاعر أن يبين عمر أحمد الذي عاجله الموت، وهو في الرابعة والعشرين، يقول(١):

وَزادَ عَلـــــى العِـــــشرينَ سِـــــنَّكَ أَرْبَعـــــاً فَعاجَلَـــــكَ الحَـــــيْنُ المُقَـــــدَّرُ بالرَّقْـــــبِ

ويبدو أن سبب وفاة "أحمد"، الطاعون، لذلك يعد الشاعر ابنه شهيداً، كالشهيد الذي يسقط في أرض المعركة من الضرب والطعن، ويبين أن ابنه مات غريباً، فاستحق بهذه الغربة الشهادة، فهو كبشر سيد العجم والعرب، يقول(٢):

شَـــــهيداً لطـــــاعون أَصـــــابَكَ بَغْتَـــــةً كَمِثْلِ شَهيد الطَّعْنِ فـــي الحَـــرْبِ وَالـــضَّرْبِ
وَكُنْـــــتَ غَرِيْبَـــــاً فَاسْـــــتَزَدْتَ شَـــــهَادَةً لأُخْـــرى كَبِـــشْرٍ سَـــيِّدِ العُجْـــمِ والعُـــرْبِ

ويختتم الشاعر قصيدته بالتسليم لقضاء الله، وأنه راضٍ بقضاء الله وقدره، ويدعو لابنه بالزُلفَى وأن يغفر الله ذنبه، ويختم قصيدته بالدعاء لقبره بالسقيا، وأن يبوئه الله المنزل الرحب، يقول(٣):

رَضـــــيْتُ بِحُكْـــــمِ اللهِ فيـــــكَ فَإِنَّمـــــا نُقلْـــتَ لحِـــزب اللهِ بُـــورِكَ مِـــنْ حِـــزبِ
وَإِنِّـــي لَـــراضٍ عَنْـــكَ فَأبـــشِر بالرِّضَـــى أرجّـــي لَـــكَ الزُّلْفَـــى وَمَغْفِـــرَةَ الـــذَّنْبِ
فَجَـــادتْ عَلَـــى مَثْـــواكَ مُزْنَـــةُ رَحْمَـــةٍ وَبَـــوّأكَ الـــرَّحمنُ في المَنْـــزِلِ الرَّحْـــبِ

---

(١)ابن خميس، **أدباء مالقة** ، ص١٣٤.
(٢)المصدر نفسه ، ص١٣٣.
(٣)المصدر نفسه ، ص١٣٤.

وقد كان لهلاك ولي العهد أبي يحيى ببجاية، أثر عظيم في نفس والده الخليفة الملقب بـــ"الملك[(١)] السعيد"، الذي عظم حزنه، وأفرط جزعه، واشتهر من رثائه فيه قوله[(٢)]:

أَلا جـــازِعٌ يَبْكــي لِفَقْـــد حَبِيبـــه فَـــإِنِّي لَعَمـــري قَـــدْ أَضَـــرَّ بِيَ الثكـــل
لَقَـــدْ كـــانَ لِي مـــالٌ وأَهْـــلٌ فَقُـــدْتُهُم فَهـــا أَنَـــا لا مَـــالٌ لَـــدَيَّ وَلا أَهْـــلٌ

ويصر الشاعر الخليفة على بكائه أهله وابنه، ويبين أن فقده حسرة في نفسه، وأنه لن يمل من البكاء ولن ينسى، ويطلب من الله الفرج ليلتئم الشمل[(٣)]:

ألا فَـــرَجٌ يُرْجـــى فينْـــتظم الـــشَّملُ فَلَهْفـــي لِيَـــوْمٍ فَـــرَّقَ الـــدَّهْرُ بَيْنَنـــا

ويعود الشاعر للحقيقة التي يرضى بها كل مسلم، وهي الرضا بقضاء الله وقدره، وحكمه، وعدله، يقول في ذلك[(٤)]:

وإنِّـــي لأرْضـــى بِالقـــضاءِ وَحُكْمـــهِ وَأعْلَـــمُ رَبِّـــي أَنَّـــهُ حـــاكِمٌ عَـــدْلُ

وتعد قصيدة أبو الربيع الموحدي[(٥)]، التي قالها عند فقد ابنه محمد من أروع مرثياته، وهو يرى لداته حوله فلا يحس بغير الألم والحزن، فيشبه غيابه بالزهرة التي تذوي نضرتها، ويعزم في هذه القصيدة على أن لا يحنو على ولد، ولا يلم الفرح بقلبه، يقول[(٦)]:

فَالـــصَّبْرُ يُنْـــسَفُ وَالـــسَّراءُ تُكْتَـــسحُ كَيْـــفَ العَـــزاءُ وَقَـــد أَودى مُحَمَّـــدُنا

---

(١) أبو إسحاق: إبراهيم بن يحيى بن عبد الواحد بن أبي حفص عمر بن يحيى الهنتاني، أمير المؤمنين بتونس، وبلاد أفريقية، من فروع الموحدين بالمغرب، كانت وفاته سنة أربع وسبعين وستمائة. (ابن الخطيب، لسان الدين، ( ). **الإحاطة في أخبار غرناطة لذي الوزارتين.** (تحقيق عبد الله عنان)، القاهرة: مكتبة الخانجي، ج١، (ط٢)، ص٣١٠.

(٢) ابن الخطيب، **الإحاطة في أخبار غرناطة**، ج١، ص٣١٣.

(٣) المصدر نفسه ، ج١، ص٣١٣.

(٤) المصدر نفسه ، ج١، ص٣١٣.

(٥) ابو الربيع الموحدي: سليمان بن عبد الله بن عبد المؤمن بن علي ، أبو الربيع ، من أمراء بني عبد المؤمن ، كان يلي مدينة سلجماسة وأعمالها ، توفي سنة٦٠٤هـــ . انظر ترجمته في : البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب ، (قسم الموحدين) للمراكشي، ابن عذارى ، ط١، تحقيق محمد إبراهيم الكتاني وآخرون، دار الغرب الإسلامي ، بيروت (١٩٨٥)، ص١٢٦. والأمير الشاعر أبو الربيع سليمان الموحدي، عصره وحياته وشعره(١٩٨٤)، الجراري ، عباس ، ط٢،دار الثقافة ـــ الدار البيضاء، ص٢١٤ -٢١٥.

(٦) الجراري ، عباس الموحدي، أبو الربيع، **عصره وحياته وشعره**، ص٢١٥.

أَرى لِـــداتكَ حَـــولي لا أُســـرُّ بهـــم | إذ لا تَـــضمُّكَ تلَـــكَ الأَوجُـــهُ الـــصُّبْحُ
يـــا زَهْـــرَةً أَذْوَت الأَيَّـــامُ نَـــضْرَتَها | إنِّـــي رَثيتُـــكَ دَهْـــراً كُنْـــتُ أَمْتَـــدِحُ
آلَيـــتُ بَعْـــدَك لا أَحنـــو عَلـــى وَلَـــدٍ | وَلا يَلِـــمُّ بِقَلْـــبي بَعْـــدَكَ الفَـــرَحُ

وفي قصيدة ثانية يبين أنه ذاق الموت بفقدان ذلك الولد، لأنه قطعة من كبده، يقول[1]:

يَـــذُوقُ المَـــوتَ مَـــنْ يَفقِـــد بَنيْـــهِ | لأَنَّ الـــبَعْضَ في بَعَـــضِ القُبُـــورِ

وهكذا نلحظ أن رثاء الأبناء في الأندلس في عصري المرابطين والموحدين، يتميز بحرارة العاطفة، وشدة الحزن، وهول المصاب.

ويتضح لنا من القصائد السالفة أن أولئك الشعراء كانوا في أحزانهم على أبنائهم يرون أن القدر باغت المرثي، وأن الموت عاجله لذلك تميزت تلك القصائد بكثرة البكاء والتفجع والتحسر.

---

(١)الجراري، عباس ، أبو الربيع الموحدي، **حياته، وشعره ، وعصره** ، ص٢١٥.

ثالثاً: رثاء الإخوة:

حظي رثاء الإخوة في تراثنا الشعري بمكانة عالية جعلت منه فنا عريقا ، قائما بذاته ، يدل على عمق الأخوة ، ومكانتها المتأصلة في مجتمعنا العربي ، ويتميز هذا الفن بصدق العاطفة ، والبعد عن التكلف ، ويعد مثالا صادقا على مكانة الأخ وما يمثله بالنسبة لـشقيقه ، ولـيس أدل على ذلك من الخنساء التي اشتهرت برثاء أخيها صخرا ؛ فقد ظلت الخنساء تبكي أخاها حتـى بعد إسلامها حتى أن ذلك "بهر الدارسين فأولوه من العناية مـا يـستحقه ، وشـغلوا بتـصوير حسرتها، وتعداد الصور التي ملأت نفسها ألما ووجدا "[١]، ومن رثاء الخنساء لأخيها[٢]:

أَعْيْنَـــيَّ جُـــودا وَلا تَجّمُـــدا ... أَلا تَبْكيـــان لِـــصَخْرِ النَّـــدى
أَلا تَبْكيـــانِ الجَـــريءَ الجَميـــلَ ... أَلا تَبـْكيانِ الفَتى السَيِّـــدا
طَـويلَ النِّـجادِ رَفيـعَ العِـمادِ ... ســادَ عَـشيـرَتَـهُ أَمْـرَدا

وبرع أيضا في هذا الفن متمم بن نويرة اليربوعي في رثاء أخيه مالك قتيل حـروب الـردة، حتى أن عمر بن الخطاب عندما سمع مراثي متمم قال : "هذا واللهِ التأبين ، ولـو وددت أنـي أحسن الشعر فأرثي أخي زيدا بمثل ما رثيت به أخاك[٣] " ومن ذلك قوله[٤]:

لَعَمْـري وَمـا دَهْـري بِتَـأبينِ مالِـكٍ ... وَلا جَـزَعٍ مِمَّـا أَصـابَ فَأَوْجَعـا
لَقَـدْ كَفَّـنَ المِنْهـالُ تَحْـتَ رِدائِـهِ ... فَـتـىً غَـيرَ مِـبطان العـشيات أروعا
لَـبيباً أَعـانَ اللُّـبُّ مِـنْهُ سَـماحَـةً ... خَـصيباً إذا ما راكِـبُ الجَـدبِ أَوْضَـعا

وهكذا يتبين لنا أن هذا الفن قد استوى على سوقه، في المشرق العربي حتـى صـار مثـالا يحتذى للشعراء المتأخرين، ولا سيما شعراء الأندلس الذين ساروا علـى خطـى المـشارقة ، وتتبعوا خطاهم في كثير من فنون الشعر العربي.

---

(١)أبو سويلم ، أنور : **مرثاة الخنساء الإنسانية** ، مجلة أبحاث اليرموك ١٩٨١، ص٨.

(٢)الخنساء (تماضر بنت عمرو بني الحارث بن عمرو الشريد السلمية ت ٢٤هـ) **الديوان**، شرحه ثعلب ، أبو العباس ، أحمد بن يحيى بن سيار الشيباني النحوي ت ٢٩١هـ ، تحقيق : أنور أبو سويلم ــ جامعة مؤتة عمان ــ دار عمار ط١، ١٩٨٨، ص١٤٣.

(٣)الأصفهاني (علي بن الحسين ت ٣٥٦هـ) **الأغاني** ، تحقيق : عبد السلام هارون، دار إحياء التراث ، بيروت لبنان ، ج١٥ ،ص٣٠٨.

(٤)الضبي (أبو العباس المفضل بن محمد) **ديوان المفضليات**، شرحه : أبو محمد القاسم بن محمد بن بشار الأنباري ، مطبعة الآباء اليسوعيين ــ بيروت ١٩٢٠ ، ص٥٢٦ ــ ٥٢٨.

أما في المغرب العربي فلا نكاد نجد رواجا لهذا الفن مقارنة بالمشرق ، وربما يكون السبب في ذلك ضياع معظم الأدب الأندلسي بعد أن سقطت الأندلس بيد الأسبان.

ولكننا نجد قصائد في رثاء الإخوة في عصري المرابطين والموحدين، تمثل نضوج هذا الفن إلى حد ما عند أصحابها . ويمثل الشاعر أحمد بن شكيل هذا الفن في رثائه لأخيه أبي الحسن رحمه الله ، الذي توفي في شوال من سنة اثنتين وستمائة، فرثاه بقصيدة جاءت في أربعة وأربعين بيتا، يبدو فيها راضيا بقضاء الله وقدره ، محاولا أن يصبر نفسه، على حوادث الدهر ، شاكيا إلى خليليه ما آل إليه حاله بعد أن غيب الموت أحبته ، وأشاد الشاعر بمكانة صاحب "هذا القبر" وقد صار غريبا عن أهله ، بعيدا عن خلانه ، وأحبابه ، يقول[١]:

رِضــى بِقَــضاءِ اللَهِ فَــهوَ مُــصيبُ وَصَــبراً عَــلى الأَحــداثِ فَــهيَ تَنــوبُ

خَليلَــيَّ قَــد وارى التُــرابُ أَحِــبَّتي فَــلَم يَبــقَ لــي فَــوقَ التُــرابِ حَبيبُ

أَقِــلا وُقــوفــاً بِــالمَــنازِلِ أَو قِــفــا فَــإِنَّ الَّــذي تَســتَبعِــدانِ قَــــريبُ

أَلَم تُــخــبَرا عَــن صــاحِــبِ القَــبرِ إِنَّهُ بِمَــرأى مِــنَ الأَهــلَينِ وَهوَ غَريبُ

ثم يطلب الشاعر من خليليه أن يسلما على جدث المرثي ، سائلاً الله له السقيا من الأمطار الوسمية ، يقول في ذلك[٢]:

عَلى الجَــدَثِ المَهــجورِ عوجا فَسَلِّما سَــقاهُ الحَــيا الوَسمِيُّ حينَ يَصوبُ

ويلتف الشاعر إلى معنى لطيف ، فإن أبى الغيث أن يسقي قبر المرثي ، فيسقيه من دموعه التي صارت كالمزنة من كثرة بكائه ، ويهيج هذه الذكر تذكر أحبابه الذين غيبهم الموت ، فتدر عيونه بالدموع ، وتتقطع أنفاسه من النحيب ، مشبها نفسه بالناقة الرؤوم الحنون، يقول[٣]:

وَإِلّا فَــعَــيني إِن أَبــى الغَــيثُ مُزنَةٌ يَــدِرُّ شَــمــالٌ صَوبَهــا وَجَنوبُ

إِذا هاجَــها ذِكــرُ الأَحِبــَّةِ أَجــهَشَت وَأَســبَلَ دَمــعٌ بِالدِمــاءِ مَشــوبُ

---

(١)أحمد بن شكيل، **الديوان**، ص٣٥.

(٢)المصدر نفسه، ص٣٥.

(٣)المصدر نفسه، ص٣٥.

تَقَــطَّــعُ أَنفــاســي فَأَقــطَعُ لَيلَتي حَــنيناً كَــما حَــنَّت رَوائـــمُ نــيبُ[١]

وبعد ذلك تتأجج نار أحزان الشاعر فيصف نفسه "بالحزن والثكل ، والشجى"، مبينا أنه يلثم الثرى الذي ضم جثمان أخيه، الذي صار بعيدا عن أهله وخلانه ، يقول[٢]:

أَنا المَــيتُ وَالثَكــلانُ وَالصَــبُّ وَالشَــجي فَــأَيُّ شَبيــهٍ بَعــدَ ذاكَ أُصــيبُ

أَعـــاوِدُ لَــثمَ التُــرب فــيهِ كَــأَنَّهُ لِــرَشــفي لَــهُ ثَــغــرٌ أَغَـــرُّ شَبيبُ

بَعــيداً عَـــنِ الإِخــوانِ رَهــنَ قَــرارَةٍ تَــضَــوَّعُ مِــن أَنــفاسِــهِ وَتَــطيبُ

ويبين الشاعر مكانة أخيه منه ؛ فقد كان ذخرا له على تقلبات الزمن ، مجيبا إلى من دعاه ، كريما ، شجاعا، جميلا، طليق الوجه ، مشرقه ، رحب الصدر، يقول[٣]:

وَكُـــنتُ أُرَجّــيهِ لِــكــُلِّ مُلِمَّــةٍ فَــقــالَ الـــرَدى إِنَّ الرَجــاءَ كَــذوبُ

وَكــانَ سَــريعاً حــينَ يُــدعــى إِلى النَدا وَكَــم مِــن فَــتىً يُدعــى وَلَيسَ يُجيبُ

وَكــانَ حَــياً في المَــحــلِ يَعــلَمُ ضَــيفُهُ إِذا أَمَّـــهُ أَنَّ المَــحَـــلَّ خَـــصيبُ

فَــتىً هُـــوَ حَــدُّ السَــيفِ إِن رُمــتَ ضَيمَهُ وَغُـــصنٌ لِمَن رامَ السَــماحَ رَطيبُ

جَــمـــــيلٌ فَــأَمّا وَجــهُهُ فَــمُنَوَّرٌ طَــليقٌ وَأَمّــا صَـــدرُهُ فَـــرَحــيب

وبعد أن أفاض الشاعر في حزنه ، وشكواه مما حل به أثر فقده لأخيه ، صار يبث شــكواه لحمام الأيك ، ثم عاد الشاعر في نهاية هذه المرثية ، مبينا أنه بكى أخاه ابتغاء للأجر ، وصبر ، وتجلد ، واحتسب ، وتاب إلى الله التواب الرحيم ، يقول[٤]:

فَنَــحــنُ بَكــينا نَبتَــغي الأَجــرَ في البُكا وَنَحــنُ صَــبَرنا وَالصــبورُ لَــبيبُ

وَلا جَــلَــدي عَــنهُم سَــلُــوّاً وَقَــسوَةً وَلَــكِنَّ عــودَ الأَكــرَمينَ صَليبُ

---

(١)النيب : الناقة المسنة.

(٢)أحمد بن شكيل، **الديوان**، ص٣٦.

(٣)المصدر نفسه ، ص٣٦.

(٤) المصدر نفسه ، ص٣٧.

فَطوبى لِمَن لَم يُعنَ إِلّا بِنَفسِهِ وَيا رَبَّنا إِنّي إِلَيكَ أَتوبُ

وأما الشاعر الثاني الذي تأثر لفقد أخيه، فراح ينظم فيه أجمل القصيد الشاعر أبو الربيع الموحدي ، الذي ندب أخاه أبا حفص في قصيدة تصور فداحة ما أنزل القدر به ، وتكشف مشاعر أخ تعمقه الحزن ، فاكتوى به قلبه؛ وعبر عن حزنه بوضوح ، وصدق .

ويبدو أنه كان قد أصيب من قبل ــ ولعل المصاب كان في والده ــ فلم تكن الجروح قد اندملت بعد ، ولكن القضاء يأبى إلا أن يوالي عليه المصائب ، والخطوب فلا يجد ، لهذا القدر حلا إلا ذرف العبرات ، والدموع، يقول(١):

أَتاني نَعي ضاقَ صَدري بِحمله وَصَدري كَما قَد تَعلمان رَحيبُ

فَمرَّ بِقَلب لَم تدمل قُروحه كَما مَر بِالجَمر الدَفين هُبوبُ

وَلكن قَضاء اللَه حتم فَلَيسَ لي سِواه عَلى حَمل الخطوب حَسيبُ

خُطوب إِذا قاومت أَو كدتُ بَعضها رمتني بِما لا أَستَطيع خُطوبُ

فَها أَنا صَبراً لِلحَوادث لَم أَجد سِوى عبراتي وَالعَزاء ضُروبُ

ويحاول أبو الربيع أن يصبر نفسه ، ولكنه يذوب أسىً، على فراق أخيه ، ولا يجد للصبر بابا. يقول واصفا حزنه على أخيه ، وشاكيا أساه(٢):

وَكَيف أَبا حَفصٍ أُطيقُ تَصَبُّراً وَبَينَ الأسى وَالصَبرِ فيكَ حُروبُ

فَإِن ذبتُ صَبراً أَو أَسى ما عَلَمتَني عَلى أَحد إِلا عَليك أَذوبُ

ثم يستسقي الشاعر لأخيه سحب الرحمة والغفران، طالبا من الله أن يدخله الجنة ، جارا لرضوان ، يقول(٣):

فَسَقَّى ثَراكَ اللهُ صوبَ غَمامة تَسُحُّ عَلَيه رَحمةً وَتَصوبُ

---

(١)الجراري، عباس، **الأمير الشاعر، أبو الربيع سليمان الموحدي ، حياته وشعره** ،ص٢١٢.

(٢)المصدرنفسه ، ٢١٢.

(٣)المصدر نفسه، ص٢١٣.

وَأَعطــاك رُضــوان الَّــذي أَنــتَ جاره بِحَــيث يَــلذ المُلتَقى وَيَطيبُ

ومن الشعراء الذين فقدوا إخوانهم، وصوّروا ذلك الغياب شعراً، وأجادوا في بيان لوعة الفراق، وما آل إليه حاله بعد فراق أخيه، ابن الزقاق البلنسي[١] الذي فقد أخاه "حسن"، فرثاه بقصيدة وصلت أبياتها إلى ثمانيةٍ وأربعين بيتاً، بيّن صاحب هذه المرثية حزنه، وألمه، ومصابه، وثكله، وتذكره لهذا الأخ، الذي كان رحيله بالنسبة للشاعر كمن فقد بنان يده اليمنى، فصارت يده عليلة عالة عليه، يقول في ذلك[٢]:

مُــصَابُكَ مَــا كَــرَّ الجَديــدَان سَــرْمَدُ وَيَومُــكَ لا يُنْــسيه يَــومٌ وَلا غَــدُ
ثَكَلْتُــكَ ثُكْــلَ المَــشْرَفِيِّ غُروبَــهُ وَبِــالغَرْبِ يَــسطَو المَــشْرَفِيُّ المُهَنَّــدُ
فَرُحْــتَ كَمَــنْ راحَــتْ بَنَــانُ يَمِيْنِــهِ عَــنِ اليَــدِ فَاعتَلَّــتْ لِفُرْقَتِهَــا اليَــدُ

ويعقد الشاعر مقارنة بين حاله قبل أن يفقد أخاه، وما آل إليه بعد أن غيّب الموت الأخ العزيز، فقد كانت حياته كالماء العذب الزلال الصافي، وقد تعكر صفوه مذ أن صار أخوه في اللحد، يقول[٣]:

وَقَــدْ كُنْــت كَالعَــذْبِ الــزُلالِ (إذا صَــفا) فَلَمْ يَصْفُ لي مُذ غِبْتَ فِــي اللَّحْــدِ مَــوْرِدُ

وبعد أن فصّل الشاعر في حزنه وألمه على فراق المرثى، التفت إلى القبر، الذي طالما ذكره الشعراء الأندلسيون في مراثيهم، فقد صار القبر مكان هذا الحبيب الذي تعلوه الصفائح المنضدة، ويسلم الشاعر على القبر، ويبين أيضاً أن هذا المكان منزل غربة، يتساوى فيه السيد والمسود، وأن من يسكن القبر يكون وحيداً ليس له أنيس إلا رفات الأموات، ويعود الشاعر لأخيه الذي غادر رهطه وعشيرته وخلانه، وصار وحيداً مفرداً [٤]:

سَــلامٌ عَلَــى القَبْــرِ الَّــذي في ضَــميرِهِ حَبِيــبٌ يُواريــهِ الــصَّفِيْحُ المُنَــضَّدُ
ثَــوى بَعْــدَ مَثــواهُ بمــنزِلِ غُرْبَــةٍ تَــسَاوى مَــسُودٌ عِنْــدَهُ وَمُــسوَّدُ
لَقَــد راحَ عنــهُ رَهْطُــهُ وَعَــشيرُهُ وَغــادَرَهُ خُلطائُــهُ وَهُــوَ مُفْــرَدُ

---

(١) ابن الزقاق: علي بن عطية بن مطرف بن سلمة، وكنيته أبو الحسن ، ولد في بلنسية وهو ابن أخت ابن خفاجة ، وتوفي سنة ٥٢٨هـ، وسنة نحو الأربعين ، وقد نشأ نشأة فقيرة متواضعة. انظر ترجمته في: الحلة السيراء لابن الأبار، ج٢، ص٣٢٣، ونفح الطيب للمقري،ج٣ ، ص٣٩٨.
(٢) البلنسي، ابن الزقاق، ( ). **الديوان**. (تحقيق: عفيفة محمود ديراني)، بيروت: دار الثقافة، ص١٥٠.
(٣) المصدرنفسه، ص١٥٠.
(٤) المصدر نفسه، ص١٥١.

وَحِيـــــداً مِـــــن الخِـــــلاَّنِ إلاَّ عِـــــصابَةً رمـــوا عَـــنْ حنَيَّـــاتِ المَنايـــا فأُقـــصِدوا

ويطلب الشاعر الغيث أن يجود على ذلك القبر بالماء السح والوابل الهطل، ويلتفت إلى دموعه مبيناً أنها أجود من ذلك، وما هذا إلا ليبين أنه أكثر من بكاء أخيه "حسن" الذي صرّح باسمه، وبيّن أنه أفنى دموعه حسرةً عليه، حتى أفنى صبره وعزاءه، يقول في ذلك[١]:

يَجُـــودُ عَليهـــا الغَيْـــثُ سَـــحًّا وَوابـــلاً وَهَطـــلاً وَلكـــن دَمْـــع عَـــيْنِي أَجـــوَدُ
عَلَـــى حَـــسنٍ أفْنَـــي دُمُـــوعِيَ حـــسْرَةً وَمِـــن بَعـــضِ مـــا أُفـــنِي العَـــزا وَالتَّجلـــدُ

وبعد أن أطال الشاعر في وصف حزنه وألمه ووجده على فراق أخيه، وأنه سيبكيه ما حجّ "الحجيج"، وما غرّد حمام الأيْك، بيّن أن المرثى كان مريضاً، وقد نهب المرض جسمه، وآلامه كانت تزيد يوماً عن يوم، وقد كان الطبيب يلازمه، ويحسّ يده، ولكنه لم يستطع دفع الموت عن تلك المهجة الغالية على قلب الشاعر، يقول[٢]:

وَلَـــم أَنْـــسَهُ وَالـــسُّقمُ يَنْهَـــبُ جِـــسْمَهُ وَآلامـــهُ فِـــي كُـــلِّ يَـــومٍ تَزَيّـــدُ
يجـــسُّ يـــداً منـــه الطبيـــبُ وَمَـــنْ لـــه بِـــدَفْعِ صُـــروفِ المـــوتِ عَـــنْ مهجـــةٍ يـــدُ

ومما أجاد فيه الشاعر تصويره الموت يحبو أمام المرثى، ورمحاً يسدد نحو غرّة المرثى، يقول[٣]:

وَلَـــمْ أَنْـــسَهُ والمـــوتُ جـــاثٍ أَمامَـــهُ وَعامِلُـــهُ ذَلْـــقُ الغِـــرارِ مُـــسَدِّدُ

ويصوِّر موت أخيه يعادل قطع ساعده الأقوى، وهذا يبين أن المرثي كان ركناً عظيماً للشاعر ، وقد بُتر هذا الساعد، ثم يصوّره سيفاً قد ثُلِمَ، يقول[٤]:

أرى ســـاعِدي الأَقْـــوى يُجـــذُّ وَصـــارِمي يُثَـــلُّ وَعَـــسّالي الأَصَـــمُّ يُقـــصَّدُ

(١)البلنسي، ابن الزقاق، **الديوان**، ص١٥٢.
(٢)المصدر نفسه، ص١٥٣.
(٣)المصدر نفسه ، ص١٥٣.
(٤)المصدر نفسه، ص١٥٤.

وينهي الشاعر قصيدته مبيناً أنه كان يستسقي الغمام لضريح أخيه، وما زال يستسقي له رهام المزن، مثنى، وموحداً، ويؤكد أنه لا تلاقي بينه، وبين المرثى، وهذا يوجب الحزن، ولن يجمعه بأخيه إلا موعد الحشر، يقول في ذلك(١):

لَقَـــدْ كُنْـــتُ أَستَـــسقي الغَمَـــامَ لِقَبْـــرِه ... وَأَعْهَـــدُ منْـــهُ غَـــيرَ مـــا كُنْـــتُ أَعْهَـــدُ
سَـــقَتْه رِهـــامُ المُـــزنِ مَـــثنى وَمَوحِـــداً ... وَقَلَّـــتْ لَـــهُ مِـــنْهُنَّ مَثْنَـــى وَمُوَحِـــدُ
كفـــى حَزَنَـــاً أَن لا تَلاقِـــيَ بَيْننَـــا ... وَأَن لَـــيْسَ إلاَّ مَوقِـــفَ الحَـــشْرِ مَوعِـــدُ

(١)البلنسي، ابن الزقاق، **الديوان**، ص١٥٥.

رابعاً: رثاء الأقارب الآخرين

تعد قصيدة ابن خفاجة[١] في رثاء ابن أخته محمد، الذي توفي بالصحراء من أهم القصائد التي تتناول جانب رثاء الأقارب غير الأبناء، والآباء، والإخوان.

ونلحظ في مرثية ابن خفاجة أنه بالغ في إظهار الحزن والأسى، فقد بدأ قصيدته واصفاً شدة حزنه، وغزارة دموعه على المرثي ، ويصف ذلك بقوله[٢]:

أرقْــتُ أَكُــفَّ الــدَّمْعِ طَــوراً وَأسْــفَحُ ... وَأنْــضَحُ خَــدِّي تــارَةً ثُــمَّ أَمْــسَحُ
وَدونَــكَ طَمَّــاحٌ مِــنَ المَــاءِ مــائجٌ ... يَعُــبُّ وَمُغْبَــرٌّ مِــنَ البيــدِ أَفْــيَحُ

وتظل قصيدة ابن خفاجة وفق هذه النبرة الحزينة، مصورةً حزنه، ودموعه، وتأجج أحزانه، ولكن الأجمل في هذه القصيدة هو تصوير الليل الذي يزداد سوادا في عيني ابن خفاجة عندما يأتي وتأتي معه الهموم [٣]:

وَإنِّــي إذا مــا اللَيْــلُ جــاءَ بِفَحْمَــةٍ ... لأُوري زِنــادَ الهَــمِّ فيهــا فَأَقْــدَحُ

ثم يصرح الشاعر بذكر المرثي "محمد"، ويبين أنه مات صغيراً، ويطلب من الله أن يعفو عنه[٤]:

وَأســتَقْبِلُ الــدُّنيا بِــذِكْرِ مُحَمَّــدٍ ... فَيَقــبُحُ فِي عَيْنَــيَّ مــا كــانَ يَمْلــحُ
وَأُشــفِقُ مِــنْ مَــوتِ الــصَّبِي ثُمَّ إنَّــني ... لآمَــلُ أَنَّ اللهَ يَعْفــو وَيَــصْفَحُ

---

(١) ابن خفاجة: إبراهيم بن ابي الفتح بن عبد الله بن خفاجة الهواري الأندلسي، من أهل جزيرة شقر من أعمال بلنسية ، كان الأندلسيون يلقبونه بالجنان ، وكان عالما بالآداب لا يتكسب بالشعر ، غلب على شعره وصف الطبيعة والرياض ، توفي سنة٥٣٣هـ .انظر ترجمته في قلائد العقيان لابن خاقان، ج٤، ص٧٣٩. وفي الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة لابن بسام ، ج٦، ص٥٤١. .

(٢) ابن خفاجة، أبو إسحق إبراهيم بن أبي الفتح بن عبد الله الأندلسي، (١٩٧٩). **الديوان**. (تحقيق السيد مصطفى غازي)، منشأة المعارف، الإسكندرية، ص٢٦٧.

(٣) ابن خفاجة، **الديوان**، ص٢٦٨.

(٤) المصدر نفسه، ص٢٦٨.

ولا يغفل ابن خفاجة بيان استقباله لخبر وفاة محمد، وكيف أن كتاب نعيه كان شيئاً محزناً له. ونشعر بعمق الأسى الذي يبثه الشاعر في هذه الأبيات لا سيما إن علمنا أنه مات غريباً، وصغيراً [١]:

أَقُـــولُ وَقَـــد وافى كِتـــابُ نَعِيِّـــه ... يُجَمجِـــمُ في أَلفَاظِـــه فَيُـــصَرِّحُ
أرامٍ بِأغْمـــاتٍ يُـــسَدِّدُ سَـــهْمَهُ ... فَيَرمـــي وَقَلْـــبٌ بِـــالجَزيرَةِ يُجْـــرَحُ
فَيـــا لِغَرِيـــبٍ فَاجَأَتْـــهُ مَنِيَّـــةٌ ... أَتَتْـــهُ عَلـــى عَهْـــدِ الـــشَّبابِ تُجلِّـــحُ

ومن اللافت للنظر أن شعراء الأندلس لا يغفلون ذكر الحَمَام في رثائهم، وكثيرا ما يكون سببا في اشتعال نار الحرقة على الأموات [٢]:

تَـــرَى بي ، إذا أعْوَلَـــتْ حُزنَـــاً حَمامَـــةً ... تُـــرِنُّ، وَطَـــوراً أيْكَـــةً تَتَـــرَنَّحُ
غَريقـــاً بِبحـــرِ الـــدَّمعِ وَالهَـــمِّ وَالـــدُّجى ... وَلَـــو كَـــان بَحْـــرًا واحِـــدًا كُنْـــتُ أسْـــبَحُ

وتنتهي قصيدة ابن خفاجة كغيرها من قصائد الرثاء، بطلب الرحمة للمرثي، والدعاء لقبره بالسقيا، ويؤكد ابن خفاجة أن محمداً دفن غريباً عن أهله[٣]:

فَيـــا عَارِضـــاً يَـــسْتَقبِلُ اللَّيْـــلَ والفَـــلا ... وَيَـــسْري فَيطْـــوي الأطْـــولَينِ وَيَمْـــسَحُ
تَحَمَّـــلْ إلى قَبْـــرِ الغَريـــبِ مَـــدامعا ... تَكُـــبُّ فَتَـــروي أو تعُـــبُّ فَـــتَطْفَحُ
وَأَحْفِـــى سَـــلامٍ يَعـــبرُ البَحْـــرُ دونَـــهُ ... فَيَنْـــدى وَأزْهـــارَ البِطـــاحِ فَتَـــنْفَحُ

ويطلب من الساري أن يلقي النظرة الأخيرة على مثواه:

وَعَـــرِّجْ عَلـــى مَثْـــوى الحَبيْـــبِ بِنَظْـــرَةٍ ... تَـــراهُ بِهـــا عَنِّـــي هُنـــاكَ وَتَلْمَـــحُ

(١)ابن خفاجة **الديوان** ، ص٢٦٨.

(٢)المصدر نفسه ، ص٢٦٨

(٣)المصدر نفسه، ص٢٦٨.

ومن الشعراء الذين كانت لهم قصائد مؤثرة ومعبرة في رثاء أقاربهم، ابن حمديس الصقلي الذي رثى ابن أخته بقصيدة طويلة، استطاع أن يعبر فيها عن فداحة الخطب، وعِظَمِ المصيبة، وشدة الحزن، يقول(١):

خَطْبٌ يَهُزُّ شَواهِقَ الأطْوادِ ... صَدَعَ الزَّمانُ بِهِ حَصاةَ فؤادي
وَمُصيبَةٌ حَرُّ المَصائبِ عِندَها ... بَرْدٌ بحُرْقَتِها عَلى الأكْبادِ
وَكَأنَّما الأحْشاءُ مِنْ حَسَراتِها ... يُجْذَبْنَ بَيْنَ بَراثِنِ الآسَادِ

وبعد هذه المقدمة يبين ابن حمديس سبب هذه المصيبة، وهي موت ابن أخته، الذي صار في قبره وألحد فيه وحيدا بعيدا عن أهله وخلانه، يقول في ذلك(٢):

وكأنما في التُّرْبِ غَيَّضَ غَيضَها ... لَحْداهُ وَرْداً عَنْ وُرودِ صَوادِ

ثم لجأ الشاعر كعادته إلى ضرب الأمثلة بقوم ثمود وعاد، وبالوعول الممتنعة في قلل الجبال، والأسود الخادرة... لبأسها ولطول أعمارها، يقول(٣):

هَذا الزَّمانُ عَلى خَلائقِهِ الَّتي ... طَوَتْ الخَلائقَ مِنْ ثَمُودَ وَعَادِ
لم يَبْقَ مِنْهُم مَنْ يَشُبُّ لِقَرِهِ ... بيديه سِقْطاً مِنْ قداحِ زِنادِ
وهِزَبْرَ غابٍ يَحْتَمي بِمَخَالِبٍ ... يُرهَفْنَ مِن غَيرِ الحَديدِ، حِدادِ

ولا يغفل ابن حمديس عن الحِكَمِ التي تشهد له بشاعريته العالية، وقدرة على كتابة الشعر الجيد، كيف لا وابن حمديس يكتب هذه القصيدة، وهو ابن الثمانين(٤):

والعُمْرُ يُحْفَزُ بَينَ يَومٍ سابِقٍ ... لا يَسْتَقِرّ، وَبَينَ يَومٍ حادِ
دُنيَا إِلى أُخْرى تُنَقِّلُ أَهْلَها ... هَلْ تُتْرَكُ الأرواحُ في الأجْسادِ

وبعد أن قدم ابن حمديس ما قدم من هول الخطب، وأن هذا العالم فانٍ، توجّه ببعض الأبيات بشكل مباشر إلى المرثي، وأظهر شدة حزنه وفزعه، وهول الصدمة التي أصابته إثر

---

(١) ابن حميس، **الديوان**، ص١١٩.
(٢) المصدر نفسه ، ص١١٩.
(٣) المصدر نفسه، ص١٢٠.
(٤) المصدر نفسه ، ص١٢٠.

نعي هذا الفقيد الغالي، وأن فقده جاء مع مصائب أخرى أصابت الشاعر منها فراق أهله، وانتزاح بلاده، وكفى بها من مصائب، يقول[١]:

أَنـــا يـــا ابْـــنَ أُخْـــتي لا أَزالُ أَخـــا أَســـى حَتَّـــى أُوَسَّـــد في الـــضَّريحِ وِســـادي
إنِّـــي امـــرؤٌ مِمـــا طُرِقْـــتُ مُهَيَّـــدٌ[٢] بِفِـــراقِ أهلـــي وانتِـــزاحِ بِـــلادي

ومن الصور الجميلة التي جاء بها الشاعر، تصوير المرثي بالبدر، وتصوير الموت بالمحاق، يقول[٣]:

وأقُـــولُ بَـــدْراً دَبَّ فيـــه مُحاقُـــهُ إنَّ الكَمـــالَ إلَيـــهِ غَـــيرُ مُعـــادِ

وقد كان ابن حمديس يعلق آمالاً على الفقيد[٤]، حال الموت دون تحقيقها، فلجأ الشاعر إلى استخدام "لو" التي هي حرف امتناع لوجود، ويظهر في هذا أن الموت باغت المرثي دون أن يحقق تلك الآمال [٥]:

لَـــوْ أخَّرَتْـــهُ مَنِيَّـــةٌ لَتَقَـــدَّمَتْ في الجـــودِ هِمَّتُـــهُ عَلـــى الأجْـــوادِ
ولَكـــانَ في دَرْسِ العُلـــومِ وَحِفْظِهـــا بَـــيْنَ الأفاضِـــلِ مَبْـــدَأ الأغْـــدادِ

ثم ينادي الشاعر الفقيد باسمه "عبد الرحمن"، ويرجو ابن حمديس أن يكون للفقيد من اسمه نصيب فيفوز برضى الرحمن، يقول[٦]:

يـــا عابِـــدَ الـــرَّحْمنِ حَـــسْبُكَ رَحْمَـــةً وَفَّـــى لَهـــا بالعَهْـــدِ صَـــوبَ عِهـــادِ
بِحَـــلاوَةِ اسْـــمِكَ لِلمَنـــونِ مَـــرارَةً طُرِحَـــتْ بِعَـــذبِ الـــوُرْدِ لِلـــوُرَّادِ

---

(١) ابن حمديس، **الديوان**، ص١٢١.
(٢) مهيد: مروع مفزع.
(٣) ابن حمديس، **الديوان**، ص١٢١.
(٤) انظر: مخيمر، صالح (). **رثاء الأبناء في الشعر العربي**. الزرقاء: مكتبة المنار، ص٣٢-٤٠.
(٥) ابن حمديس، **الديوان**، ص١٢٢.
(٦) المصدر نفسه، ص١٢٢.

ويبين أنه مات غريباً، وترك عرسه، وألبسها ثوب حداد بدلاً من ثوب العرس، ويهديه بدلاً منها من حور الجنة، يقول(١):

فِي جَـــوفِ قَبْـــرٍ مُفْـــردٍ مِـــنْ زائـــرٍ قَبْـــرُ الغَريـــبِ يُخَـــصُّ بـــالإفْرادِ
وَتَرَكْـــتَ عِرْسَـــكَ، وَهـــيَ مِنْـــكَ جَنـــازَةٌ وَلِبَـــاسُ عِرْسِـــكَ، وَهـــوَ ثَـــوبُ حِـــدادِ
أُهْـــــدي إلَيْـــــكَ مَكانَهـــــا حُوريَّـــــةً مُهْـــدٍ، وَذاكَ الفَـــضْلُ فَـــضْلُ الهَـــادي

ويعود ابن حمديس ليصف حسرته، وبكاءه، ونياحه، وكمده(٢):

عِنْـــدي عَلَيْـــكَ مِـــن البُكـــاءِ بِحَـــسْرَةٍ مَـــاءٌ لِنَـــارِ الحُـــزنِ ذو إيقَـــادِ
وَنيَـــاحُ ذي كَمَـــدٍ يَـــذوبُ بِـــهِ إذا رَفَـــعَ الرِّثـــاءُ عَقـــيرَةَ الإنـــشَادِ

ولا يُغْفِل ابن حمديس نفسه من الرثاء، وهو ابن الثمانين، الذي ضعفت قوته، وذبلت روضته، وصار مشيه دبيباً كالكسير(٣):

أنَـــا فِي الثَّمـــانينَ الَّـــتي فَتلَـــت بِهـــا قَيْـــدي الزَّمانَـــةُ، عِنْـــدَ ذُلِّ قِيَـــادي
أمْـــشي دَبِيبـــاً كَالكَـــسيرِ وَأتَّقـــي وَثْبـــاً عَلـــيّ مِـــن الحِمَـــامِ العَـــادي
ذَبُلَـــتْ مِـــن الآدابِ رَوضَـــتِي الَّتـــي جُلِبَـــتْ نَـــضَارَتُها عَلـــى الـــرُّوادِ

وفي الأبيات الخمسة الأخيرة من القصيدة يتوجه الشاعر إلى ذوي المرثي بالعزاء، طالباً من أبي الحسن الصبر والاحتساب، ويطلب منه أن يتأسى بالنبي (ﷺ) عندما فقد نجله إبراهيم، وهذا التأسي سيكون سبباً لدخول الجنة وسبيل الرشاد(٤):

فاصْـــبِر أبـــا الحَـــسَنِ احْتِـــسابَ مُـــسَلِّمٍ للهِ أمْـــرُ خَـــواتِمٍ وَمَبـــادي
أوَلَـــيسَ إبـــراهيمُ، نَجْـــلُ مُحَمَّـــدٍ بالـــدَّفنِ صـــارَ إلى بِلـــى وَنَفـــادِ
رَدَّ الـــنَّبِيُّ عَلَيـــهِ تُرْبَـــةَ لَحْـــدِهِ بِيَـــدِ النُّبُـــوَّةِ، وَهـــي ذَاتُ أيـــادي
فتـــأسَّ فِي ابنِـــكَ بابنِـــهِ، وَخِلالِـــهِ تَـــسْلُك بِأُسْـــوَتِهِ سَـــبِيلَ رَشـــادِ

---

(١)ابن حمديس، **الديوان**، ص١٢٣.
(٢)المصدر نفسه، ص١٢٣.
(٣)المصدر نفسه، ص١٢٤.
(٤)المصدر نفسه ، ص١٢٤.

الباب الثاني: رثاء المرأة :

حظيت المرأة الأندلسية بمكانة مميزة في عصري المرابطين والموحدين، وقد كان لها في عصر المرابطين أدوار كثيرة مهمة، منها الدور السياسي. وقد تغنى بفضائلها الشعراء، فتمخض عن ذلك ما يعرف بـ"أدب المرأة"، وحسبنا هنا أنها لم تقل شأنا عن الأمراء في رعاية الشعراء، وإجزال العطايا لهم، فأصبحت مقصداً لذوي الحاجات لشفاعتها، تهب المنح السنية، وتعفو عن المسجونين، وترد المنكوبين إلى مناصبهم"[١].

وقد كان للمرأة في العصر الموحدي دور جلي من الناحية السياسية، حيث استأثرت النساء في أواخره بشؤون التولية والعزل[٢].

وأما عن ظاهرة رثاء المرأة – وهو موضوع الدراسة – فقد نالت المرأة منه النصيب الأوفر، والحظ الأكثر في هذين العصرين من بين العصور الأندلسية، كما بيَّن الباحث نزار السعودي في رسالته الموسومة بـ"رثاء المرأة في الشعر الأندلسي"[٣].

وقديماً عدّ النقاد رثاء المرأة والطفل من أشد أنواع الرثاء صعوبةً، لضيق الكلام وقلة الصفات، وقد دلل ابن رشيق القيرواني صحة مقولته بما وقع للمتنبي، عندما رثى أم سيف الدولة، فقال:

صَلاةُ اللهِ خالقِنَا حَنُوطُ   عَلَى الوَجهِ المُكَفَّنِ بِالجَمَالِ

فقيل: ماله، ولهذه المرأة يصف جمالها[٤].

---

(١) بوتشيش، إبراهيم القادري١٩٩٣، **المغرب والأندلس في عصر المرابطين**، بيروت – دار الطليعة ، ص٤٩.
(٢)الدغلي، محمد سعيد١٩٨٤، **الحياة الاجتماعية في الأندلس** وأثرها في الأدب العربي الحديث وفي الأدب الأندلسي،دمشق – دار أسامة ،ص٥٠.
(٣) السعودي، نزار جبريل، (٢٠٠٥). **رثاء المرأة في الشعر الأندلسي**. رسالة ماجستير غير منشورة، إشراف الدكتور : صلاح جرار، الجامعة الأردنية، عمّان، الأردن، ص١٨.
(٤) القيرواني، ابن رشيق، **العمدة**، ج٢، ص١٥٤.

أولاً: رثاء الأمهات:

كانت الأم وما تزال من أكثر الناس حَدْباً على أبنائها، وقد أوصانا الله تعالى بالوالدين إحساناً، وعُدَّ عقوق الأمهات من الأمور المنهي عنها، بل وَيُعدُّ من الكبائر.

وقد كان الشاعر الحكيم الداني[١] من أكثر شعراء الأندلس الذين وصلت مراثيهم إلينا وفاءً لأمه، و"التي بقيت له الذكرى الوحيدة من أهله ووطنه الأندلس، والتي أعانته في صغره، ولازمته في كبره، وفارقت أرضها من أجله لتكون إلى جنبه عند الشدائد... وقد توفيت في مصر قبل سجنه، أي في أواخر القرن الخامس للهجرة"[٢].

وقد بدأ الداني قصيدته مخاطباً دموعه، وطالباً منها أن تستبدل الدمع بالدم مبيناً أنه فارق أوجب الناس وأكثرهم وفاءً له، يقول[٣]:

مَـــدامِعَ عَيْنِـــي اســـتَبْدلي الـــدَّمْعَ بِالـــدَّمِ ... وَلا تَـــسأَمِي أَن يـــسْتَهِلّ وَتَـــسْجمِي
لَحـــقّ بِـــأَن يَبْكِـــي دَمـــاً جفْـــنُ مُقلَـــتي ... لأَوْجَـــب مَـــن فارقـــتُ حَقّـــاً وَأَلـــزمِ
أَخِـــلاّءَ صِـــدْقٍ بَـــدّدَ الـــدَّهْرُ شَـــمْلَهم ... فَعَـــادَ ســـحيلاً[٤] مِنـــهُم كُـــلّ مُـــبرَمِ

وتتأجج نيران أحزان الشاعر إذا التفت إلى قبور أحبته التي كثرت ، وفي هذا دلالة على أن الشاعر فقد الكثير من الأهل والأحباب ، لذلك يشبه الشاعر تلك القبور الكثيرة بأشجانه وتلهفه ، ويبين مكانة أصحاب تلك القبور أنها مساقط أنجم ، وفي هذا دلالة أيضا على علو مكانة من فقد الشاعر . يقول[٥]:

فَقَـــدْ كَثُـــرَتْ فِـــي كُـــلِّ أَرْضٍ قُبُـــورُهُم ... كَكَثْـــرَةِ أَشْـــجانِي وَلَهْفَـــتِي عَلَـــيهِم
ومـــا تِلْـــكَ لَـــو تَـــدْرِي قُبُـــورُ أَحبّـــةٍ ... وَلَكِنّهـــا حَقّـــاً مَـــساقط أَنجُـــمِ

---

(١) الحكيم الداني: هو أمية بن عبد العزيز الداني، أبو الصلت، حكيم، أديب من أهل دانية بالأندلس، ولد سنة ٤٦٠هـ ، وتوفي سنة ٥٢٩هـ ،ورحل إلى المشرق، مقدمة الديوان، ص ٦-٨.

(٢) الداني، أبو الصلت أمية بن عبد العزيز، (ت: ٥٢٩هـ/١١٣٥م). **ديوان الحكيم أبي الصلت أمية بن عبد العزيزالداني**، (تحقيق: محمد المرزوقي)، (ط٣)، تونس: دار بوسلامة للطباعة والنشر، ص٢٥ وما بعدها.

(٣) المصدر السابق، ص١٤٢.

(٤) السحيل: الغزل الذي لم يبرم ، انظر: ابن منظور، **لسان العرب**، مادة سَحَلَ.

(٥) الداني، الحكيم، **الديوان**، ص١٤٢.

وبعد أن بيَّن الشاعر أن القبور كثرت، والأحباب فُقِدُوا، صار يبث حزنه ولوعته ورزأه، وفاضت أبياته بشعر صادق، كيف لا؟! وهو يرثى أمه، يقول[١]:

رُزِئْــت بِــأَحفى النّــاسِ بِــي وَأَبَــرّهُم وَأَكَبْــر بفَقــد الأُمّ رُزءاً وَأَعظــم
فَأَصْــبَح دَرُّ الــشّعرِ فِيْــك مُنظّمــاً وَأَصــبَح دَرُّ الــدَّمْعِ غَيْــرَ مُــنْظّمِ

ثم يصف الشاعر حاله عندما أودع أمه التراب ، ويبين أن دموعه صارت على قميصه ،كالعندم وفي هذا بيان لاختلاط دمع الشاعر بالدم، بل تحول الدموع دماً لبكاء الشاعر على تلك الأم التي كان لفقدها أثر كبير . يقول[٢]:

كَــأَنّ جُفُــونِي يَــومَ أَودَعْتُــكَ الثَّــرَى نَــضَحنَ عَلَــى جَيْــبِ القَمِــيصِ بِعَنْــدَمِ[٣]

ولا يغفل الشاعر تغريد الحمام، الذي يرد ذكره في المراثي الشعرية الأندلسية، بشكل لافت للنظر، والشاعر هنا ينوح لتغريد الحمائم بالضحى، ويبكى إذا لمع البرق، وهذا أيضاً يدل على مشاركة الطبيعة للشاعر في أحزانه، يقول[٤]:

أَنُــوحُ لِتَغرِيــدِ الحَمَــائِمِ بِالــضُّحَى وَأَبكِــي لِلمْــعِ البَــارِقِ المُتَبَــسّمِ

ومن المفيد في هذا المقام أن نقف على بعض الصور الجميلة في قصيدة الداني، وهو يبين أنه لا يشتكي فقد الصباح، ويعلل ذلك أنه في ليل مدى الدهر، وذلك لأنه فقد أعز الناس عنده، يقول[٥]:

وَمَــا أَشــتَكي فَقــدَ الــصَّباح لأَنَّــني لِفَقــدك فِي لَيــلٍ مَــدى الــدَّهر مُظلــمِ

ومن المفارقات الجميلة في قصيدة الداني، المقارنة بين ليل العاشقين، وليل من وارى التراب حبيبه، وقد بيَّن أن ليل الثاني أطول، لأنه أكثر حزناً، وقد دلل على صدق قوله عندما قارن بين جميل بن معمر الذي اشتهر بعشقه لبثينة، ومتمم بن نويرة الذي اشتهر بمراثيه الباكية

---

(١) الداني، الحكيم، **الديوان** ، ص١٤٢.
(٢) المصدر نفسه ، ص١٤٣.
(٣) العندم : ثمر لونه أحمر (انظر لسان العرب مادة عندم).
(٤) الداني، الحكيم، **الديوان**، ص١٤٣.
(٥) المصدر نفسه، ص١٤٣.

في أخيه مالك بن نويرة اليربوعي قتيل حروب الردة في عهد الخليفة أبي بكر الصديق – رضي الله عنه–، فالأول يرجو والثاني يائس، يقول[(١)]:

تَطُــــول ليـــــالِي العَاشــــقِينَ وَإِنَّمَــــا	يَطُــولُ عَليــكَ اللَّيْـــلُ مــا لَــمْ تُهَــوِّمِ
وَمـــا لَيْــلُ مَـــنْ وارى التُــرابُ حَبِيْبَــهُ	بِأَقْــصَرِ مِـــن لَيْــلِ المُحِــبِّ المُتَــيَّمِ
فَكَــمْ بَـــينَ راجٍ لِلإِيــابِ وَآيِـــسٍ	وَأَيْــنَ جَميــلِ فِــي الأَسَــى مِــنْ مُــتَمِّمِ

ومن المهم أن نشير في هذا المقام إلى أن قصيدة الداني هي القصيدة الوحيدة التي صوَّر فيها شعراء الأندلس في عصري المرابطين والموحدين فقدهم لأمهاتهم،ولا شك أن ثمة قصائد أخرى، وأشعارا غيرها قيلت في رثاء أمهات الشعراء، ولكن لم نتمكن من العثور عليها.

وقد غلب على هذا الرثاء الندب والتحسر على الفقيد، فقد ندب الداني أمه بسبعة عشر بيتاً، من قصيدته التي بلغت أربعة وعشرين بيتاً[(٢)].

ومن الشعراء الذين كانت لهم مشاركة وجدانية في رثاء الأمهات ابن خفاجة الذي عزّى، قاضي القضاة، أبا أمية[(٣)]، بوفاة أمه[(٤)] بقصيدة بلغت أبياتها ستاً وأربعين بيتاً، فقد بدأ قصيدته طالباً من الطبيعة أن تشاركه أحزانه، وطلب من الجماد أن يبكي بعبرة حمراء[(٥)]:

في مثلِـــــه مِـــــن طـــــارِق الأَرزاءِ	جـــادَ الجَمـــادُ بِعَـــبرَةٍ حَمـــراءِ
مِـــن كُـــلِّ قانِيَـــةٍ تَـــسيلُ كَأَنَّهـــا	شُـــهُبٌ تَـــصَوَّبُ مِـــن فُـــروجِ سَـــماءِ
تَحْمـــى فَتَغْـــرَقُ مُقلَـــةٌ فِـــي جَـــاحِمٍ	مِنـــها وَتُحـــرَقُ وَجنَـــةٌ في مـــاءِ

ويتوجه الشاعر إلى القاضي أمية بالعزاء، ويعذره على جزعه، وقد بين ابن خفاجة ذلك من الرسالة التي أردفها مع القصيدة "...وبعد، فإن جزعت لهذا الحادث الكارث، فبحكم البنوة والفضل، وإن صبرت فبمقتضى الشريعة والعقل . فأيا أتيت، فلا ملالمة تتعلق بك، ولا حجة

---

(١)الداني، الحكيم، **الديوان**، ص١٤٣.

(٢) السعودي، نزار ، **رثاء المرأة في الشعر الأندلسي**، ص٤١.

(٣) القاضي أبو أمية: إبراهيم بن محمد بن إبراهيم بن عبد الله بن عصام ، من أهل مرسية ، عمل قاضيا قرابة خمس وثلاثين سنة ، وكان ذا جلالة في أحكامه ، كان أديبا يقرض الشعر، توفي سنة ٥١٦هـ. انظر قلائد العقيان لابن خاقان ج٣،ص٦٢٩، وفي المغرب لابن سعيد ج٢،ص٢٥٨.

(٤) ابن خفاجة، **الديوان**، (أورد الباحث الجيلاني سلطان في رسالته الموسومة اتجاهات الشعر في عهد المرابطين، ونسبها إلى أن ابن خفاجة قالها في رثاء والده، ص١١٥) ، والصواب أن ابن خفاجة قالها في رثاء والدة الفقيه أبي أمية، كما هو مثبت في الديوان ص٢٧٣.

(٥) ابن خفاجة، **الديوان**، ص٢٧٣.

عليك، فخطبك أشنع، وعذرك أوسع، غير أن الصبر أخلق بمثلك من أهل الجزالة، وأولى الرجاحة والجلالة[١]..."، يقول[٢]:

وَلَـــئِن جَزِعـــتَ لِيَـــومِ أُمِّ بَـــرَّةٍ ... نَـــشَأَت تَطـــولُ أَكـــابِرَ الآبـــاءِ
تَـــصِلُ الـــدُعاءَ إِلى البُكـــاءِ كَأَنَّمـــا ... تَرمـــي الـــسَماءَ بِمُقلَـــةٍ مَرْهَـــاءِ
فَلِمِثلِـــهِ مِـــن يَـــومِ خَطـــبٍ نـــازِلٍ ... جَمَّـــت دُمـــوعُ أَفاضِـــلِ الأَبنـــاءِ
فَـــاسمَح بِـــأَعلاقِ الـــدُموعِ فَإِنَّمـــا ... تفـــنى دُمـــوعُ العَـــينِ لِلبُرَحـــاءِ

ويطلب الشاعر من المُعَزَّى، أن يقرع باب السماء بالدعاء، ويفصل الشاعر في الدعاء، فيطلب أن ينزل المطر، وتجود الأرض بالرحمات، ويرسم صورة حسية جميلة من الأنوار والأنواء، يقول[٣]:

وَاقـــرَع لَهـــا بـــابَ الـــسَماءِ بِـــدَعوَةٍ ... تَـــستَمطِرُ الخَـــضراءَ لِلغَـــبراءِ
حَتّـــى تَجـــودَ بِكُـــلِّ عـــارِضِ رَحمَـــةٍ ... تَستَـــضحِكُ الأَنـــوارَ لِلأَنـــواءِ
زَجِـــلِ الرُعـــودِ كَأَنَّمـــا مَـــسَحَت بِـــهِ ... كَـــفُّ الـــصَبا عَـــن ناقَـــةٍ عُـــشَرَاءِ

ويطلب الشاعر من المُعزَّى أن يصبر، ويحتسب، وهذه من شيم النبلاء، يقول[٤]:

وَلَـــئِن صَـــبَرتَ وَصَـــبرُ مِثلِـــكَ حِـــسبَةٌ ... فَلَقَـــد أَخَـــذتَ بِـــشيمَةِ النُـــبَلاءِ

ونستخلص من قصيدة ابن خفاجة في عزائه أنه كان صادق العاطفة، وهذا لا شك مما يعانيه ابن خفاجة من حزن ، وقلق ، وقد بيَّن ذلك في رسالته التي كتبها مع القصيدة "كتبته والنفس تتفجع، وحصاة القلب تتصدع، عندما طرأ النبأ الأشنع..." [٥]، ثم يبين سبب تأخره في تعزيته "...كتبت أجلي وجه العذر في التوقف، وأشرح سبب التأخر والتخلف... وجملة ذلك أني لا أكاد أفلت من إسار شكوى إلا رسفت في قيد أخرى..."[٦].

---

(١) ابن خفاجة ، **الديوان**، ص٢٧٦، ٢٧٧.
(٢) المصدر نفسه، ص٢٧٣، ٢٧٤.
(٣) المصدر نفسه، ص٢٧٤.
(٤) المصدر نفسه، ص٢٧٤.
(٥) المصدر نفسه، ص٢٧٧.
(٦) المصدر نفسه، ص٢٧٧.

وكذلك فقد رثى الحكيم أبو الصلت أمية أم علي الصنهاجي، بقصيدة بلغت أبياتها سبعة عشر بيتاً، ولكن هذه القصيدة لم تبلغ ما بلغته قصيدته في رثائه أمّه التي مرت معنا، فجاءت القصيدة كثيرة التكلف واضحة الصنعة، يقول(١):

وَلَـــم أَرَ يَوْمـــاً مِثْـــلَ يَـــوم شَـــهِدتهُ وَقَد غَابَ حُسنُ الصَّبْرِ واسْـتَحوذَ الكَـرْبُ
وَمَـــأتَم شَـــكوَى وَانتحـــاب تَـــشَابَهَتْ دمـــوعُ البَـــواكِي فِيْـــه وَاللُّؤلـــؤُ الرَّطـــبُ
وَقَـــد كَـــسفَتْ شَـــمْسُ العـــلا وَتَـــضَاءلَتْ لَها الشَّمْسُ حَتّـى كـادَ مـصباحُها يَخبُـو

وأيضاً فقد رثى ابن سهل (٢) والدة الوزير الفاضل أبي علي بن خلاص، بقصيدة بلغت أبياتها اثنين وأربعين بيتاً، جاءت هذه القصيدة مقسمة إلى أربعة أقسام؛ فقد كان القسم الأول عن الزمان وتقلباته ، والموت وفتكته بالمسالم والمحارب ، يقول(٣):

يُلحَـــى الزَّمَـــانُ وَمَـــا عَلَيـــه مَـــلامُ يَجـــني القَـــضَاءُ وَتُعتَـــبُ الأَيَّـــامُ
أَعِـــيى البَـــسالَةَ وَالحِـــذار حَبائـــلٌ ســـيَّان فِيهَـــا الأسْـــدُ وَالآرامُ
فَتَـــكَ الـــرَّدَى بِمُـــسَالِمٍ وَمُحَـــارِبٍ يُقْـــوي الكِنـــاسُ وَتقفِـــرُ الآجَـــامُ

والقسم الثاني، يتحدث عن صفات أم علي الصنهاجي، فهي برة، تهوى النفوس أن تكون لها فدىً توفيت في شهر رمضان، تصنع المعروف، قوامة لليل، يقول(٤):

يَـــا بَـــرَّةً لَمّـــا انطَـــوَت أعمالهـــا تَاقَـــتْ إليهـــا الـــصُحفُ وَالأَقْـــلامُ
تَهْـــوى نُفـــوسٌ أَن تَكُـــونَ لَـــكِ الفِـــدَا فَتَقـــلُّ عَنـــكِ وَإنَّهـــا لَكِـــرَامُ
أَوحَشْتِ شَـهَرَ الـصَومِ حَتّـى قَـد بَـدَت للبَـــثِّ فِيْـــه وَللأَسَـــى أَعْـــلامُ
كَـــمْ جُـــدتِ بِـــالَمعرُوفِ وَهُـــوَ مُـــتَمَّمٌ فِيْـــهِ وَقُمْـــتِ اللَّيْـــلَ وَهـــوَ تَمـــامُ

---

(١) الداني، الحكيم، **الديوان**، ص٥٠.

(٢) ابن سهل: إبراهيم بن سهل الإسرائيلي، الأشبيلي ، ويكنى أبا إسحق، ولد بإشبيلية سنة٦٠٩هـ، كان ذا رئاسة وأدب ، من عائلة يهودية. انظر ترجمته في مقدمة الديوان، ص٢٣ وما بعدها.

(٣) ابن سهل، (ت: ٦٤٩هـ)، (١٩٨٥). **ديوان ابن سهل الإسرائيلي**. (جمعه وحققه وقدم له محمد قوبعة)، تونس: منشورات الجامعة التونسية، ص٣٣٤.

(٤) ابن سهل، **الديوان** ، ص٣٣٥ وص٣٣٦.

وفي القسم الثالث من القصيدة، يتحدث الشاعر عن قبر المتوفاة، ومكانتها في الجنة واستقبال الحور لها ترحاباً واستبشاراً بمقدمها، يقول[١]:

يـــا ديمَـــةً في التُّـــربِ غـــارَتْ بَغتَـــةً ... وَذَوُو الأَمَـــــانِي واقِفُـــــونَ حِيَـــــامُ
لَـــولا ضَـــرِيحُكِ مـــا عَلمنَـــا حُفْـــرَةً ... أَضْـــحَتْ يُنافِـــسُهَا العُلُـــو شَـــمَامُ
سَـــبَقَت خُطَـــاكِ إِلَـــى الجِنَـــانِ وَســـائِلٌ ... أَثْنَـــى عَلَيهـــا اللَـــهُ وَالإِســـلامُ
مَـــدَّتْ إِلِيـــكِ الحـــورُ مِـــنْ أَبْـــصارِها ... وَاســـتَقبَلَتْكِ تَحِيَّـــةٌ وَسَـــلامُ

وفي القسم الثالث يحسن الشاعر التخلص من الرثاء إلى المديح، فيمدح أبا علي بن خلاص، فهو كالربيع الذي يبقى إذا استهل الغيث، همام، فيه سمة الوزارة، عزماته قوية، يقول[٢]:

خَلَّفْـــتِ حِـــيْنَ ذَهَبْـــتِ خَيْـــرَ ابـــنٍ كَمَـــا ... يَبْقَـــى الربيـــعُ إِذا اســـتَهَلَّ غَمـــامُ
ذَاكَ الهُمَـــامُ الفَـــردُ لَكِـــنْ ثُنِّيَـــتْ ... ســـمَةُ الـــوزارةِ فيـــهِ فَهِـــيَ تُـــؤامُ
لَـــو تُطْبَـــعُ الأَســـيافُ مِـــنْ عَزماتـــهِ ... لَـــمْ يُغـــنِ أَبنـــاءَ الـــوغى استـــلامُ

وأيضاً فقد عزى ابن الأبار[٣] الخطيب الفاضل[٤] أبا عبد الله بن قاسم بوفاة أمه بقصيدة بلغت أبياتها سبعة وعشرين بيتاً، منها[٥]:

سَـــقى اللَّـــهُ قَبْـــراً أودِعَ البِـــرّ والتُّقَـــى ... كَمَـــا تُـــودعُ الأَزهـــارُ طَـــيَّ الكَمَـــائمِ
ويَمَّمَهَـــا الرِّضْـــوَانُ أُمـــاً كَرِيمَـــةً ... لأَوحَـــدَ مَخـــصوصٍ بِغُـــرِّ المكـــارِمِ

---

(١) ابن سهل، **الديوان** ، ص٣٣٧.

(٢) المصدر نفسه، ص٣٣٨.

(٣) ابن الأبار:أبو عبد الله محمد بن عبد الله بن أبي بكر بن عبد الرحمن بن أحمد بن أبي بكر القضاعي البلنسي، اشتهر بلقب ابن الأبار، ولد في بلنسية يوم الجمعة في أحد شهري الربيع سنة ٥٩٥هـ/ يناير سنة ١١٩٨م. عرف بالجد والمثابرة والبحث والاستقصاء، التحق كاتباً في بلاط أبي عبد الله بن أبي حفص الموحدي، من مؤلفاته "إعتاب الكتاب"، أصر خصومه ومنهم ابن عميرة على حبك أخطر مؤامرة عليه، فدسّوا عليه لدى أمير المؤمنين وخليفة المسلمين أبي عبد الله المستنصر، فبطش به بطشة جبارةً، إذ قتله أعوانه وجنوده قصعاً بالرماح، ثم أحرقوا جثته مع كتبه، وقد سجل التاريخ أن ملكاً ظالماً فتك بعالم جليل ظلماً وعدواناً وأحرقه كما أحرق إنتاجه العلمي الضخم، وذلك يوم الثلاثاء ٢٠ محرم سنة ٦٥٨هـ/ ٦ كانون الثاني ١٢٦٠م. (ابن الأبار، أبو عبد الله محمد القضاعي البلنسي، (ت ٦٥٨). **ديوان ابن الأبار**١٩٨٥. (قراءة وتعليق الدكتور عبد السلام الهراس)، فاس: الدار التونسية للنشر ، ص٩-١٥.

(٤) هو محمد بن عبد الله بن قاسم شيخ ابن الأبار، توفي ٦٤٠هـ (ابن الأبار، الديوان، ص١٧).

(٥) ابن الأبار، **الديوان**، ص٢٨٦.

ثم يبين الشاعر أن المرثية تركت الدنيا ، ولكن مسامعها الطيبة مازالت تشهد لها على كرم اخلاقها ، وجميل صفاتها ، وكثرة خيراتها [(١)]:

تَخَلَّـــت عَـــنِ الـــدُّنيا وخَلَّـــتْ مـــسامياً لَهـــا طيْـــبُ أنفَـــاسِ الرِّيَـــاحِ النَّواسِـــمِ

فَـــإِن وَكَفَـــتْ سُـــحْمُ الغَمـــائمِ بَعـــدَها فَقَـــد هَتفَـــتْ بـــالنَّوحِ وُرقُ الحَمـــائمِ

وكما هي العادة في قصائد الرثاء يحسن الشاعر التنقل من الرثاء إلى المدح، أي إلى الخطيب الفاضل، فهو خير خلف لخير سلف، يقول[(٢)]:

مُبَارَكَـــة جـــاءَتْ بِنَجْـــلٍ مُبَـــارِكٍ لَـــهُ في المَعَـــالي ســـاميَاتُ المَعَـــالِمِ

وما إن انتقل الشاعر إلى المدح حتى تظل قصيدته على هذا المنوال حتى نهايتها.

وقد أورد الفتح[(٣)] في المطمح مقطوعتين لشاعرين معاصرين لزمانه يرثيان والدته، الأولى للشاعر أبي القاسم المنيشي[(٤)]، وفيها يصف جلد الفتح وقدرته على الاحتمال بعد أن فقد الإنسانة الوحيدة من أسرته، ويشبّه الشاعر والدة الفتح بأنها نور ويتمنى أن يكون شبابه موضعها، يقول[(٥)]:

يـــا ذا الـــوِزَارةِ مِـــن مَثْنَـــى وَواحِـــدَةٍ لله مـــا اصْـــطَنَعَتْ مِنـــكَ الـــوزاراتُ

لله منْـــكَ أبـــا نَـــصْرٍ أخـــو جَلَـــدٍ إذا أَلَمَّـــت مُلمَّـــاتٌ مهمـــاتُ

أســـتَودِعُ اللهَ نُـــوراً ضَـــمَّهُ كَفَـــنٌ كَمَـــا تُـــواري بُـــدُورِ الـــتَّمِّ هَـــالاتُ

قَـــضتْ وَليـــتَ شَـــبابِي كَـــانَ مَوضِـــعَهَا هَيهَـــاتَ لَـــو قُـــضِيَتْ تِلـــكَ اللُّبانـــاتُ

---

(١) **ابن الأبار** ، **الديوان** ،ص٢٨٦، و٢٨٧.

(٢) المصدر نفسه ، ص٢٨٧.

(٣) الفتح بن خاقان: يقول ابن خلكان : إنه الفتح بن محمد بن عبيد الله بن خاقان بن عبد الله، وكنيته "أبو نصر". (ابن خاقان، أبونصر الفتح بن محمد بن عبيد الله القيسي الإشبيلي، (المتوفى سنة ٥٢٩هـ)، (١٩٨٣). **مطمح الأنفس ومسرح التأنس في ملح أهل الأندلس**. (تحقيق محمد علي شوابكة)، (ط١)، بيروت –مؤسسة الرسالة، ص١٩.

(٤) وهو أبو القاسم بن أبي طالب الحضرمي المنيشي المعروف بعصا الأعمى، لقب بذلك لأنه كان يقود الأعمى التطيلي (المطمح، ص٣٥٣، المغرب، ج١، ص٢٨٩، بغية الملتمس، ص٥٣٤).

(٥) الفتح بن خاقان، **المطمح**، ص٣٥٥.

والثانية: لأبي الحسن لسان[١]، وفيها يصف الشاعرالفقيدة بالتقوى والإيمان وعراقة الأصل، وأنها تركت ولداً بليغاً فصيحاً، تترك كلماته الأثر الذي تعجز عنه السيوف والقنا، يقول[٢]:

علـــى مِثْلِـــهِ مِـــنْ مُـــصَابٍ وَجَـــبْ	عَلَـــى مَـــنْ أُصِـــيبَ بِـــهِ الْمُنْتَجَـــبْ
فَقَـــدْ خَـــضَعَتْ للتُّقَـــى هَـــضْبَةٌ	ذُؤابَتُهـــا فِـــي صَـــمِيمِ العَـــرَبْ
مِـــنَ القَائمَـــاتِ بِظِـــلِّ الـــدُّجَى	ومَـــنْ لا تُـــسَامِرُ إلا الـــشُّهُبْ
فَكَـــمْ رَكَعَـــتْ إِثْرَهـــا فِي الـــدُّجَى	تُنَـــاجِي بِهَـــا رَبَّهَـــا مِـــنْ كَثَـــبْ
وَقَـــدْ خَلَّفَـــتْ وَلَـــداً بَاسِـــلاً	فَـــصِيحَاً إِذَا مَـــا قَـــرَا أَو خَطَـــبْ

وهكذا نلحظ على رثاء الأمهات أنه انقسم إلى قسمين:

القسم الأول: ما صدر عن الشاعر نفسه في رثاء والدته، وقد انفرد في هذا النوع من الرثاء الحكيم الداني ، ولا شك أن هذا الرثاء يتميز بصدق العاطفة، فماذا نتوقع من شاعر فقد اعزَّ الناس عليه إلا أن يكون شعره مرآة لما في نفسه، فتخرج كلماته لتعبر عما يجيش في خاطره.

القسم الثاني: وهو ما عزّى به الشعراء غيرهم في وفاة أمهاتهم، وقد يطلق على هذا النوع من الرثاء، الرثاء الرسمي، ويتفاوت هذا النوع من شاعر لآخر فمنهم من أجاد وعبّر فكانت أبياته تتسم بالصدق الفني مثل ابن خفاجة، وهذا لا شك مما كان الشاعر يعانيه، فقد نظم ابن خفاجة قصيدته "...والنفس تتفجع، وحصاة القلب تتصدع..."، وبيَّن سبب ذلك أنه لم يكد يفلت من إسار شكوى إلا رُسِفَ في قيد أخرى، ومنهم من جاءت أبياته فاترة العاطفة واضحة الصنعة كما هي قصيدة الحكيم أبي الصلت أمية في رثاء أم علي الصنهاجي، فما وجه الشبه بين دموع البواكي، وبين اللؤلؤ الرطب، كما مرّ معنا.

وتشترك أيضاً قصائد التعزية، بتصوير صفات المرثية الحسنة وأنها أمّاً لليتامى، صوامة قوامة، وبطلب الجنة لها، وبعد ذلك يطلب الشاعر السقيا لقبر المتوفاة، وتصوير استقبال حور العين لها، وبيان مكانتها في الجنة.

وكذلك فإننا نجد عاملاً مشتركاً بين قصائد رثاء الأمهات، وهو مدح ذوي المرثي، وبيان صفاته، وعادةً يطلب الشعراء منهم أن يتحلوا بالصبر.

---

(١) شاعر سمح، متقلد بالإحسان متشح، أمَّ الملوك والرؤساء، وُلد سنة (٥٠٨هـ)، وتوفي سنة (٥٨٣هـ). (المطمح، ص٣٧٥).
(٢) الفتح بن خاقان، **المطمح**، ص٣٧٦.

ثانياً: رثاء الزوجات:

بكى الأندلسيون زوجاتهم، وذرفوا عليهن الدموع، وارتفعت أصواتهم وراءهن مضمَّخة بالآهات الحزينة، والزفرات الحارة.

والرثاء معزوفة الحزن على أوتار القلب، وأنشودة الأسى على قيثارة النفس، وهو من أجل ذلك يسمو على الفنون الشعرية من حيث الصدق وتفجر الشعور(١). وغالباً ما يتصل الرثاء ببكاء الزوجة، وهو بكاء يمتد من فقد الزوجة بالطلاق إلى فقدانها بالموت، وهو لون ذاتي خالص يعتمد على ميل أصيل في نفس الشاعر إلى البوح، كأنه ترجمة ذاتية قصيرة(٢).

وقد أطلق الدكتور إحسان عباس على ظاهرة بكاء الزوجة ما سمَّاه "البكاء على زوال الرقة والجمال"(٣).

ولعل ظاهرة بكاء المرأة تتجلى بصورتها الكبرى في ديوان كامل من الشعر والموشح، نظمه ابن جبير في رثاء زوجته أم المجد، فقد ذكر الإخباريون أن له ديواناً أسمه "نتيجة وجد الجوانح في تأبين القرين الصالح"، زادت أبياته على ثلاثمائة بيت، إضافةً إلى موشحات خمس جعلها في آخره، ومنه جزء آخر سماه "نظم الجمان في التشكي من إخوان الزمان"، يشتمل على أكثر من مائتي بيت، على صورة مقطوعات شعرية، ولكن هذا الديوان ضاع أكثره، ولم يصل منه سوى بيتين في رثاء زوجته(٤)، وقد وافتها المنية بالمغرب، يوم السبت العاشر من شعبان، سنة إحدى وستمائة، وقال في هذه الحادثة نثراً: "من عجائب اتفاقات الأقدار الباعثة على الاعتبار، أن كان تجهيزها إليَّ في الحادي عشر من شعبان، سنة سبعين وخمسمائة، فوافق تجهيز الحياة تجهيز الممات، وليلة القبر تنسي ليلة العرس، فيا لها من روعة وحرقة، ولكل اجتماع من خليلين فرقة"(٥)، وزوجته هذه هي أم المجد عاتكة، ابنة الوزير أبي جعفر عبد

---

(١) أبو حسين، محمد صبحي، (٢٠٠٣). **صورة المرأة في الأدب الأندلسي "في عصر الطوائف والمرابطين"** عالم الكتب الحديث – إربد ،ص١٧٣.

(٢) عباس، إحسان، (١٩٧٤). **تاريخ الأدب الأندلسي عصر الطوائف والمرابطين. (ط٣)**، بيروت: دار الثقافة، ص١٢٠.

(٣) عباس، إحسان، **تاريخ الأدب الأندلسي عصر الطوائف والمرابطين**، ص١٢٠، ١٢١.

(٤) المراكشي، ابن عبد الملك، (). **الذيل والتكملة**، السفر الخامس، القسم الثاني، ص٦٠٨، وانظر: ابن جبير في رحلته، ص٥١، وانظر: عباس، إحسان، **تاريخ الأدب الأندلسي**، ص١٢٠.

(٥) المراكشي، ابن عبد الملك، **الذيل والتكملة**، السفر الخامس، القسم الثاني، ص٦٠٦.

الرحمن الوقشي، ويتمنى ابن جُبير في رثائه زوجته أن يركب الهوى ليزور قبرها بسبتة، يقول في رثائها[١]:

بِسبتَةَ لِي سَكَنٌ فِي الثّرَى ... وَخِلٌّ كَرِيْمٌ إِلَيْهَا أتَى
فَلَو أسْتَطِيعُ رَكِبْتُ الهَوَى ... فَزُرْتُ بِهَا الحَيّ والمَيّتَا

وقد كان زواجه منها زواجاً ناجحاً؛ لأنه وصل بين كفؤين، يربط بينهما الحب والاحترام المتبادل ورعاية الحقوق، أصيبت زوجته بمرض مزمن في آخر حياتها أقعدها ومنعها من السفر معه، فتوفيت على أثره[٢].

ومن أهم الشعراء الذين كانت لهم قصائد مؤثرة في رثاء زوجاتهم الأعمى التطيلي[٣]، الذي بكى زوجته" آمنة" بقصيدة طويلة، بلغت أبياتها أربعة وخمسين بيتاً، تفيض حرارة وصدقاً، وقد كانت سمة الحزن واضحة في قصيدة التطيلي، التي تعد بحق حلقة في سلسلة رثاء الزوجات في الشعر المشرقي والأندلسي، فقد رثى زوجته وبكاها بشعر يتفطر ألماً وتفجعاً، وينمُّ عن أسىً بليغ وحزن عميق وعاطفة صادقةٍ، ويتمنى أن لو كان صدره قبرها، وقلبه مستقرها، ويصل البكاء بالبكاء، ولا يرى أنه وفاها حقها، ثم يصف حاله وما آل إليه أمره بفقدها[٤]، ويعبّر عن ذلك بمرثيته الرائعة، التي تمثل حرقة الزوج على زوجته، يقول[٥]:

وَنُبِئْتُ ذَاكَ الوَجْهَ غَيّرَهُ البِلَى ... عَلى قُرْبِ عَهْدٍ بالطّلاقَةِ وَالبِشْرِ
بَكَيْتُ عَليهِ بالدُّموعِ وَلَو أبَتْ ... بَكيتُ عَليهِ بالتَجَلُّدِ وَالصَبْرِ
فَلَيتَهم وَاروا ذُكَاءَ مَكانَهُ ... وَلَو عَرفتِ فِي أَوجهِ الأنْجُمِ الزُّهرِ
وَليتَهم واروهُ بَيْنَ جَوانِحي ... على فَيْضِ دَمْعي وَاحتِدامِ لَظى صَدرِي

---

(١) ابن جبير، (١٩٩١). **شعر ابن جبير**. (جمع وتحقيق فوزي الخطبا)، عمّان: منشورات دار الينابيع للنشر والتوزيع، ص٣٣.

(٢) عباس، إحسان، (٢٠٠١). **دراسة في الرحالة ابن جبير الأندلسي البلنسي الكناني، وآثاره الشعرية والنثرية**. (ط١)، بيروت: دار الغرب الإسلامي، ص١٧ وما بعدها .

(٣) الأعمى التطيلي: هو أحمد بن عبد الله بن أبي هريرة القيسي، شاعر مجيد، وناثر بارع، لم يعمر طويلاً، توفي سنة (٥٢٥هـ). انظر ترجمته في: الضبي، **بغية الملتمس**. ج١، ص٢٣٤. وفي المغرب لابن سعيد، ج٢، ص٤٥١.

(٤) أبو حسين، محمد صبحي، **صورة المرأة في الأدب الاندلسي" في عصر الطوائف والمرابطين**"،ص١٧٥.

(٥) التطيلي، الأعمى، (ت: ٥٢٥/١١٣٠م). **ديوان الأعمى التطيلي**. (تحقيق إحسان عباس)، (ط١)، بيروت: دار الثقافة، ص٧٠، وانظر: الأسعد، عمر، (١٩٩٥). **ديوان رثاء الأزواج في الشعر العربي**. (ط١)، بيروت- سبيل الرشاد، ص١٣٥.

وكذلك نجد في هذه القصيدة أن التعبير الفني الصادق قد جعلها تفرض وجودها على المتلقي، فلا يملك من يقرأ هذه الأبيات إلا أن يترحم على تلك الزوجة، التي لو لم تكن كذلك لما كان لها أكبر الأثر في نفس التطيلي، هذا مع العلم أن التطيلي "شديد التمثل لما يريد أن يقوله، بارع في استقصاء كثير من معاني الحزن الخفية"(١)، يقول(٢):

أَمُخْبِـرَتِي كَيـفَ اسـتَقَرَّتْ بِـكِ النّـوى | عَلـى أَنَّ عِنْـدي مـا يَزيـدُ عَلـى الخُبْـر
وَمـا فَعلَـت تِلـكَ المَحاسِـنُ فـي الثَّـرَى | فَقَـد سـاءَ ظَنّـي بَـينَ أَدري وَلا أَدري
يُهَـوِّنُ وَجـدي أَنَّ وَجهَـكِ زَهْـرةٌ | وَأَنَّ ثراهـا مِـنْ دُمُـوعي علـى ذِكْـرِ
وَيَحْـزُنني أَنّـي شُـغلْتُ وَلَم أكُـنْ | أُسَـائلُ عَمَّـا يَفعَـل الـدَّمعُ بِـالزَّهْر
دَعِـيني أُعَلِّـل فيـكِ نَفسِـيَ بِـالمُنَى | فَقَـد خِفْـتُ أَلاَّ نَلتَقـي آخِـرَ الـدَّهرِ
وَأَحْـلامُ مَـذعورِ الكَـرَى كُلّمَـا اجْتلَـى | سُـروراً رآهُ وَهـو فـي صُـورَةِ الـذُّعْر

فالتطيلي في الأبيات السابقة، يتساءل بحسرة وألم عن المكان الذي استقرت فيه تلك الزوجة الغالية، وهو "القبر"، ويبين أن ما عنده يزيد على الخبر، فهو يعلم أن "آمنة" لن تعود إليه بعد أن بعدت وشطت إلى غير رجعة، ثم يتساءل عن محاسن المرثية، وما ستؤول إليه بعد أن يغيّرها التراب، وتتحلل في حفرة لا أنيس فيها إلا العمل الصالح. وبعد ذلك يشبّه وجه المرثية بالزهرة، وهو يروِّي هذه الزهرة من دموعه وتذكره، ووجده وألمه، ثم ترتفع وتيرة الحزن عند الشاعر متسائلاً: "ماذا يفعل الدمع بالزهر"، وبعد ذلك يخاطب التطيلي نفسه، ويعللها بالأماني التي لم يعد يملك سواها، فالشاعر هنا يعيش على الذكرى المتبقية من تلك الزوجة المخلصة، ونلحظ أن الشاعر لا يكاد يفلت من ذكرى الموت، والغياب إلا عاد ليتذكره مرةً أخرى.

وفي البيت الأخير يصوّر الشاعر نفسه مذعوراً؛ فكأني بالشاعر وهو يحاول أن يقنع نفسه ولو في عالم الأحلام أن ما يعيشه وهماً، وأن زوجته ما زالت بجانبه تحبه، وتلاطفه وتحنو عليه، ولكن هذا "السرور الوهمي" لا يلبث أن ينفك، ويزول عندما يعود الشاعر إلى صوابه، ويرى أمامه الحقيقة المرّة، وهي الموت الذي اختطف زوجته وأبقى الزوج وحيداً كفيفاً في هذه الدنيا.

---

(١)عباس، إحسان، **تاريخ الأدب الأندلسي في عصر الطوائف والمرابطين**، ص١٢٣.

(٢)التطيلي، الأعمى، **ديوان الأعمى التطيلي**، ص٧٠، الأسعد، عمر، ديوان رثاء الأزواج في الشعر العربي، ص١٣٥.

ثم يخاطب التطيلي زوجته مصرحاً باسمها "آمنة" مرتين مستخدماً أداة النداء الهمزة، التي تستخدم للقريب، وهي لا شك قريبة من نفسه، ولكنها بعيدة عنه من حيث المكان، ويرسم حواراً جميلاً، يبين فيه مكانة هذه الزوجة، التي لم يبق له منها إلا الذكرى الجميلة، يقول(١):

أآمِـــــنَ إنْ أجْـــــزَعْ عَليـــــكِ فَـــــإنَّني ... رُزِئتُكِ أَحْلـــى مِـــنْ شَـــبابِي وَمِـــنْ وَفـــرِي
أآمِـــــنَ لا وَاللهِ مَـــــا زِلـــــتُ مُوقِنـــــا ... بِبَينِـــكِ لَـــو أَنِّـــي أَخَـــذْتُ لَـــهُ حِـــذْرِي
وَلَـــمْ يَبْـــقَ إِلاَّ ذِكْـــرَةٌ رُبَّمَـــا امتَـــرت ... بَقِيَّةَ دَمعِ الـــشَّوقِ فِـــي أكُـــؤُوسِ الخَتـــرِ(٢)

وبعد أن تيقن التطيلي أن زوجته قد سكنت بجوار رب رحيم، عاد ليصف لوعته، وحسرته، مقسماً بالله، مشبّهاً نفسه بالسكران الذي ثَمِلَ ولم يقوَ على الحركة، فصارت معاطفه تهتز، وكأنه يترنح يميناً وشمالاً، هذا مع العلم أنه جسمه قد أصابه الفتور والكلال والضعف مع علة العمى، يصف ذلك قائلاً(٣):

وأمَّـــــا أَنَـــــا فَالتَعْـــــتُ وَاللهِ لَوعَـــــةً ... هِيَ الخَمْرُ لَوْ سَـــامَحْتِ فِـــي لَـــذَّةِ الـــسُّكْرِ
أَهُـــزُّ لَهَـــا عِطْفَـــيَّ مِـــن غَيْـــرِ نَـــشْوَةٍ ... عَلَى ما بِجِـــسمِي مِـــنْ كَـــلالٍ وَمِـــنْ فَتْـــرِ

ويستعين الشاعر بالألفاظ التي يتداولها شعراء الرثاء من مشارقة ومغاربة – "لا تبعد ولا تبعدي"، ونلاحظ هنا تأثر التطيلي كغيره من شعراء الأندلس بكبار شعراء الرثاء في المشرق العربي، ويحضرني في هذا المقام ما قاله مالك بن الريب في رثائه نفسه مستخدماً "لا تبعد" فهذه الكلمة تحمل دلالة البعد، يقول مالك(٤):

يَقُولـــونَ لا تَبْعـــد وَهُـــم يَـــدفنونَنِي ... وَأَيُّ مَكَـــانِ البُعْـــدِ إلاَّ مَكانِيَـــا

ويخاطب التطيلي زوجته، مستخدماً "لا تبعدي" مرتين(٥):

فَـــلا تَبْعُـــدِي إنَّ الـــصَّبابَةَ خُطَّـــةٌ ... لِشَخْصِكِ فِي قَلْبِـــي وَإنْ كَـــانَ فِـــي القَبْـــرِ

---

(١) التطيلي، الأعمى، **الديوان**، ص٧٠؛ الأسعد، عمر، **ديوان رثاء الأزواج**، ص١٣٥.

(٢) الاسترخاء والضعف لما أصابه.

(٣) التطيلي، الأعمى، **الديوان**، ص٧١، الأسعد، عمر، **ديوان رثاء الأزواج**، ص١٣٧.

(٤) الطاووسي، محمد إبراهيم، (١٩٩٨). **رمز الفقد في يائية مالك بن الريب: دراسة نصية**. القاهرة: مكتبة زهرة الشرق، ص٩.

(٥) التطيلي، **الديوان**، ص٧١، الأسعد، عمر، **ديوان رثاء الأزواج**، ص١٣٨.

ولا تَبْعَـــدِي إنِّـــي عَلَيْـــكِ لَوَاجِـــدٌ   وَلكِنْ عَلى قَـدرِ الهَـوَى لا عَلَـى قَـدْرِي

ولا ينسى التطيلي أن يعلق بلطف على ما أصابه من شقاء بسبب العمى، ونلاحظ هنا كم كان هذا الشاعر لطيفاً في معرض الحديث عن عماه طالباً المزيد من البواكي لتلك الزوجة الغالية، يقول[١]:

وَمَـنْ لِـي بِعَـيْنٍ تَحْمِـلُ الـدَّمْع كلَـهُ   فَأَبْكِيْـكِ وَحْـدِي لا أقَـرُّ وَلا أَدْرِي
وَلِـي مُقْلَـةٌ أَفْـضَتْ بِهـا لحظَاتُهـا   إلَـى عَبَـراتٍ جَمّـةٍ وَكَـرىً نَـزْرْ
وَكَـانَ حَرامـاً أَن تَجُـودَ بِدمعَـةٍ   وَقَـد تَرَكتـهَا الحَادثـاتُ بِـلا شَـفر

وما إن يبدأ التطيلي بذكر شقائه وعماه، حتى يعنَّ على باله حقيقته الحزينة، فلعمري كأن زوجته كانت عينه التي يبصر بها "ففقد الزوجة في أي بيئة، فاجعة تصيب الإنسان عزيزَه، وتفقده أليفه ولكنه في الأندلس يتميز بلوعة أشد لضياع السكن الذي كان يأوي إليه في حياةٍ سادها القلق والاضطراب"[٢]، يقول التطيلي واصفاً أثر بعد زوجته[٣]:

أتَمْـضِي اللَّيَـالِي لا أَراكِ وَرُبَّمـا   عَدتنِي العَوادِي عَـن طِلابِـكِ فِـي الحَـشْرِ
فَلِـي عَزمَـةٌ لَـو خِفتُهَـا لَـسبَقتُها   إلَيـكِ وَلَـو بَـيْنَ الـسَّماكينِ والنَّـسرِ

ويتساءل الشاعر بلطف عن معاطف المرثية، ، وعن جيدها الذي صار خالياً من الحلي، وهل ستعود كسابق عهدها.

ومن حسن التعليل الذي جاء به الشاعر في مرثيته طلبه من الزوجة أن تجعل الدمع مكان الدر الذي حرمت منه ، فيقول في ذلك [٤]:

وَهَـل لَعبـتْ تِلـكَ المَعـاطِفُ بِـالنُّهى   كَـسالفِ عَهـدي فِـي مجَاسِـدها الحُمْـرِ
ونبئْـتُ ذاكَ الجِيـدَ أَصْـبحَ عَـاطِلاً   خُذي أَدْمُعي إن كُنتِ غَـضبي علـى الـدُّرِ
خُـذي فانْظُميهـا فَهـي كالـدُّرِّ إنَّـنِي   أَرى عِلَّـتي أورَى بهَـا وهـي كـالجَمْرِ

---

(١) التطيلي، الأعمى، **الديوان**، ص٧١؛ الأسعد، عمر، **ديوان رثاء الأزواج**، ص١٣٨.

(٢) شلبي، سعد إسماعيل، **البيئة الأندلسية وأثرها في الشعر**، القاهرة: دار نهضة مصر للطباعة والنشر، ص٤٥٦.

(٣) التطيلي، الأعمى، **الديوان**، ص٧٢؛ الأسعد، عمر، **ديوان رثاء الأزواج**، ص١٤٠.

(٤)المصدران السابقان، ص١٤٢.

ويهنئ التطيلي القبر الذي ضمَّ جسد زوجته، واضعاً معنىً جميلاً، فهو لا يخشى التراب على التبر، فهي فيه رغم البلى والتقادم، وستبقى كالغصن في الورق النضر. يقول(١):

بِرَغْمِـــيَ خُلّـــي بَـــيْنَ جِـــسْمِك وَالثَّـــرَى ... وَإنْ كُنْتُ لا أَخْـشَى التُّـرابَ علـى التِبْـرِ
هَنِيْئـــاً لِقَبْـــرٍ ضَـــمَّ جِـــسْمَكَ إنَّـــهُ ... مَقَـــرُّ الحَيَـــا أَو هالَـــةُ القَمَـــرِ البـــدرِ
وإنَّـــكَ فِيْـــهِ كُلَّمَـــا عَبَـــثَ البِلَـــى ... بأَرجائـــهِ كالغُـــصْنِ فِـــي الـــورقِ النَّـــضِرِ

وينهي التطيلي قصيدته طالباً من زوجته أن تطلبه معها في جنات عدن، ويطلب منها أيضاً ألا تلومه إن تأخر قليلاً بسبب ثقل وزره، وقد يدل ذلك على أن المرثية كانت قائمة بالطاعات مؤدية الواجبات ، ذات خلق ودين، يقول(٢):

إذا جِئْـــتِ عَـــدنا فَاطْلُبِينَـــا فَقَلَّمَـــا ... تَقَـــدَّمتِنِي إلا مَـــشَيْتُ عَلَـــى الإثْـــرِ
وَلا تَعْـــذُلِيني إنْ أَقَمْـــتُ فَرُبَّمَـــا ... تَـــأَخَّرَ بِـــي سَـــعْيِي وَأَثْقَلَنِـــي وِزْرِي

وهكذا نرى أن التطيلي رسم صورة واضحة لتلك الزوجة، التي انعكس حبه ووفاؤه لها بهذه القصيدة التي تمثل حب الأندلسيين لزوجاتهم، ويظهر فيها ما كان للزوجة من مكانة عظيمة في تلك الفترة.

وأيضاً فقد رثى ابن حمديس زوجته أم ولديه، أبي بكر وعمر، وجعل قصيدته على لسان ابنه عمر مخاطباً أخاه أبا بكر، مبيناً عظم المصاب الذي حل بهما بسبب وفاة الأم البرّة الرحيمة، وقد يكون ذلك مخافة اللوم، أو الحياء، يقول(٣):

أَيّ خَطْـــبٍ عَـــنْ قَوسِـــهِ المَـــوتُ يَرْمِـــي ... وَسِـــــهامٌ تُـــــصيبُ مِنْـــــهُ فَتُـــــصْمِي
يُـــسْرِعُ الحَـــيّ فِـــي الحَيَـــاة بِبُـــرءٍ ... ثُـــــمَّ يُفـــــضي إلى المَمـــــاتِ بِـــــسُقْمِ
كَـــمْ رَأَينَـــا وكَـــم سَـــمِعنا المَنَايَـــا ... غَـــيرَ أنّ الهَـــوى يُـــصمّ ويعمـــي
أَيْـــنَ مَـــنْ عَمَّـــرَ اليَبَـــابَ، وَجِيـــلٌ ... لَـــبِسَ الـــدَّهرَ مـــن جَـــديس وَطَـــسم

---

(١)التطيلي، الأعمى، **الديوان**، ص٧٢؛ الأسعد، عمر، **ديوان رثاء الأزواج**، ص٧٢؛ ص١٤١.

(٢) المصدران السابقان، ص٧٣، ص١٤٣.

(٣) ابن حمديس، **الديوان**، ص٤٧٧.

وبعد أن ضرب ابن حمديس أروع الأمثلة في الموت وفتكته معتبراً بالأمم السابقة الذين عمروا الأرض، وكانوا أولي بأس وقوة كجديس وطسم، عاد لابنه عمر، وهو يخاطب أخاه مبيناً أنه لن يفي أمه حقها من البكاء، ولو استبدل دموعه دماً، فهي الأم التي إن فقدت تبقى حسرتها في القلب، وهو في هذا متأثرٌ بالقرآن الكريم في قوله تعالى: ﴿وَوَصَّيْنَا الإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُ وَهْناً عَلَى وَهْنٍ وَفِصَالُهُ فِي عَامَيْنِ أَنِ اشْكُرْ لِي وَلِوَالِدَيْكَ إِلَيَّ الْمَصِيرُ﴾[١]، و في قوله تعالى أيضاً: ﴿وَوَصَّيْنَا الإنسَانَ بِوَالِدَيهِ إِحْسَاناً حَمَلَتْهُ أُمُّهُ كُرْهاً وَوَضَعَتْهُ كُرْهاً وَحَمْلُهُ وَفِصَالُهُ ثَلاثونَ شَهْراً ... ﴾[٢] يقول في ذلك[٣]:

لَـــو بَكَـــى نَـــاظِري بِـــصَوبِ دِمَـــاءٍ ... مَـــا وَفى فِـــي الأسَـــى بِحَـــسْرَةِ أمِّـــي
مَـــنْ تَوَسّـــدْتُ فِي حَـــشايا حَـــشَاها ... وَارْتَـــدَى اللَّحْـــمَ فِيـــهِ والجِلـــدَ عَظْمِـــي
وضـــعتني كُرْهـــاً كَمَـــا حَمَلَتْنِـــي ... وَجَـــرَى ثَـــدْيُها بِـــشُرْبِي وَطُعمِـــي

ولا يُغْفِلُ حَنان الأم ويشبهه بالناقة التي تدر على ولدها بعد أن تعرفه من رائحته، يقول في ذلك [٤]:

بِحَنَـــانٍ كَأَنَّهَـــا فِـــي رِضَـــاعِي ... أمّ سَـــقْبٍ دَرَّتْ عَليـــهِ بِـــشمِّ

ويواصل البكاء بالبكاء، ويعد ذلك وفاءً للمرثية، ويلتفت الشاعر مرةً أخرى إلى بناته مصوّراً حزنهن على أمهن، راسماً صورةً حسية لتلك الفتيات وهن يبكين منتحبات يلطمن الخدود، ويضربن الوجوه ، فقد كدرت المصيبة حياتهن ، وتحول عيشهن الهنيء إلى غصص متواصلة ، وتحولت الوجوه الجميلة النضرة إلى سوداء قاتمة فهُنَّ متفجعاتٌ، لا حول لهن ولا قوة، يقول[٥]:

وَلَـــو انِّـــي كَفَفْـــتُ دَمْعِـــي عَلَيهـــا ... عقَّـــنِي بِرُّهَـــا فَأَصْـــبَحَ خَـــصمِي
وبنـــاتٌ عليـــك منتحبـــاتٌ ... بخـــدودٍ مخـــدّرات بلطـــمِ
بِـــتْنَ يَمـــسحْن منـــكِ وجهـــاً كريمـــاً ... بوجـــوهٍ مـــن المـــصيبةِ قُـــتْمِ

(١) سورة لقمان، آية١٤ .
(٢) سورة الأحقاف، آية ١٤.
(٣) ابن حمديس، **الديوان**، ص٤٧٨.
(٤) المصدر نفسه، ص٤٧٨.
(٥)المصدر نفسه، ص٤٧٩.

وينـــــــــادينَ بــــــــــالتّفجّعِ أمّـــــــــاً   يـــــا فـــــداءً لهـــــا إجابـــــةُ غـــــتمِ

ثم يصف الشاعر المرثية بالعفاف، والقيام بالطاعات، والدعاء المستجاب، وفعل الخيرات، ويقر أنها في الجنة مع الأبرار، يقول(١):

وَعَفـــافٌ لَـــو كَـــانَ فِـــي الأرْضِ عَـــادَتْ   كُـــلُّ عَظْـــمٍ مِـــن الـــدَّفينِ وَلَحْـــمِ
وَصِـــــيامٌ بِكُـــــلِّ مَطْلَـــــعِ شَـــــمْسٍ   وَقِيـــــامٌ بِكُـــــلِّ مَطْلَـــــعِ نَجْـــــمِ
فَأضَـــــاقتْ يَـــــدَاكِ مِـــــن صَـــــدَقاتٍ   كَـــــانَ يُحْيـــــا بِهِـــــنَّ مَيِّـــــتُ عُـــــدْمِ
أنـــــتِ فِـــــي جَنَـــــةٍ وَرَوضٍ نَعِـــــيمٍ   لَـــــمْ يَـــــسِمْ أرْضَـــــهَا الـــــسَّحابُ بِوَسْـــــمِ

وبعد ذلك يخاطب عمر أبا بكر، مبينا عظم المصيبة، وفداحة الخطب مبيّناً أيضاً حزن أبي بكر الذي يبكي "بكل سح وسجم"،فهما يشتركان بالمصيبة، يقول(٢):

يـــــا أبَـــــا بَكـــــرٍ: الْمُـــــصابُ عَظِـــــيمٌ   فَهُـــــوَ يُبْكِـــــي بِكُـــــلِّ سَـــــحٍّ وَسَـــــجْمِ
بَـــــاتَ مِـــــنْ طَبْعِـــــكَ الْمُفَجّـــــعِ طَبْعِـــــي   رُبَّ سَـــــهْمٍ أُعِـــــيرَ صَـــــارِمَ شَـــــهْمِي

وينهي القصيدة طالباً السقيا والرحمة للمرثية، يقول(٣):

فَـــــسَقَى التُّربَـــــةَ الَّتِـــــي هِـــــيَ فِيهَـــــا   عَـــــارِضٌ مِنْـــــهُ رَحْمَـــــةُ اللهِ تَهْمِـــــي
وَلِبِـــــسْتَ العَـــــزاءَ يـــــا خَيْـــــرَ فَـــــرْعٍ   قَـــــد بَكَـــــى حَـــــسْرةً عَلَـــــى خَيْـــــرِ جِـــــذْمِ

ومن الذين لهم قصائد في رثاء زوجاتهم، الشاعر ابن الأبّار القضاعي، الذي رثى زوجته بقصيدتين، جاءت الأولى في ستة أبيات، يظهر فيها اشتياق الشاعر إلى الثرى الذي دفنت فيه زوجته، ليلثمه وفاءً ، و يصور الشاعر فيما تبقّى من أبيات أرقه، وسهره، وتذكره لتلك التي اختطفها الموت منه، يقول(٤):

أحـــــنُّ إلى تُـــــرْبٍ ثـــــوى ســـــكناً بـــــه   فَألْثَمُـــــه شَـــــوْقاً لِمَـــــنْ وُسّـــــد الترْبـــــا
وأُطْبِـــــقُ أجفـــــاني أُحـــــاوِلُ غَفْـــــوَةً   فيَـــــأبى هُنـــــاك الهُـــــدب أن يـــــصِلَ الهُـــــدْبا
لَعَمْـــــري لَقَـــــد نـــــالَ الـــــرّدى مِنِّـــــيَ الـــــذي   أرادَ وخَلَّـــــى الـــــصَّبرَ مُقْتَـــــسماً نَهبـــــا

(١)ابن حمديس، **الديوان**،ص٤٨٠
(٢)المصدر نفسه ص٤٨٠.
(٣)المصدر نفسه، ص٤٨٠.
(٤) ابن الأبار، **الديوان**، ص٥٧.

أما القصيدة الثانية فقد كانت أكثر أبياتاً من الأولى، وجاءت في تسعة عشر بيتاً، وقد بيّن فيها الشاعر أن الليالي غدارة، تفجع الخل بالخل، فتفرّق شمل الملتئمين، ثم تمنى أن تكف سرور الوصل، أو حزن الهجر، يقول(١):

رُوَيْدَ الليالِي كَم تُصِرُّ عَلَى الغَدْرِ ... أتَجْهلُ إتلافَ النّفائِس أمْ تَدرِي
تَدبُّ بِفَجعِ الخِلِّ بالخِلِّ دَائِباً ... وتَسرِي لشتِّ الشَملِ في السرِّ والجَهرِ
فَيا لَيتَها والهَجْرُ مُودٍ بِوصْلِها ... كَفَتْنا سُرُورَ الوَصْلِ أو حَزنَ الهجرِ

وبعد ذلك يبين سبب حزنه، وثكله، ولوعة صدره، وهو غياب زوجته ورحيلها إلى غير عودة، إذ يقول(٢):

لَقد أَثْكَلَتْني خُلّةٌ ظَعَنَتْ بِها ... ولَكِن أَقامَتْ بعدَها لَوْعَةُ الصّدْرِ

ولا يستطيع الشاعر أن ينسى زوجته، فهو دائم التذكر لها، فالشمس والبدر يذكران الشاعر بتلك الغالية التي غابت شمسها ولن تشرق، يقول في ذلك(٣):

يُذَكِّرُ فيها الشَّمْسُ والبَدْرُ كُلّما ... رَميْتُ بلَحْظي طلْعَةَ الشَّمسِ والبَدْرِ

ومما يدلل على مكانة الزوجة الأندلسية ما اورده بنو القبطرنة(٤) في رثائهم زوجاتهم ، ومن ذلك ما قاله أبو محمد طلحة في زوجته "أم الفضل" في مقطوعته التي جاءت في أربعة أبيات ، ويظهر فيها حب الشاعر لزوجته، ويعاهدها على أن يبقى وفيا لها ، وكل مافي الدنيا

---

(١)ابن الأبار، **الديوان**، ص٢٠٩.
(٢) المصدر نفسه ، ص٢٠٩.
(٣) المصدر نفسه، ص٢٠٩.
(٤) بنو القبطُرنة :أصلهم من المولدين ، ولقب القبطرنة معناه الرأس المستدير الملتفت (إسباني معرب) .
وابناء القبطرنة ثلاثة أخوة من أهل قرطبة من ذوي الوجاهة والغنى والعلم والأدب. كانوا أصدقاء للفتح بن خاقان صاحب قلائد العقيان، انصرفوا إلى اللهو والخمر والنساء والصيد. وشعرهم وجداني عذب. (ديوان رثاء الأزواج' ص١٤٥، قلائد العقيانن ٢: ٤٢٩).

من ملذات كالخمر، والنساء الجميلات ، الرشيقات، اللائي ظهرت أوصافهن في المقطوعة لن يجعلن الشاعر ينسى أم الفضل ، إذ يقول[١]:

مـــعـــاذَ اللهِ أنْ أَسْـــلُـــو بِـــبـــدْرٍ وَأَنْ أَصْـــبُو إِلـــى كَـــأسٍ وَخَـــمْـــرِ

وَلا لأراكـــةٍ نـــهَـــضَتْ بِحِـــقْـــوٍ وَلا لـــرِوَادفٍ وَعَـــظيـــمِ خَـــصْـــرِ

ولا تُـــفَـــاحَـــةٍ طَـــلَـعَـــتْ بِـــخَـــدٍّ وَلا رُمَّـــانَـــةٍ نَـــبَتَـــت بِصَـــــدْرِ

وَأنْ أَلْـــهُـــو مِـــن الدُّنـــيـــا بِشَـــيءٍ وَأُمُّ الـــفَـــضْلِ ــ يـــا أَسَـــفَا ــ بِقَبْرِ

ولكن الشاعر يبدو متغزلا من خلال استعماله لألفاظ غزلية ، قد يكون مجيئها في الرثاء مأخذا عليه.

أما أبو بكر عبد العزيز ، فقد رثى زوجته "ابنة الحضرمي" بمقطوعة شعرية تقع في تسعة أبيات ، يظهر من خلالها دموعه التي تغلبه ، وهو يحاول أن يصبر نفسه ، يقول[٢] :

أدمـــعًـــا جَـــمُوحـــاً وَصَبْراً حَـــزُونا لَقَـــدْ جَمَـــعَ الحُـــزْنُ فيكِ الفُـــنُونَـــا

ثم يدعو الشاعر المخاطب أن يكون زاهدا في ملذات الدنيا التي لا يركن إليها . ومما يثبت صدق كلامه ، إصابته بابنة الحضرمي ، وهي زوج الشاعر التي أدمى مصابها جفونه،وكلم فؤاده ، وقد أودعت الترب ، وهي في ريعان شبابها ، وتوقد جمالها، وهذا ما يدل على أن الدنيا فانية ، ونعيمها لا يدوم كما يرى من خلال تجربته التي أفقدته زوجه والتي كانت بهجة الحياة ونعيمها ولذتها . يقول[٣]:

مُـــصَابٌ حَكَـــى فـــي ابنـــةِ الحَضْـــرمي مُصَابَ صَبيرةَ أَدْمَـــى الجُـــفُـــونـــا

وَلَـــفَّ الـــشـــبابَ بـــأرْواقِـــــــــهِ وأَوْدَعَـــهُ التُّـــــرْبَ غَضَّـــاً مَصـــونـــا

فأنـــــسْـــى بـــها نَضْـــرَةً واقتـــبالاً وَعَيشـــــا نَـــضـــــيرةَ والسّـــــاطِـــرونا

---

(١) الفتح ،قلائد العقيان،ص٤٣٤؛ الأسعد، عمر ، **ديوان رثاء الأزواج** ، ص١٤٧.

(٢) الأسعد، عمر ، **ديوان رثاء الأزواج**، ص١٥٠.

(٣) المصدر نفسه ، ص١٥٠.

ويظهر لنا مما سبق أن للزوجة عند الأندلسيين مكانةً كبيرةً ، ليس من السهل على أيٍّ منهم أن ينساها إذا ماتت ، فيعتاظ عنها بغيرها ، لذلك جأر الشعراء في ذلك الوقت ببكاء زوجاتهم وكتبوا فيهن أجمل رثائياتهم مسطرين في تلك الرثائيات الوفاء، لزوجاتهم اللواتي اخترمهن الموت ، وفقدهن الأزواجُ ، فكانوا صادقين في التعبير عن مشاعرهم ، وعواطفهم مخلصين لمن فقدوا.

ثالثاً: رثاء البنات:

حظيت البنت بمكانة متميزة في عصري المرابطين، والموحدين، وليس أدل على ذلك من وجود قصائد في رثاء البنات، وقد أجاد في هذا الجانب من الرثاء ابن حمديس الصقلي، الذي كان من أكثر شعراء الأندلس وفاءً لأهله(١)، فقد نظم في رثاء ابنته قصيدةً بلغت أبياتها أربعين بيتاً، وقد كان الشاعر يرى أنه أحق بالفناء من ابنته ، فقد تقدمت سنه ووهن عظمه ، فكيف للموت يعدو على ابنته ويتركه ، يقول(٢):

أَرَى المَــوتَ فِــي عَيْنَــي تَخيَّــل شَخْــصُهُ وَلِــي عُمْــرٌ فِــي مِثْلِــهِ يَتَّقِــي مِثلِــي

وَكَــادَتْ يَــدٌ مِنْــهُ تَــشُدُّ عَلَــى يَــدِي وَرِجلٌ لَــهُ بِــالقُرْبِ تَمْــشِي عَلَــى رِجلِــي

ويشير إلى تقدمه في السن؛ فقد كان عمره ثمانين عاماً عندما رثى ابنته، يقول(٣):

ثَمَــانُونَ عَامــاً عِــشتُها وَوَجــدتُهَا تُهــدِّمُ مَــا تَبْنِــي وَتَخْفِــضُ مَــنْ تُعلِــي

ويبدو أن الشاعر قد سئم من طول هذه الحياة(٤):

تَأَمَّلْــتُ فِي عَقْلِــي وَضَــعْفِي فَقُلْــتُ إذا سُئِلْتَ رَأَيْــتُ الــشَّيخَ فِــي عُمْــرِ الطِفــلِ

"...ومن المهم أن نشير هنا إلى قصة ابن حمديس مع ابنته، وذلك أنه قد نُعِي إلى ابنته خَبرُ وفاة أبيها ــ أي ابن حمديس ــ وهو لا يزال على قيد الحياة، فما إن وصلها النعي الكاذب، حتى لبست الحداد، وأقامت عليه مأتمه، وبكته، واشتد بكاؤها، حتى بكى لها الناس، وظلت محزونةً عليه حتى أدركتها منيتها ووالدها حي يرزق، يضرب في الأرض، ويسعى في مناكبها، ولا يعلم من قصة ابنته شيئاً، ثم يصله النبأ ويدركه الخبر فيتفطر حزناً عليها، ويستولي عليه أساه، وأسلمته الظنون إلى أن نعيه الكاذب عجّل إليها منيتها ، فتكاثرت عليه الأوهام، واستبدت به الآلام(٥)"، يقول في ذلك(٦):

أَتَــانِي نَعْــيٌّ عَنْــكِ أَذْكــى جَــوى الأَسَــى عَلَيَّ: اشتعالَ النَّــارِ فِــي الحَطَــبِ الجَــزْلِ

---

(١) انظر: شلبي، سعد، ابن حمديس، **حياته من شعره**، مكتبة غريب، ص١٦٥.
(٢) ابن حمديس، **الديوان**، ص٣٦٤.
(٣) المصدر نفسه، ص٣٦٤، ٣٦٥.
(٤) المصدر نفسه، ص٣٦٤، ٣٦٥.
(٥) شلبي، سعد ابن حمديس، **حياته من شعره.** ، ص١١٥.
(٦) ابن حمديس، **الديوان** ، ص٣٦٦.

وَجَـــاءكِ عَنِّـــي نَعـــيُ حَـــيّ فَلـــم يُجِـــزْ لَكِ الكُحْلَ فِيهِ مـــا لَبِـــستِ مِـــنَ الكُحْـــلِ
فَنُحْـــتِ عَلَـــى حَـــيٍّ أَمَـــاتَ شَـــبابَهُ زمـــانُ مَـــشِيْبٍ لا يُجَـــدّدُ مـــا يُبْلـــي

ويشير الشاعر إلى غربته وغربة ابنته، وذلك أنه غريب يبكي غريبة ، وكلاهما يتشوق للأهل والوطن ، ثم يشير إلى قصة ابنته التي ذكرناها سابقا ، ويفصل في تلك القصة التي يظهر فيها إخلاص المرثية لأبيها عندما وصل النبأ الكاذب إليها ، فقد أقامت على موته مأتما كما قيل له ، وأبكت عيون الناس ، وفي هذا دلالة على كثرة بكاء المرثية لأبيها عندما توهمت موته . يقول ابن حمديس في ذلك [١]:

أَرَانِـــي غَرِيبـــاً قَـــد بَكَيْـــتُ غريبَـــةً كِلانَـــا مَـــشوقٌ لِلمـــواطِنِ والأَهـــلِ
بَكتنِـــي وظَنَّـــتْ أنّـــني مـــتّ قَبلَـــها فَعشْتُ وَماتتْ ــ وَهيَ مَحزُونَـــةٌ ـــ قَبلـــي
أَقامـــتْ علـــى مَـــوتِي الَّـــذي قِيـــلَ مَأتَمـــاً وَأَبكـــتْ عُيـــونَ النَّـــاسِ بِالطَّـــلِّ وَالوبْـــلِ

ويشير ابن حمديس إلى المكان الذي تسكنه ابنته، وهو القبر، مبيناً أنه صار مكاناً للبرّ والديانة والفضل[٢]:

أَسَـــاكِنَةَ القَـــبرِ الَّـــذِي ضُـــمَّ قطْـــرُهُ عَلَـــى الـــبرِّ مِنـــها وَالدِّيانَـــةِ وَالفـــضلِ

وبعد ذلك يشير الشاعر إلى أن المرثية تركت خلفها بناتاً، يبكينها مصوّراً بناتها بأفراخ القطا، والموت نسراً اختطف أم تلك الفراخ، يقول[٣]:

وَخَلَّفْـــتِ فِـــي حِجْـــرِ الكآبَـــةِ لِلبُكَـــا بَنَـــاتٍ لأُمٍّ فِـــي مُفَارقَـــةِ الـــشَّمَلِ
يُـــرَيْنَ كَـــأَفْرَاخِ الحَمَامَـــةِ صَـــادَهَا أَبُـــو ملحَـــمٍ فِي وَكْـــرِهِ كَـــأَبِي الـــشِّبْلِ
بَكَتْـــكِ قَـــوَافِي الـــشِّعْرِ مِـــنْ غَـــزْرِ أَدْمُـــعٍ بُكاءَ الحَمـــامِ الـــوُرْقِ فِـــي قُـــضُبِ الأَثْـــلِ

ثم يدعو الشاعر لقبر ابنته بالسقيا ، ويتوجه بدعائه ضارعا إلى ربه أن يعفو عن عظيم زلاته ، وجهله ونقصه ، فيقول في ذلك [٤]:

فَـــرَوَّى ضَـــرِيحاً مِـــنْ كِفَـــاحٍ عَـــنْ الثَّـــرَى لَـــهُ وَابِـــلٌ بِالخَـــصْبِ مَـــا خُـــطّ بالمَحـــلِ

---

(١) ابن حمديس، **الديوان** ص٣٦٦.
(٢) المصدر نفسه، ص٣٦٦.
(٣) المصدر نفسه، ص٣٦٦، ٣٦٧.
(٤) المصدر نفسه، ص٣٦٧.

أَيَـــــا رَبِّ إنَّ الخَلْـــــقَ لا أَرْتَجِــــيْهُمُ فَكُـــــلٌّ ضَـــعِيْفٍ لا يُمِـــرُّ وَلا يُحْلِــي
بِحلْمِـــكَ تَعْفُـــو عَـــنْ تَعَـــاظُمِ زَلّتِـــي وَفَضْلِكَ عَنْ نَقْصِي وَحُلْمُـكَ عَـنْ جَهْلِـي

وقد رثى ابن عبد البر(١) ابنته، التي كانت المعادل الموضوعي لعينيه اللتين سملتا، ويظهر لنا أن ابنة الشاعر وحيدةً، ولا يجد الشاعر بداً من تسليم أمره لربه راضياً بحكمه وعدله ، فيقول في بيتين من الشعر (٢):

أَوَاحِـــدَتِي قَـــدْ كُنْـــتُ أَرْجُـــوكَ خِلفَـــةً لعَـــيْنيَّ أُختَيْـــكَ اللَّتَـــيْنِ سَـــبَا الـــدَّهْرُ
رَضِـــيتُ بِحُكْـــمِ اللهِ فيمَـــا أَصَـــابَنِي إِذا لَـــمْ يَكُـــنْ يُـــسرٌ فَيَـــا حَبَّـــذا العُـــسْرُ

ومن شعراء المرابطين من سئم الحياة، حتى إنه صوّر الموت رؤوفاً ساتراً، وكافياً، وقد يدل ذلك على أن الحال قد وصلت ببعض الأدباء درجةً من السوء، هان معها الموت الذي يتنزل بهم(٣):

أَلا يَـــا مَـــوتُ كُنْـــتَ بِنَـــا رَؤُوفـــاً فَجَـــدَّدتَ الحَيَـــاةَ لَنَـــا بِـــزَورَة
حَمَـــادِ لفِعْلِـــكَ المَـــشْكُورِ لَمَّـــا كَفَيْـــتَ مَؤُونَـــةً وَسَـــتَرَت عَـــورَة
فَأَنْكَحنَـــا الـــضَّرِيحَ بِـــلا صِـــداقٍ وَجَهَّزنَـــا الفَتَـــاةَ بِغَـــيرِ شَـــورَة

وعزّى أحمد بن شكيل أحد أصحابه في وفاة ابنة أخ له، فطلب من المُعزّى أن يصبر، مبيناً أن فقدان هذه البنية مصاب جلل. وقد جاءت القصيدة في عشرة أبيات، طلب فيها الشاعر من المعزى أن يتحلى بالصبر ، وأظهر في القصيدة أثر غياب تلك البنية على ذويها ، وأنها ما زالت بين الجوانح. يقول ابن شكيل معزّياً صديقه(٤):

صَـــبراً أَبـــا عَبْـــدِ الإِلَـــهِ عَـــنِ الَّـــتِي سَـــلَبَت جَميـــلَ الـــصَبرِ يَـــومَ تَوَلَّـــتِ
عَـــنْ دُرَّةٍ جَلَـــى الـــضَرِيْحُ جَمَالَهَـــا وَعَقيلَـــــةٍ بِالمَكرُمَـــــاتِ تَحَلَّـــــتِ
حُجِبَـــتْ بِتُـــرْبِ القَبْـــرِ عَـــنْ أَبْـــصَارِنَا لَكِنَّهَـــا بَـــينَ الجَـــوَانِحِ حَلَّـــتِ

---

(١) ابن عبد البر : محمد بن عبد البر، وكنيته أبو الوليد ، من أعيان شلب في الأندلس ، تعلم في إشبيلية، ونظم الشعر ، ثم تزهّد وانزوى ، صحب ابن قسي الثائر وقام بدعوته ، وتغلب على الملثمين ، ثم هزم وسملت عيناه ، وعندما دخل الموحدون باجة أطلقوا سراحه ، فرجع إلى شلب أعمى ، توفي بمدينة سلا المغربية . انظر ترجمته في : الحلة السيراء لابن الأبار ، ج٢، ص٢٠٨.
(٢) ابن الأبار، **الحلة السيراء**، ج٢، ص٢٠٨.
(٣) عبد الكريم، مصطفى، (١٩٦٨). **الأدب الأندلسي في عهد المرابطين**. الخرطوم: جامعة الخرطوم، ص٧٢.
(٤) أحمد بن شكيل، **الديوان**، ص٤٣.

وينهي القصيدة طالباً من صديقه أن يصبر، وهذه عادة الأحرار، فالموت لا مفر منه، والجميع تحت قبضته، يقول(١):

فَاصْبِرِ إنَّ الحُرَّ مَنْ إن تَدْعُهُ   لِلصَّبْرِ طابَتْ نَفْسُهُ وَتَسَلَّتِ
فَالَموتُ أَمْرٌ عَمَّ فِينَا حُكْمُهُ   خَضَعَت لِعزَّتِهِ الرِقابُ وَذَلَّتِ

وأيضاً فقد رثى الشاعر عبد الله بن علي بن أبي العباس ابنة أبي الحكم بن حسّون بقصيدة بلغت أبياتها ثمانيةً وعشرين بيتاً، وقد طلب الشاعر من ذوي المرثية أن يُسلّم أمره لله تعالى، وأن يلبس ثوب العزاء. وظل الشاعر يمدح ابن حسّون مبيناً ما له من فضائل منها الإمارة، والمعالي، والعوالي، والسيوف المشرقية، وغيرها، إلى أن يصل إلى الرثاء، فيقول(٢):

وَيظَلُّ يَسْجَعُ نَادِباً فَتَخالُهُ   نَوْحَ الحَمَامِ وَرَنَّةَ المَكَاءِ
وَاهاً لِرُوْحِ مَعَالِمٍ هَصْرِ الرَّدى   مِنْهُ بِمعطفٍ بائنٍ بسناءِ

ويفصل الشاعر حياة المرثية، وذلك من خلال رثائها، فيبين أنها كانت كالزهرة الحلوة ثم أن تلك الزهرة ذَبُلت فصارت إلى البلى، ومن العجيب أن من كان يرعاها، ويسندها إلى حجره هو من وضعها في قبرها. ثم يبين أن فقدات تلك البنية فاجعة أصابت قلب ذويها. يصف ذلك (٣):

وُلِدَت بِزَهْرةِ عِزَةٍ قَد حُلِّيَتْ   لُبَّاتُهَا بِطائرِ الأَضْواءِ
أَودَتْ فَأسلمها إلى دارِ البِلَى   مَنْ كانَ يُسندُها إلى الأَحْشَاءِ
يا فاجِعَ القلبِ الَّذي حَلَّ الحَيا   وَرَمَى حَصاةَ القَلْبِ بِالسَّرّداءِ

وينهي القصيدة كما هي العادة بطلب السقيا لثراها، فيقول(٤):

فَسَقى ثَراهَا مِنْ سُلالَةِ ماجِدٍ   وَدقٌ يَجُودُ بدمعَةٍ وَطفاءِ
وَغمامَةٍ سَحّ الصَّبا أَعَطافَهَا   تَستَفحِلُ الأَنْوارُ للأَنواءِ

وقد كان للقصيدة أثر عند ابن حسون، فقد ذكر صاحب أدباء مالقة أن القصيدة وقعت منه – أي ابن حسون – موقعاً عظيماً(١).

---

(١) أحمد بن شكيل، **الديوان**، ص٤٣.
(٢) ابن الخطيب، لسان الدين، (). **الإحاطة في أخبار غرناطة**. ج٣، ص٤٣٩.
(٣) المصدر نفسه . ج٣، ص٤٣٩.
(٤) المصدر نفسه . ج٣، ص٤٣٩.

رابعاً: رثاء الجدات:

تفرد في هذا النوع من الرثاء ابن شكيل الذي رثى جدته لأمه بقصيدة وصلت أبياتها إلى واحدٍ وعشرين بيتاً، يبين فيها وفاءه وحبه لجدته التي ذهبت إلى غير عودة، فيقول[٢]:

أَدَارَ البِلَــــى أَمـــا عَمَــــرْتِ بِمَعْـــشَرِي   فَأَنْـــتِ الَّـــذِي تُـــدعَيْنَ قَفْـــراً وَبَلقَعـــا
عَلَـــى كَثــرَةِ الأَهلَـــينَ أَو حَـــشتِ زائِـــراً   وَأَهَبــــتِ أَكبـــاداً وَأَجرَيـــتِ مَـــدمَعا

ويصور ابن شكيل الموت أنه يرمي فأخطأ السهمُ جثمانَه، وأصاب مهجتَه عندما اختطف جدته، وهنا يتضح لنا المكانة العظيمة التي تتبوأها الجدة عند الشاعر ، إذ يقول[٣]:

رَمَـــانِي الـــرِدَى قَـــصْداً فَأَقْـــصَدَ مُهْجَتِـــي   وَأَخطَـــأَ جُثمَـــانِي فَـــأَخْفى وَأَوْجَعَـــا

وبين أنه فرع للأصل الذي أصابه ذلك السهم، ويبكي نفسه لأنها فرع من أصل أودى به الردى، يقول في ذلك [٤]:

أُصِـــبتُ بِأَصِـــلٍ كُنـــتُ فَرعـــاً لِفَرعِـــهِ   وَشَـــأنُ الـــرَدى أَن يَهـــصِرَ العـــودَ أَجمَعـــا
فَنَفْـــسِي الَّتِـــي أَبْكِـــي وَإِنْ كُنْـــتُ باكِيـــاً   عَلَيهَـــا فَـــدَمْعِي قَـــد تَقَـــسَّمَ أَدمُعَـــا

ويصوِّر الشاعر المتوفاة، أجابت داعي المنون وفي هذا دلالة على أن المرثية كانت قائمة بالطاعات ، مستعدة للقاء ربها [٥]:

دَعَتْهَـــا المَنَايَـــا فاســـتَجابَتْ دُعاءهَـــا   سَريعاً وَداعِـــي المَـــوتِ أَسْـــرَعُ مَـــنْ دَعـــا

ثم يمدح الشاعر المتوفاة ، ويدعو لها بالرحمة ، ويبين حزنه وجزعه على الفقيدة ثم ينهي رثائيته مسلما عليها سلام امرئ أوجعه فقد عزيزه ، فيقول[٦]:

وَصَـــلّى عَلَيهـــا بِالَّـــذي هِـــيَ أَهلُـــهُ   فَـــإِنَّ ثَنـــائي طَـــابَ قـــيلاً وَمَـــسْمَعا
وَمـــا المَـــدْحُ وَالتَـــأبِينُ مِمَّـــا يَرُدُّهَـــا   وَلَكنَّـــهُ قَـــد صـــارَ مَبكَـــى وَمَجْزَعـــا
عَلَيْـــــكَ سَـــــلامٌ لا تَلاقـــــي بَيْنَنَـــــا   سَـــلامُ امـــرِئٍ أَمْـــسى بِفَقْـــدِكِ مُوْجَعـــا

---

(١) ابن خميس، **أدباء مالقة**، ص٢٢٣.
(٢) أحمد بن شكيل، **الديوان**، ص٦١.
(٣) المصدر نفسه، ص٦١.
(٤) المصدر نفسه، ص٦١.
(٥) المصدر نفسه، ص٦١.
(٦) المصدر نفسه، ص٦١.

خامساً: رثاء العمات:

رثى الشاعر ابن حمديس في واحدة من أكثر النصوص ندرةً فقد عمته التي توفيت بسفاقس، وكتب إلى ابن عمته أبي الحسن علي بن حسين بن أبي الدار الصقلي، مبيناً أن فقدان عمته مصاب جلل، وقد وصلت أبيات قصيدة ابن حمديس إلى أربعةٍ وخمسين بيتاً، يبدؤها بقوله[١]:

خطـــابُ الرَزايـــا إنَّـــهُ جَلَـــل الخَطْـــبِ ... وســـلْمُ المَنايـــا كَالخَديْعَـــة فـــي الحَـــرْبِ
تُرِيْـــدُ مـــنَ الأَيّـــام كَـــفَّ صُـــرُوفها ... أَمُنتَقِـــلٌ طَبْـــعُ الأَفَـــاعِي عَـــنِ اللَّـــسْبِ
وتَلْقَـــى المَنايـــا وَهِـــيَ فِـــي عَـــرَضِ المُنَـــى ... وَكَـــمْ أَجَـــلٍ لِلطَّيْـــرِ في مَلْقَـــطِ الحَـــبِّ

فالشاعر في الأبيات السابقة يبين فداحة الأمر، ويعرج على المنايا التي لا أمان لها ويصوّرها بالخديعة في الحرب، وهذا يدل على أن الموت قريب من الجميع، ثم يشبّه الأيام بالأفاعي التي لا تنفك عن اللدغ، ويعود للمنايا مشبّهاً لدغتها بالحَب الذي يكون سبباً في هلاك الطير.

ويبيّن الشاعر أن الله سينسف الجبال كما نسف الأرواح، وفي هذا نلاحظ تأثر الشاعر بقوله تعالى: ﴿**ويسألونك عن الجبال فقل ينسفها ربي نسفاً**﴾[٢]، فالشاعر يؤمن بالموت وبالبعث والحساب وفي هذا كله نلحظ ثقافة ابن حمديس الدينية وتأثره بالقرآن الكريم، يقول في ذلك[٣]:

سَيَنْـــسفُ أمْـــرُ اللّـــهِ شـــمَّ جِبَالِهـــا ... كَمَـــا تَنْـــسِفُ الأَروَاحُ مُنهَالَـــةَ الكَثـــبِ
لِكُـــلٍّ حَيـــاةٌ ثُـــمَّ مَـــوتٌ وَمَبْعَـــثٌ ... إِذا ما التَقـــى الخَـــصمانِ بَـــينَ يَـــدَيْ رَبِّـــي

---

(١) ابن حمديس، **الديوان**، ص٣٤.
(٢) سورة طه، آية ١٠٥.
(٣) ابن حمديس، **الديوان**، ص٣٥.

ويسأل الله أن يسقي قبر عمته الذي حل بسفاقس السحاب، ويبين الشاعر درجة القرابة بينه وبين المرثية، فهي عمته، ويصف حزنه الذي تمثل بالنواح والنحيب على المرثية، إذ يقول[(١)]:

سَقَى اللَّهُ قَبراً ثائراً بِسَفاقِسٍ ... سَواجِمَ يَرضى التُربُ فِيها عَنِ السحبِ
فَقَد عَمّةُ الإعظَامُ مِن قَبرِ عَمّةٍ ... أَنُوحُ عَليهَا بِالنَّحِيبِ إِلى النّحْبِ

ثم يبين أنها غريبة توفيت وغريبة دفنت، فيقول[(٢)]:

غَريبَةُ قَبْرٍ عَنْ قُبُورٍ بَأَرْضِها ... مُجاورَةٌ فِي خُطَّةِ الطَعْنِ وَالضَّرْبِ

ويفيض الشاعر في صفات المرثية ، ويذكر منها الكرم والتقوى، والصلاة والصوم، وأنها خير خلف لخير سلف، إذ يقول[(٣)]:

كَرِيْمَةُ تَقْوى في صَلاةٍ تُقيمُها ... وَصَوْمٍ يَحُطّ الجِسْمُ مِنْهُ عَلى الجَدْبِ
زَكَتْ فِي فُروعِ المَكْرُماتِ فروْعُها ... وَأَنْجَبَتِ الدُنيا بِآبائِها النُجْبِ

ويظهر هنا أن عمة الشاعر لها منزلة كبيرة، فقد أتخذها أماً رؤوماً، يفزع إلى صدرها الحنون، يبثه شكواه ويبوح له بآلامه، فتذهب عنه أساه وتشعره بحبها وحدبها عليه، فاطمأن إليها، فالتمس فيها شاعرنا حنان الجد وعطف الأب، ورأت فيه عمته قلب أخيها وذكراه، فأحبته وأقبلت عليه، وهذا الحب المتبادل[(٤)] هو الذي يشير إليه بقوله[(٥)]:

وَكُنْتُ إذا ما ضَاقَ صَدري بحادثٍ ... فَزَعْتُ بنَجواه إلى صَدرِها الرَّحْبِ
وَتُذهِبُ عَنِّي هَمَّ نَفسِي كَأَنَّها ... شَفَت غُلّةَ الظَمْآنِ بالبارِدِ العَذبِ
ضَمَمْتُ إِلى صَدري بِكَفّيّ جِسْمَهُ ... وَأَسَنَدْتُ مَخْضَرَّ الجَنَابِ إِلى الجَنْبِ

ويتمنى لو شاهد نعش عمته وحضر جنازتها، وشارك في دفنها[(٦)]:

---

(١)ابن حمديس، **الديوان** ، ص٣٥.
(٢) المصدر نفسه ص٣٦.
(٣) المصدر نفسه ، ص٣٦.
(٤) إسماعيل، سعد، **ابن حمديس حياته وشعره**، ص١٠٦.
(٥) ابن حمديس، **الديوان**، ص٣٦.
(٦) المصدر نفسه ، ص٣٧.

فَيـــا لَيْـــتَني شَـــاهَدْتُ نَعْـــشَكَ إذ مَـــشى حَواليَـــه: لا أَهلـــي حُفَـــاةً وَلا صَـــحبِي
وَدفْنَـــــكَ بالأَيـــــدي الغَريبـــــةِ والتَقَـــــت مَع المَوتِ في إخفاءِ شَخـصِكَ فـي حَـدبِ
فَأَبـــسُطُ خَـــدّي فَـــوقَ لَحْـــدِكَ رَحْمَـــةً وَتُـــسْفي عَلَيـــهِ التُـــرْبَ عَينـــايَ بالهَـــدبِ

ولا يتوانى شاعرنا أن يفدي عمته بروحه، لو أمكنه ذلك(١):

فَلَـــوْ أَنّ رُوْحِـــي كَـــانَ كَـــسْبِي وَهَبْتُـــهُ لِجسمك لَكنْ لَـيسَ رُوحـيَ مِـنْ كَـسْبِي

ويتوجه في آخر القصيدة إلى ابن عمته أبي الحسن معزياً له، فمصاب الشاعر من مصابه، وحزنه من حزنه، ويطلب منه أن يصبر طلباً للأجر، يقول في ذلك (٢):

أَبَـــا الحَـــسَنِ الأَيّـــامُ تَـــصْرَعُ بِـــالغِنَى وَتُعقِـــبُ بِـــالبَلوى وَتَخْـــدَعُ بالحـــبِّ
مُـــصَابُكَ فيهـــا مِـــن مُـــصابي وَجَدتـــهُ وَحُزنُكَ من حُزْنـي وَكَربُـكَ مِـن كرْبِـي
فَـــصَبْراً فلَـــيسَ الأَجْـــرُ إلاَّ لِـــصابرٍ عَلَى الدَّهرِ إنَّ الدَّهرَ لم يَخْـلُ مِـن خَطْـبِ
ألم تـــرَ أنّـــا في نـــوىً مُـــستمِرّةٍ نَـروحُ ونَغـدو كالمُـصرِّ علـى الـذّنْبِ

ويختتم قصيدته طالبا السقيا لعمته ، كما بكى عليها بدموع:

فَدائِمَـــةُ الـــسُّقيَا سَـــمَاءُ مَـــدامِعِي لِخَـدّي وَأَرْضُ الخَـدّ دائِمَـةُ الـشُّرْبِ

ويتبين لنا مما سبق أن شعراء الأندلس في عصر المرابطين والموحدين كانوا صادقين في رثاء أقاربهم ، فجاءت قصائدهم موّارة بالعاطفة ، صادقة في التعبير ، وقد عكست تلك الرثائيات عمق الأسى في نفوس شعراء الأندلس ، وهم يرون الموت يتخطف آباءهم، أو أبناءهم، أو إخوانهم ، أو زوجاتهم، أو أقاربهم الآخرين ، فخرجت تلك القصائد لتعبر عن عمق الأسى ، وفداحة الأمر ، وعظيم الخطب ، وجلل المصاب.

---

(١)ابن حمديس، **الديوان**، ص٣٧.
(٢)المصدر نفسه ، ص٣٧.

رثاء النفس والكتابة على شواهد القبور

المبحث الأول : رثاء النفس :

المبحث الثاني : الكتابة على شواهد القبور

المبحث الأول: رثاء النفس:

عُرف رثاء النفس منذ العصر الجاهلي، ويمتاز هذا الفن على قلة ما وصلنا منه بالصدق الفني، وهو من أكثر الفنون الرثائية تعبيراً عمّن يرى نفسه قد فارق الدنيا. وممن أجاد في هذا الغرض من الجاهليين، الشاعر بشر بن أبي خازم الأسدي[١]، الذي توجه في رثائه نفسه إلى مخطابة ابنته عميرة، قائلا [٢]:

أَسَـــائلَةٌ عُمَـــيرَةُ عَـــنْ أَبيْهـــا ... خـــلالَ الجـــيش تَعْتَـــرِفُ الركابَـــا
تُؤَمِّـــلُ أَنْ أَؤوبَ لَهـــا بنَهْـــب ... وَلَـــمْ تَعلَـــم بـــأَنَّ الـــسَّهمَ صَـــابا
فَـــإِنَّ أَبَـــاكِ قَـــد لاقـــى غُلامـــاً ... مِـــنَ الأَبْنَـــاءِ يَلتـــهِبُ التـــهابَا
وإِنَّ الـــوائليَّ أَصَـــابَ قَلْـــبي ... بِـــسَهْمٍ لَـــمْ يَكُـــنْ يُكْـــسَى لُغَابَـــا

ويمثل مالك بن الريب[٣] من شعراء صدر الإسلام في تجربةٍ حيةٍ محاورها المرضُ والفقدُ والأجلُ[٤]، رثاءَ النفس في أبياته المشهورة التي يبدؤها بقوله[٥]:

أَلا لَيْـــتَ شِـــعْرِي هَـــلْ أَبيـــتَنَّ لَيلَـــةً ... بِجَنْبِ الغَـــضا أُزْجِـــي القـــلاصَ النَواجِيَـــا
فليتَ الغَـــضَى لَـــم يَقْطَـــعِ الرَّكْـــبُ عرضـــه ... وَلَيْـــتَ الغَـــضَى مَاشَـــى الرِّكَـــابَ لَيَاليَـــا

وتمثل قصيدة مالك هذا الفن أحسن تمثيل في عصر صدر الإسلام في المشرق العربي.

أما في الأندلس ، فقد أبدع في هذا اللون من الرثاء المعتمد بن عباد الذي كان لمحنته أكبر الأثر في تفجير قريحته، وإخراج ما يكمن في نفسه من مشاعر برز أكثرها في غرض الرثاء، "وتمتاز رثائيات المعتمد بأن سادتها نبرات الحزن و التفجع والكآبة والتوجع ، ولا يغرب

---

(١) بشر بن أبي خازم: هو شاعر جاهلي من بني أسد، ثم من بني والبة بن الحارث بن ثعلبة منهم، أدرك عهد أبي قابوس النعمان بن المنذر، من ملوك الحيرة، وأدرك أيضاً حروب الفجار التي جرت في جزيرة العرب قبيل ظهور الإسلام (مقدمة الديوان، ص١٨).

(٢) الأسدي، بشر بن أبي خازم، (١٩٧٢). **الديوان**. (تحقيق: عزة حسن)، (ط٢)، دمشق: منشورات وزارة الثقافة، ص٢٤، ٢٥.

(٣) مالك بن الريب، من شعراء الدولة الأموية الذين جودوا الشعر، وأحسنوا فيه بإجماع نقاد الأدب ودارسيه، وهو من "مازن"، أحد بطون قبيلة "تميم" التي هي إحدى قبائل نجد، وقد اشتهر قوم مالك بالبأس والنجدة. الطاووس، محمد إبراهيم، (١٩٩٨). **مالك بن الريب دراسة نقدية**. القاهرة: مكتبة زهراء الشرق، ص٦١.

(٤) الطاووس، محمد إبراهيم، **مالك بن الريب دراسة نقدية**، ص٩.

(٥) المصدر نفسه، ص٩.

إذا ما انفجر إلهام الشاعر واتقدت قريحته إثر المآسي والآلام . وقديما قال الشاعر الفرنسي موساي: "الإنسان متعلم، والألم معلمه"(١). .

وقد رثى المعتمد نفسه بغير قصيدة، ومن الأمثلة هذه المقطوعة التي نظمها عندما رأى سرباً من القطا، فراح يعقد مقارنة بينه وبين القطا، فهو مكبل بالقيود سجين أسير، في حين أن سرب القطا حرٌ طليقٌ، ومع ذلك فهو يحاذر أن يحسد القطا على حريتها ، فالحسد ليس من صفات الأحرار أمثال المعتمد، فكيف وإن كان ملكاً؟ يقول المعتمد(٢):

بَكَيْتُ إِلَى سِرْبِ القَطا إِذ مَرَرْنَ بِي ... سَوارِحَ لا سِجْنٌ يَعُوقُ وَلا كبلُ
وَلَمْ تَكُ، وَاللَهُ المُعيذُ، حَسَادةً ... وَلَكِنْ حَنيْناً إِنَّ شَكْلِي لَها شَكْلُ

فالقطا فيما سبق يمثل المعادل الموضوعي للحرية المسلوبة من الشاعر ، وهي حلم بعيد يتمناه الشاعر، ويتغنى به في أشعاره على قيثارته الحزينة. ويستطرد في وصف محاسن الحرية التي من أهمها جمع الشمل، والاجتماع مع الأهل ، وكف العينين عن البكاء. وقد عاد الشاعر مرة أخرى إلى القطا في قوله" هنيئا لها" ، و يظهر في هذا العود حزناً عميقاً، وأسىً مريراً ينتاب الشاعر إذا رأى القطا ، وهي حرة طليقة ، مجتمعة الشمل ، لم تذق مرارة البعد عن الأهل، ولا تخشى بطش السجان (٣):

فأسْرَح فَلا شَملي صَديعٌ وَلا الحَشا ... وَجيعٌ وَلا عَيناي يُبكيهما ثَكلُ
هَنيئاً لَها أَن لَم يُفَرّقْ جَميعُهَا ... وَلا ذاقَ مِنها البُعْدَ عَن أَهلِها أَهْلُ
وَأَنْ لَمْ تَبِتْ مِثْلي تَطيرُ قُلوبُها ... إِذا اهتَزَّ بابُ السِّجنِ أَو صلصَلَ القُفْلُ

وبعد أن بيَّن المعتمد ما يعانيه، وما يشعر به، صار يتمنى الموت ، ويتشوق لرؤيته ، فهو أفضل ممَّا يعانيه من الذل والهوان ، بعد الملك والسلطان . فها هو يرزح تحت القيود ، ويُغْلَق دونه باب السجن ،وقد فقد حريته ، وأصبح السجين الذليل الذي يتحكم فيه أخس الناس

---

(١) المعتمد بن عباد، **الديوان** ، (مقدمة التحقيق) ، ص١٤.
(٢) المعتمد، ابن عباد، **الديوان**، ص١٨٧.
(٣) المصدر نفسه، ص١٨٧.

لذا يتمنى الموت ويرجو لقاءه ، لعله يخلص من هذا الألم الذي هو فيه ، لأنه يستشعر الموت كل يوم ذلة وضعة ، ويرى أن خلاصه في الموت (١):

لَنفـــسي إلى لُقيـــا الحِمَـــامِ تَـــشَوُّفٌ ... سِوايَ يُحِـبُّ العَـيشَ فِـي سَـاقِه كَبْـلُ
أَلا عَـــصَمَ اللَـــهُ القَطـــا فِـــي فِراخِهَـــا ... فَـــإِنَّ فِرَاخِـــي خانَهَـــا المَـــاءُ وَالظِـــلُّ

أما ابن خفاجة فيعد من أهم الشعراء الذين تأمّلوا في ما مضى من أعمارهم، و كان لسن الستين أثرٌ في في رثائه لنفسه ، متمثلاً حديث النبي (ﷺ): **(عمر أمتي من ستين سنة إلى سبعين { سنة})**(٢)، وقوله (ﷺ) في حديث ثانٍ: **(من عمَّره الله ستين سنةً فقد أعذر الله إليه في العمر)**(٣).

ويتوجه ابن خفاجة في رثائه نفسه إلى الطبيعة، التي عادة ما يجد فيها الشاعر الملاذ لما يزدحم في نفسه من أفكار، وما يغرق فيه من تأملات، وما يعانيه من قلق وألم، لما انصرم من أيامٍ، ومضى من العمر. يقول(٤):

أَلا سَـــاجِل دمُـــوعِي يَـــا غَمَـــامُ ... وَطَـــارِحني بِـــشَجوِكَ يَـــا حَمَـــامُ
فَقَـــد وفَّيتُهـــا سِـــتِّينَ حَـــولاً ... وَنَـــادتني وَرائِـــي هَـــل أَمَـــامُ؟
فـــيا شـــرخَ الشـــباب ألا لـــقاءٌ ... يُـبَـــلُّ بـــهِ عـلـى بـــرحٍ أوام
ويـــا ظـــلَّ الشـــبابِ وكُنـــتَ تَنْدى ... عـــلى أفـياء سـرحتكَ السّـــلامُ

ويصف ابن خفاجة ما يعتريه من تصورات ومشاهد في هذه الساعات التي يتأمل فيها حقيقته في رسالته التي بيّن فيها مناسبة القصيدة قائلاً: "...فما كان إلا أن صرخت عويلاً، وانتحبت طويلاً، حتى أيقظت من كان إلى جانبي ضجيعاً، وزدت فكدْتُ أحيل الدمع نجيعاً وحق لمن شاهد تضعضع أركانه، وتداعى بنيانه، وذهاب خلانه، وإدبار عمره وزمانه، أن يطرق هنالك فكرةً، ويملأ جفنيه عبرةً، ويرد الأسف جمرةً، حتى يذوب كمداً أو يقضي حسرةً"(٥).

ومن أهم قصائد ابن خفاجة في رثائه نفسه واعتباره، "قصيدة الجبل"، وفيها يقدم فلسفة الحياة والموت، وقد اتخذ من الجبل ذريعةً لرثاء نفسه. ويرى الدكتور مقداد رحيم أن ابن

---

(١) المعتمد، ابن عباد، **الديوان**، ص١٨٨.
(٢) سنن الترمذي: رقم ٢٣٣١.
(٣) مسند أحمد: رقم ٩٣٦٢.
(٤) ابن خفاجة، **الديوان**، ص٦٤.
(٥) المصدر نفسه ، ص٦٥.

خفاجة لم يكن يقصد وصف الجبل وصفاً مجرداً كما اعتاد الشعراء أن يصفوا عناصر الطبيعة، بل اتخذ من الجبل معادلاً موضوعياً لشخصه، فلم يكن الجبل سوى ابن خفاجة نفسه[١]. فهو في لحظة من لحظات التأمل والركون إلى النفس جعل يحدّث نفسه، يقول واصفاً ذلك[٢]:

بَعَيْشكَ هَل تَدرِي أَهْوجُ الجَنائبِ ... تَخُبُّ بِرَحلي أَمْ ظُهُورُ النَجائبِ
فَما لُحْتُ في أُولَى المَشارِقِ كَوكَباً ... فَأَشرَقتُ حَتَّى جِبتُ أُخرى المَغارِبِ
وَحيْداً تَهَادانِي الفَيافي فَأَجْتَلي ... وَجُوه المَنايا فِي قِناعِ الغياهبِ

فابن خفاجة يبدأ هذا المطلع ، مقسما بالعيش الذي هو أعزما لديه ، وسؤاله المركزي في القصيدة يدور حول موضوع الحياة والموت[٣]،" ولئن كانت الأجواء التي افتعلها الشاعر في هذا المطلع هي أجواء القصيدة الجاهلية (هوج الجنائب ، وظهور النجائب ، والرحل ، والخبب وهو نوع من مشي الإبل)، فإنه عمد إلى كسر الوهم لدى القارئ بجاهلية النص ، باستخدامه للصنعة البديعية في كلمتي الجنائب والنجائب"[٤]، .ووحدة الجبل هي رمز لما يعانيه الشاعر من الوحدة ، "ويستشف من هذا البيت شدة خوف ابن خفاجة من الموت[٥]"

ثم يمضي ابن خفاجة مشخصا الجبل ، أو كما يقول د. صلاح جرار " أنسنة الجبل"[٦] وذلك عندما أسقط عليه صفات الإنسان المادية ، كأن جعل له ذؤابة، أو صفات معنوية ، كأن جعله "وقور"، "ومفكر "فالشاعر في هذا الوصف للجبل إنما يسقط صفاته الخاصة على الجبل ، فهو مثقل بالهموم بعد أن تقدمت به السن وأصبحت فلسفة الحياة والموت والوجود تشغل فكره ، وأخذت المعرفة تنقدح من ذهنه نتيجة هذا الاستغراق في التفكير" . يقول[٧]:

وَأَرعَنَ طَمَّاحِ الذُؤابَةِ باذِخٍ ... يُطاوِلُ أَعنانَ السَّماءِ بِغارِبِ
يَسُدُّ مَهَبَّ الرِّيحِ عَن كُلِّ وِجهَةٍ ... وَيَزْحَمُ لَيْلاً شُهبَهُ بِالمناكِبِ
وَقُورٍ عَلى ظَهْرِ الفَلاةِ كَأَنَّهُ ... طِوالَ اللَّيالِي مطرقٌ فِي العَواقِبِ

---

(١) رحيم، مقداد٢٠٠٧، **رثاء النفس في الشعر الأندلسي**، ط١ عمان ــ دار جهينة ، ص١٥١.
(٢) ابن خفاجة، **الديوان**، ص٢١٦.
(٣) انظر: جرار، صلاح :(قراءات في الشعر الأندلسي٢٠٠٧)، دار المسيرة ــ عمان ،ط١،ص١٠٠.
(٤) المصدر نفسه ،ص١٠١.
(٥) المصدر نفسه، ص١٠٢.
(٦) المصدر نفسه ،ص١٠٤.
(٧) ابن خفاجة، **الديوان**، ص٢١٦.

ويصوّر الشاعر الحبل يحدّثه عمن مرّ به من صنوف الناس ، من خائف، ولاجىء، وسارٍ، وغيره، وقد كانت نهايتهم ؛ الصالح والطائع والجاهل والعالم الموت الذي غيّب ذكرهم وطار بهم، يقول[١]:

وَقـــالَ: أَلا كَـــمْ كُنْـــتُ مَلْجَـــأَ فاتـــكٍ ... وَمَـــــــوْطنَ أَوّاهٍ تَبَتَّـــــــلَ تائـــــــبِ
وَكَـــمْ مَـــرَّ بِـــي مِـــنْ مُـــدْلِجٍ وَمُـــؤَوِّبٍ ... وَقـــالَ بِظِلّـــي مِـــن مَطِـــيٍّ وَراكِـــبِ
فَمـــا كـــانَ إِلاّ أَن طَـــوَتْهُم يَـــدُ الـــرَدى ... وَطـــارَت بِهِـــم ريـــحُ النَّـــوى والنَوائـــبِ

ويتجلى رثاء ابن خفاجة نفسه في الجزء الأخير من القصيدة عندما يصف الجبل شاكياً بقاءه وحيداً، رغم ذهاب كل أصدقائه وإخوانه الذين غيبهم الموت، وكأن ابن خفاجة ينظر لنفسه وحيداً بعد أن هلك أصدقاؤه وذهب خلانه. يقول في ذلك [٢]:

فَحَتّـــى مَـــتى أَبْقـــى وَيَظْعَـــنُ صـــاحِبٌ ... أُوَدِّعُ مِنْـــهُ راحِـــلاً غَيْـــرَ آيـــبِ
وَحَتَّـــى مَـــتى أَرْعـــى الكَواكِـــبَ ســـاهِراً ... فَمِـــنْ طَـــالِعٍ أُخْـــرى اللَّيَـــالِي وَغـــارِبِ

ثم يتوجه إلى الله داعياً بالرحمة والضراعة: [٣]:

فَرُحْمَـــاكَ يـــا مَـــولايَ دعـــوَةَ ضـــارِعٍ ... يَمُـــــدُّ إِلى نُعمـــــاكَ راحَـــــةَ راغِـــــبِ

وأخيراً استطاع الجبل أن يقنع ابن خفاجة أن ليس للإنسان اختيار في الإقامة والذهاب ، وأن المرء لا يملك من أمره كبير شيء، إذ يقول[٤]:

فَـــأَسمَعَني مـــن وَعْظِـــهِ كُـــلَّ عِبْـــرَةٍ ... يُترجِمُهـــا عَنْـــهُ لِـــسَانُ التَجـــارِبِ
فَـــسَلّى بِمَـــا أَبْكَـــى وَسَـــرَّى بِمـــا شَـــجَا ... وَكانَ على عَهْـــدِ الـــسُّرى خَيْـــرَ صَـــاحِبِ
وَقلـــتُ وَقَـــد نَكَّبْـــتُ عَنْـــهُ لطيَّـــةٍ: ... سَـــلامٌ فَإِنّـــا مِـــنْ مُقـــيمٍ وَذاهِـــبِ

فالمقيم هو الجبل ، والذاهب هو ابن خفاجة ولو جمعنا الكلمتين ، لوصلنا إلى عبارة العيش ذاهب ، وهي خلاصة ما كان يؤرق الشاعر ، وهو ينظم القصيدة.[٥] .

---

(١) ابن خفاجة، **الديوان**، ص٢١٦.
(٢) المصدر نفسه، ص٢١٦.
(٣) المصدر نفسه، ص٢١٧.
(٤) المصدر نفسه، ص٢١٧.
(٥) انظر: جرار، صلاح، قراءات في الشعر الأندلسي، ص١٠٧.

ومن الشعراء الذين طال عمرهم، وزهدوا في دنياهم، ورثوا أنفسهم ابن حمديس الصقلي، فقد كان لهذا الشاعر وقفات تأملية مع نفسه وعمره، كما كان له رثاء في نفسه عندما بلغ الخامسة والخمسين من عمره، فيصف نفسه قد صار على مقربة من الموت في هذا السن، وقد انتابه المرض ، وصار جسمه يضم الأضداد، ويشبّه رجليه بالأغصان التي تلين، ويصف قامته بأنها صارت قاسية، ويعرّج على الفتيات الحسان اللائي ابتعدن عنه ، ونفرن منه ، نفور الظباء والغزلان من الحيوان المفترس ، فهو مخيف ومنفر لم يعد لهن فيه رغبة ، أو إليه ميل، يقول[١]:

كَمُلَتْ لِيَ الخَمسُونَ وَالخَمسُ ... وَوَقَعْتُ فِي مَرضٍ لَهُ نُكْسُ
وَوجدْتُ بالأَضْداد فِي جَسَدِي ... غُصْناً يَلِينُ وَقامَةٌ تَقسُو
وتَنافَرتْ عَنِّي الحِسَانُ كَما ... لَحظَ الهَصُورَ جَآذِرٌ خُنْسُ

ويشير ابن حمديس إلى علامةٍ من علامات كِبَر السن، طالما كرهها الشعراء وهي الشيب، يقول[٢]:

وابيَضَّ مِن فَودَيَّ مِن شَعرِي ... وَحْفٌ كَأَنّ سَوادَهُ النَّقْسُ

وقد ساوى ابن حمديس بين الشيب والموت في قصيدة ثانية، يقول فيها[٣]:

لَعَمْرُكَ مَا الشَّيبُ إِمَّا بَدا ... بِفَودَيكَ إِلاَّ الرَّدى أَو أَبُوه
أَلَم تَرَ أَنَّكَ بَين الشَّبَاب ... كَمَن ماتَ أَو غَاب مَنْ شَبّبُوه

ويعد ابن حمديس من أهم شعراء الأندلس الذين مزجوا الزهد بالرثاء ، وكانت فلسفتهم الشعرية مستمدة من القرآن الكريم ، والسنة النبوية الشريفة ، لذا يلجأ الشاعر إلى الله تعالى مستجيرا من النار سائلا ربه أن لا يجعل جسده وقودا لها ، طالبا من مولاه الرفق والرحمة يوم الحساب ، يقول[٤]:

دُنْيَا الفَتى تَفْنَى لِذا خُلقَتْ ... وَتَمُوتُ فِيهَا الجِنُّ وَالإِنْسُ
يَا رَبِّ إِنَّ النَّارَ عَاتِيَةٌ ... وَبِكُلِّ سَامِعَةٍ لَهَا حَسُّ

(١) ابن حمديس، **الديوان**، ص٢٨٢.
(٢) المصدر نفسه، ص٢٨٢.
(٣) المصدر نفسه، ص٥١٩.
(٤)المصدر نفسه، ص٢٨٣.

لا تَجعَلَـــنْ جَـــسَدي لَهـــا حَطَبـــاً فيـــه تُحَـــرَّقُ منِّـــي الـــنَفْسُ
وارفُـــقْ بعَبْـــدٍ لَحظُـــهُ جَـــزِعٌ يَـــومَ الحِـــسَابِ ونُطْقُـــهُ هَمْـــسُ

ومما يدل أيضاً على أن الدنيا هانت على ابن حمديس، وأنه نادم على ما ضيّع من عمره فيها، تساؤله ما الذي أعده للموت، وقد قدّر عليه، فهل أعدّ ذنوباً كاثرت الحصى، كما عبّر عن ذلك صراحة بقوله[١]:

مَـــا الَّـــذي أَعـــدَدتَ للمَـــوتِ فَقَـــد قُـــدِّرَ المـــوتُ بـــلا شَـــكّ عَليـــك
أَذُنُوبـــاً كَـــاثرَتْ عـــدَّ الحـــصَى بئسَ مـــا اســـتَكثَرْتَ مِـــن كَـــسب يَـــديَك
بِـــئس مـــا يـــسْمَعُ مـــن تَعظيمِهـــا مَلَكـــا القَبْـــر بِـــهِ مِـــن مَلكيـــك

ثم يتذكر ابن حمديس القبر ورقدته، والحشر وهوله، والصراط وزلته، ويتوعد نفسه بالويل إن لم يرحمه الله، ويجيره من النار، يقول[٢]:

أَيَّ خَطْـــبٍ فَـــادحٍ فِـــي رقـــدةٍ يُـــوقِظُ الحَـــشْرُ إِلَيْهـــا مُقلَتَيـــك
وصِـــراطٍ لَـــسْتَ بِالنَّـــاجِي إِذا وَطِئتـــهُ زَلَّـــةٌ مِـــنْ قَـــدَميك
فَلَـــكَ الويْـــلُ مِـــن النَّـــارِ إِذا مُقلَـــةُ الـــرَّحمَنِ لَـــمْ تنْظُـــرْ إليـــك

ولابن حمديس أيضاً قصيدة يبين فيها أن مصرعه في بيته ومضجعه الحقيقي في الضريح، وهذه الدنيا خداعة تغر من يركن إليها، ويشبهها بالمرأة الخادعة، وليس لمن أراد النجاة منها إلا الزهد فيها، يقول[٣]:

بَيْتُـــكَ فِيْـــهِ مَـــصْرَعُك وَفَـــي الـــضَّرِيح مَـــضْجَعُك
غَرَّتْـــكَ دُنْيَـــاكَ الَّتَـــي لَهـــا شَـــرابٌ يَخْـــدَعُك
همْـــتَ بَحُـــبٍّ فَـــارِكٍ وَقَلَّمَـــا تُمَتِّعُـــك
لا تَـــأمَنَن مَنِيَّـــةً إِنَّ عَـــصاهَا تَقْرَعُـــك

ثم يلتفت الشاعر إلى القبر الذي يذكره بنهايته الحقيقية ، بعد أن تنقضي أيامه، وتمضي حياته ، وما فيه من حساب ، وعقاب، ثم يتذكر الحساب ، وموقفه ، وأهواله وروعته ،ويذكر

(١) ابن حمديس، **الديوان**، ص٣٤٦.
(٢) المصدر نفسه، ص٣٤٦.
(٣) المصدر نفسه، ص٣٤٨.

الشاعر نفسه بالنار التي ستكون مصيره إن بقي مستمرا في حبه للدنيا ، وأغفل الآخرة ، يقول[١]:

مَغْرِبُـــــكَ القَبْـــــرُ الَّـــــذي	يَكُـــــونُ مِنْـــــهُ مَطْلَعُـــــك
إنْ فَرّقَتْـــــكَ تُرْبَـــــةٌ	فاللَّـــــهُ سَـــــوْفَ يَجْمَعُـــــك
وَللحِـــسَابِ مَوقِـــــفٌ	أَهْوالُـــــهُ تُرَوِّعُـــــك
فَكَيْـــفَ بِالنَّـــارِ الَّتِـــي	مِـــنْ كُـــلِّ وَجْـــهٍ تَلْـــذَعُك

ومن أهم الشعراء الذين مزجوا الزهد برثاء النفس، أبو عمران[٢] المارتلي الذي يصف نفسه أنها قوّالة غير فعالة، مكثرة من التسويف والإمطال، ويصفها أيضاً أنها "لا ترعوي"، ولا تقبل النصح، ويبين أنها "تؤمل طول البقاء" غافلة عن الموت، يقول[٣]:

إلَـــى كَـــمْ أَقُـــولُ وَلا أَفْعَـــلُ	وَكَـــمْ ذا أَحُـــومُ وَلا أَنْـــزِلُ
وَأَزْجُـــرُ عَيْنِـــي فَـــلا تَرْعَـــوي	وأَنْـــصَحُ نَفْـــسي فَـــلا تَقْبَـــلُ
وَكَـــمْ ذا أؤَمِّـــلُ طُـــولَ البَقَـــاءِ	وَأَغْفُـــلُ والمَـــوتُ لا يَغْفَـــلُ

ويشير الشاعر إلى أن الموت يناديه كل يوم، الرحيل، الرحيل، فيقول[٤]:

وَفِـــي كُـــلِّ يَـــومٍ يُنَـــادي بِنـــا	مُنَـــادي الرَّحيـــلِ أَلا فَـــارحَلوا

ثم يبين الشاعر أن عمره سبعةٌ وسبعون عاماً، وهذا العمر الطويل، كفيل بأن يدفع الشاعر إلى أن يرثى نفسه، ويجعله ينتظر موته، وكأنه يُساق إلى نعشه، فهو قاب قوسين أو أدنى من نهايته يقول[٥]:

أَمِـــن بَعْـــدِ سَـــبْعينَ أَرجـــو البَقَـــا	وَسَـــبْعٍ أَتَـــتْ بَعْـــدَها تعْجَـــلُ
كَـــأَنْ بِيَ وَشَـــيكاً إلى مَـــصْرَعِي	يُـــسَاقُ بِنَعْـــشي وَلا أُمْهَـــلُ

---

(١)ابن حمديس، **الديوان** ، ص٣٤٨.

(٢) المارتلي: أبو عمران موسى بن حسين بن عمران الزاهد، يعرف بالميرتلي ، وأصله من ثغر ميرتله ، سكن إشبيلية، توفي سنة اربع وستمائة عن اثنتين وثمانين سنة ، ابن الأبار : (المقتضب من كتاب تحفة القادم١٩٨٩ م) ، تحقيق: إبراهيم الابياري ، دار الكتب المصرية ــ القاهرة ،ط٣،ص١٤٥.

(٣) ابن الأبار، **تحفة القادم**، ص١٣٢-١٣٣، المقري، **نفح الطيب**، ج٣، ص٢٩٦.

(٤) المصدران السابقان، ص١٣٣، ج٣، ص٢٩٦.

(٥) ابن الأبار، **تحفة القادم**، ص١٣٢-١٣٣.

وفي البيت الأخير، يتبدى لنا مدى خوف أبي عمران من اقتراب الموت ، وهول السؤال ، مع تقدم العمر ودنو الأجل ، وما بعده، وإلى أين سينقل ؟ فيقول[١]:

فَيـــا لَيْـــتَ شِـــعْرِيَ بَعْـــدَ الـــسُّؤالِ وَطُـــولِ المُقَـــامِ لِـــمَ أُنْقَـــلُ

وقد كان الفقر من الأسباب التي دفعت ابن جبير إلى تمني الموت ، ورجاء قرب الأجل فها هو يدعو الله ــ سبحانه وتعالى ــ أن يبسط له رزقه ليعيش كريما حرا ، وإن يكن قد قدر عليه رزقه فهو يضرع إلى الله أن يعجِّلَ في موته ، لأنه لا طاقة له بالعيش في ذل الحاجة ، وسؤال الناس لما في ذلك من هوان ومذلة ، يقول ابن جبير [٢]:

رَبِّ إِنْ لَـــمْ تُـــؤتِني سَـــعَةً فَـــاطْوِ عَنِّـــي فَـــضْلَةَ العُمُـــرِ
لا أُحِـــبُّ اللَّبْـــثَ فِـــي زَمَـــنٍ حَـــاجَتِي فِيـــهِ إِلَـــى البَـــشَرِ

وقد كان للشاعر أمية بن أبي الصلت مقطعات شعرية في رثاء نفسه، منها ما كتبه وهو على فراش الموت يوصي ابنه عبد العزيز أن يلزم الإسلام وحدوده، ويذكره برقابة الله عليه من بعده، يقول[٣]:

عَبْـــدَ العَزِيْـــزِ خَلِـــيفَتِي رَبّ الـــسَّماءِ عَلَيـــكَ بَعْـــدي
أَنَـــا قَـــدْ عَهِـــدْتُ إِلَيْـــكَ مـــا تَدرِيْـــهِ فَـــاحفَظْ فِيْـــهِ عَهْـــدي
وَلَـــئِنْ عَمِلْـــتَ بِـــهِ فَإِنـــ نَـــكَ لا تَـــزالُ حَلِيْـــفَ رُشْـــدِ
وَلَـــئِن نَكَثْـــتَ فَقَـــد ضَلَلـــ تَ وَقَـــدْ نَـــصَحْتُكَ حَـــسْبَ جُهْـــدي

وقد وعظ ابن الأبار نفسه وزجرها مبينا جهلها إن أمّلت البقاء ، وركنت إلى الدنيا وانصرفت عن الدين ، فالأماني طوال ، ولبئس الزاد زاد الدنيا، ثم يطلب الشاعر من سامعه ، أن يتجرد من الدنيا ويخرج منها كما جاء إليها . وأخال أن الشاعر يخاطب نفسه في هذه القصيدة ، يقول ابن الأبار في ذلك: [٤]

قُـــصَارَكَ جَهْـــلاً فِي حيَـــاةٍ قَـــصيرَةٍ أَمَـــانٍ طَـــوَالٌ بِـــئسَ مَـــا تَتَـــزَوّدُ
تَجُـــودُ بِمحيَـــاكَ اللَّيَـــالِي علَـــى الـــرَّدَى وَأَنْـــتَ علَـــى دُنْيَـــاكَ بِالـــدِّيْنِ أَجْـــوَدُ

(١)ابن الأبار، **تحفة القادم**، ص١٣٢.
(٢) الخطبا، فوزي،**شعر ابن جبير**(١٩٩١)، عمّان: منشورات دار الينابيع للنشر والتوزيع، ص٥٤.
(٣) أبو الصلت أمية، **ديوان الحكيم**، ص٨٣.
(٤) ابن الأبار، **الديوان**، ص١٧٩.

لَقَـــد أبْرَقَـــتْ فيهَـــا المَنايـــا وَأَرْعَـــدَتْ ... ومَـــا لَـــكَ عَـــنْ طُـــولِ الـــذُّهُولِ مُطَـــرَّدُ
تَجَـــرَّدْ مِـــنَ الـــدُّنيا فَإِنَّـــكَ إِنَّمـــا ... خَرَجْـــتَ إِلَـــى الـــدُّنيَا وَأَنْـــتَ مُجَـــرَّدُ

ومن الأسباب التي دفعت الشاعر الأندلسي إلى رثاء نفسه ، ووصف ما يعتريه من مشاعر الخوف، وقرب الأجل "التوعد بالقتل" . ومن أمثلة ذلك ما جرى لأبي جعفر بن السيد على يد السيد أبي سعيد بن عبد المؤمن الذي استوزره، فطلب منه أبو جعفر أن يعفيه من الوزارة، فلم يعفه، حتى قال هذين البيتين، اللذين فيهما هجاء واضح للسيد، وحط من قدره، فما كان منه إلا أن عزله أسوأ عزل، والبيتان هما[١]:

فَقُـــلْ لِحَـــرِيصٍ أَن يَرانِـــي مُقَيَّـــداً ... بِخدمتِـــهِ لا يَجْعَـــلِ البَّـــازَ فِـــي القَفَـــص
وَمَـــا كُنْـــتُ إِلاَّ طَـــوع نَفْـــسِي فَهَـــل أَرى ... مُطِيعاً لِمَن عَـــنْ شَـــأوِ فَخْـــرِي قَـــد نَقَـــص

ثم اشتد العداء بين السيد وأبي جعفر بسبب حفصة الشاعرة، فقد كان أبو جعفر يهواها، فاتصلت بالسيد، ووجد حُساده السبيل إلى إغراء السيد به، فكان مما نمي عنه أن قال لحفصة يوماً: ما هذا الغرام الشديد به – يعني السيّد – وكان شديدَ الأدمةِ، وأنا أقدر أن أشتري لك من الغرض أسود خيراً منه، بعشرين ديناراً، فجعل السيد يوسّد له المهالك، وأبو جعفر يتحفظ كل التحفظ، وهو يعلم أن لا مفر من الموت على يديه إذا ظفر به، حيث لم يهتدِ إلى رضاه ولا إلى الهرب منه، فأحسّ باليأس من الحياة، وانحصرت أمنياته في أن ينأى عن الحياة بأسرها في محل منزوٍ من الأرض، يفلت فيه من السيد وحكمه، وسلطته، وجبروته، فقال راثياً نفسه في حالته هذه[٢]:

مَـــنْ يَـــشْتَري مِنِّـــي الحَيَـــاةَ وَطِيبَهـــا ... وَوزارتي وتَـــــــأَدُّبي وَتَهَـــــــذُّبي
بِمَحَـــــلِ رَاعٍ فِـــــي ذُرى مَلمُومَـــــةٍ ... زُوِيَـــتْ عَـــن الـــدُّنيا بِأَقْـــصَى مَرتَـــبِ
لا حُكْـــمَ يأخُـــذُه بِهَـــا إِلاَّ لِمَـــنْ ... يَعفُـــو وَيَـــرأفُ دَائمـــاً بِالمُـــذْنِبِ

وقد سئم أبو جعفر من الحياة ، والعيش مع امرئ "متغضب متغلب مترتب" ، فيصور الموت ناظراً إليه، وفي هذا دلالة على أن الشاعر يعرف أن خصمه قاتله لا محالة ، ونستشف

(١) المقري، **نفح الطيب**، ج٤، ص١٨١.
(٢) ابن الخطيب، لسان الدين، **الإحاطة في أخبار غرناطة**، ج١، ص٢٢٥.

من البيت الأخير أن الشاعر حاول إرضاء خصمه مرارا ، ولكن محاولاته باءت بالفشل، ويصف ذلك بقوله[١]:

فَلَقَدْ سَئِمْتُ مِنَ الحَياةِ مَعَ امْرِئٍ ... مُتَغَضِّبٍ، مُتَغَلِّبٍ، متَرَتِّبِ
المَوتُ يَلْحَظُنِي إذا لاحَظْتُهُ ... وَيَقُومُ فِي فِكْرِي أَوانَ تَجَنُّبِي
لا أَهْتَدِي مَعَ طُولِ مَا حاوَلْتُهُ ... لِرِضاهُ فِي الدُّنيا وَلا لِلمهرَبِ

وكانت نهاية أبي جعفر أن "وضع السيد عليه العيون في كل جهة، فقبض عليه بمالقة وطولع بأمره، فأمر بقتله صبراً"[٢].

أما أبو جعفر بن عطية[٣]، فقد كان محمود السيرة ، وفي أيام توجّهه للأندلس وجد حساده السبيل إلى التدبير عليه والسعي به، حتى أوغروا صدر الخليفة عبد المؤمن عليه فاستوزر عبد السلام بن محمد الكومي ، وانبرى لمطالبة ابن عطية ، وجدَّ في التماس عوراته ، وتشنيع سقطاته ، وطرحت بمجلس السلطان أبياتاً منها [٤]:

قُلْ لِلإمامِ أَطالَ اللهُ مُدَّتَهُ ... قَولاً تبين لِذي لُبٍّ حَقائقَهُ
إنَّ الزَراجين قَومٌ قَدْ وَتَرَتَهُمُ ... وَطَالِبُ الثَأرِ لَمْ تُؤمَنْ بَوائقُهُ

ولما وقف عبد المؤمن على هذه القصيدة أسر له في نفسه تغيرا ، وأضمر الشر لقائلها فكانت من أقوى أسباب نكبته[٥]. فلم يكن من ابن عطية إلا أن لاذ بالشعر مادحا ومستعطفا، وراثيا نفسه ، لعل صدر الخليفة يرق له فينال العفو والنجاة . وقد توسَّلَ عند تربة المهدي، وكتب رسالة نثرية يبين فيها أنه أتى حضرة المعلوم لائذاً، وبقبر المهدي عائذاً، وقد آن لمقالته أن تسمع، وتغفر له هذه الخطيئات أجمع، "...مع أني مقترف، وبالذنب معترف"، ثم ضمّن رسالته أبياتا شعرية منها قوله[٦]:

فَعَفواً أَميرَ المُؤمِنِينَ، فَحَقَّ لَنا ... بِرَدِّ قُلوبٍ هَدَّهَا الخَفَقانِ

---

(١) **الإحاطة في أخبار غرناطة**، ج١، ص٢٢٥.
(٢) المصدر نفسه ، ج١، ص٢٢٦.
(٣) ابن عطية : أبو جعفر بن عطية القضاعي كاتب شهير ووزير، من أهل مراكش ، وأصله القديم من طرطوشة ، (المقري: نفح الطيب ، ج٥، ص١٨٣)..
(٤) المقري، **نفح الطيب**، ج٥، ص١٨٣-١٨٤.
(٥) المقري، نفح الطيب، ج٥، ص١٨٤.
(٦) المصدر نفسه، ج٥، ص١٨٥.

ويظهر في البيت السابق كم كان ابن عطية خائفا ، يترقب مصيره فقد حكم عليه بانتظار الموت ، وهذا لا شك أصعب من الموت ، لذلك استعمل الشاعر في الشطر الثاني " هدها الخفقان ، وهذه العبارة تحمل دلالة الذعر والرعب من المصير المظلم الذي ينتظره.

وكتب ابن عطية أبياتا يستعطف بها الأمير عل قلبه يرق لحاله ، لا سيما وهو يتحدث عن ذنوبه وكثرة سقطاته ، تلك التي أردته ، ولا منقذ ولا مخلّص سوى عفو أمير المؤمنين ، وصفحه وعطفه . فهو فيما يعانيه من تقلبات الزمن ، وقوارع الدهر ، ونوازل الأيام كمن يخوض في بحر لجيٍّ لا خلاص له مما يعانيه إلا رحمة أمير المؤمنين، فإن حظي بعطفه وعفوه نال النجاة والخلاص ، يقول في ذلك(١):

عَطْفــــاً أَمِــــير المُــــؤمنِينَ، فَقَـــــد ... بـــان العَـــزَاءُ لفَـــرطِ الـــبين وَالحُـــزْنِ
قَـــد أَغْرَقَتنـــا ذُنُـــوبٌ كُلُّهَـــا لُجَـــجُ ... وَعَطفَـــةٌ مِـــنْكُم أَنْجَـــى مِـــنَ الـــسُّفُنِ
وَصَـــادفَتنَا سِـــهَامٌ كُلُّهـــا مَـــرض ... وَرَحْمَـــةٌ مِـــنْكُم أَوفَـــى مَـــنَ الجـــنَنِ

ثم يصور ابن عطية نفسه بالثوب النجس، الذي يطهُر عند الغسل، لعله ينال الرحمة فتوهب له الحياة ، ويفوز بالنجاة ، إذ يقول(٢):

فَـــالثَّوبُ يَطهُـــرُ عِنـــدَ الغـــسلِ مِـــنْ دَرَنٍ ... وَالطَّرْفُ يَنْهَضُ بَعْـدَ الـرَّكْضِ فِـي وسـنِ
أَنـــتُم بَـــذَلتم حَيَـــاةَ الخَلْـــقِ كُلِّهِـــمُ ... مِـــن دُونِ مَـــنٍّ عَلَـــيهِم لا، ولا ثمـــن

و بعد أن أفرط ابن عطية في المدح، أملاً في الخلاص من عقوبة الموت، صار يستعطف بأبنائه الصغار، لعل قلب الخليفة يرق لحال أولئك الصبية، فيشبه أطفاله بالفراخ الصغيرة التي لا تقوى على العيش وحدها بعيدة عمّن يعيلها ، فيبالغ الشاعر في مدح عبد المؤمن مظهرا فضائله ، وأن له اليد السابغة على أولاده ، ثم يزيد في مدحه ، مضفيا عليه صفات إلهية وكأنه السبب في وجود كل من في الكون، وهذا لا شك نابع مما يعانيه الشاعر من الخوف ، فأفرط في المدح ، وغالى في التشبيه، إذ يقول (٣):

وَصِـــبيةٍ كَفِـــراخِ الـــوُرْقِ مِـــنْ صِـــغَرٍ ... لَـــمْ يَـــأَلَفُوا النَّـــوحَ فِـــي فَـــرْعٍ وَلا فَـــنَنِ
قَـــد أَوجَـــدهُم أَيَـــادٍ منـــك ســـابِغةٌ ... وَالكُـــلُّ لَـــولاكَ لَـــمْ يُوجَـــدْ وَلَـــمْ يَكُـــنِ

---

(١) ابن الخطيب، **الإحاطة في أخبار غرناطة**، ج١، ص٢٧٦.
(٢) المصدر نفسه ، ج١، ص٢٧٦.
(٣) المقري، **نفح الطيب**، ج٥، ص١٨٦.

فابن عطية يحاول فيما سبق النجاة بنفسه من بطش عبد المؤمن، لذلك لم يتورع بوصفه بهذه الصفات التي هي من صفات الله – عز وجل – والتي منها "والكل لولاك، لم يوجد ولم يكن" . أما عبد المؤمن فقد وقع على هذه القصيدة: "الآن، وقد عصيتَ قبلُ، وكنتَ من المفسدين"(١) .وفي هذا التوقيع يظهر لنا التجبر والقسوة والبطش الذي يميز ذلك الخليفة ، وهو يشبه ابن عطية بفرعون الذي أفسد وعصى ، ولم يعلن توبته إلا بعد أن رأى الموت يقينا .

ومما كتب ابن عطية وهو في السجن، أملاً في النجاة، نائحاً على نفسه(٢)، ظاناً أنه آن لذنوبه أن تمحى وأخطائه أن تنسى ، مصورا حيرته بالليل منتظرا الصباح الذي يشرق عن الرضى والعفو، وفي ذلك يقول:(٣)

أَنُــــوحُ عَلَــى نَفــسِي أَم أَنْتَظِــرُ الــصَّفحَا فَقَــد آنَ أَن تُنــسَى الــذُّنُوبُ، وَأَنْ تُمحَــى
فَهَــا أَنَــا فِــي لَيــلٍ مِــن الــسُّخْطِ حَــائِرٌ وَلا أَهْتَــدي حَتَّــى أرى للرِّضَــا صُــبحَا

ويبدو أن ابن عطية أكمل حياته في ليله المظلم ، يتيه في غياهبه ، ولم يكن له نصيب من عفو سيده، فكانت نهايته أن قتله عبد المؤمن، وقال: "لقد ذهب ابن عطية، وذهب الأدب معه"(٤).

ومن الشعراء الذين تنكرت لهم الدنيا، وقلبت لهم ظهر المجن، الشاعر ذو الوزارتين أبو عيسى بن لبون بن عبد العزيز بن لبون، الذي رثى نفسه ، وسلطانه ، ووقف على رسوم داره التي محيت ، وندب أيامه التي انقضت ، وألمح إلى بعض مظاهر الأبهة والسلطان في ما مضى له من أيام ، فقد كان يشرب الراح من الغلمان. وقد صاغ ابن لبون ذلك كله على طريقة القصيدة الجاهلية، واقفاً على آثار مسقط اللوى، يقول(٥):

خَليلَــيَّ عوجَــا بِــي عَلَــى مَــسْقَطِ اللِّــوى
وَأَســــأَلُ عَــــن لَيــــلٍ تَــــوَلَّى بِأُنْـــسِنا
وإذ كُنْتُ أُســقى الــرَّاحَ مِــنْ كَــفِّ أَغيــدٍ

(١)المقري، **نفح الطيب** ، ج٥، ص١٨٦.
(٢) المصدر نفسه، ج٥، ص١٨٦.
(٣) المصدر نفسه، ج٥، ص١٨٦.
(٤)المقري، **نفح الطيب**، ج٥، ص١٨٦.
(٥)ابن خاقان ، **قلائد العقيان ومحاسن الأعيان** (١-٢)١٩٨٩،تحقيق: حسين خريوش، الطبعة الأولى، الزرقاء – مكتبة المنار ،ص٢٩٤.

وبعد أن وصف الشاعر ما كان له من ماضٍ سعيد، وأيام خوالٍ، التفت إلى غدر الدنيا، وأنها أوردته مورداً لا مصدر بعده، وفي هذا دلالة على أن الأمور وصلت إلى حد لا رجعة عنه ، يقول(١):

وَلَكِنَّهَا الدُّنيَا تُخَادِعُ أَهلَهَا ... تَغُرُّ بِصَفوٍ، وَهِيَ تَطوِي تَكَدُّرَا
لَقَد أَوْرَدَتْنِي بَعْدَ ذلِكَ كُلِّهِ ... مَوَارِدَ مَا أَلْفَيْتُ عَنْهُنَّ مَصْدرا
خَلِيلَيَّ مَا بَالِي عَلَى صِدْقِ عَزمَتي ... أَرى مِنْ زَمَانِي وَنْيَةً، وَتَعَذُّرا

ويرثي الشاعر في الجزء الأخير من مقطوعته دولته، وبين أنه لم يكن عاجزاً عن كسب المكارم، وقد شاء الزمان أن يمزق دولته، وهذا كله مدعاة لأن يرثى الشاعر دولته ونفسه، يقول(٢):

وَ وَ اللهِ مَا أَدْرِي لأَيِّ جَرِيمَةٍ ... تَجَنَّى وَلا عَنْ أَيِّ ذَنْبٍ تَغَيَّرا
وَلَمْ أَكُ عَنْ كَسْبِ المَكارِمِ عَاجزَاً ... وَلا كُنْتُ فِي قَبْلٍ أَنيْلَ مُقَصِّرا
لَئِنْ شَاءَ تَمزِيقُ الزَّمَانِ لِدَولَتِي ... لَقَد رَدَّ عَن جَهْلٍ كَثِيرٍ وَبَصّرا

وفي آخر المطاف زهد ابن لبون في الدنيا، وانقبض عنها، ونفض كفه منها، ورضي بحياة الكفاف، واشتمل كفافه على الخبز والكتب، التي يصفها أنها جليس صدق، وفي البيت الأخير يشير إلى أن مصابه في موته، لن يؤرق قومه، لأنهم يجهلون من يدفنون، إذ يقول(٣):

نَفَضْتُ كَفِّي عَن الدُّنيَا وَقُلْتُ لَها ... إِلَيكِ عَنِّي فَما في الحَقِّ أُغْتَبنُ
مِنْ كَسْرِ بيتي لي رَوضٌ، وَمِنْ كُتُبِي ... جَلِيْسُ صِدْقٍ علَى الأَسْرارِ مُؤتَمنُ
أَدرِي بِهِ ما جَرى فِي الدَّهرِ مِن خَبَرٍ ... فَعندَهُ الحَقُّ مَسطُورٌ وَمُختَزنُ
وَمَا مُصَابِي سِوى مَوتِي وَيَدْفنُني ... قَومٌ، وَما لَهُم عِلمٌ بِمَنْ دَفنُوا

ومن الذين رثوا أنفسهم عندما حضرتهم الوفاة، الفيلسوف ابن باجَّة(١)، الذي استسلم لقضاء الله وقدره، ورضي بالموت الذي لا مفرّ منه، وصوّر نفسه كيف يروغ عن قدره، ولكن

---

(١) ابن خاقان ، **قلائد العقيان ومحاسن الأعيان** (١–٢) ،ص٢٩٥.
(٢) المصدر نفسه،ص٢٩٥
(٣) المصدر نفسه، ٢٩٦.

هيهات أن يتحقق ذلك، فقد وقع القدر، ولا بد من مواجهة ما هو مكتوب، يقول الفيلسوف ابن باجة لمّا حضرته الوفاة(٢):

أَقُولُ لِنَفْسِي حِينَ قابَلَهَا الرَّدى ... فَراغَتْ فِراراً منه يُسْرَى إِلَى يُمنَى

قِفِي تحملي بَعْضَ الَّذِي تَكرَهِينَهُ ... فَقَد طالَ مَا اعْتَدت الفِرارَ إِلَى الأَهنى

ويرى الدكتور مقداد رحيم أن ابن باجَّة "يحاول بما يمتلكه من قدرة على التفلسف، إظهار الصراع بين التفكير العقلي، والشعور النفسي بين العقل والروح(٣)".

---

(١) ابن باجة: محمد بن باجة التجيبي الأندلسي، وكنيته أبو بكر، اللمعروف بابن الصائغ، فيلسوف وشاعر مشهور، نسبه الفتح بن خاقان في القلائد، إلى التعطيل، ومذهب الحكماء، وأغلال العقيدة، توفي في شهر رمضان المعظم سنة ثلاث وثلاثين وخمسمائة، وقيل سنة خمس وعشرة وخمس مائة. ابن خلكان، وفيات الأعيان وأنباء أهل الزمان :ابن خلكان، أبو العباس شمس الدين أحمد بن محمد بن أبي بكر، (ت: ٦٨١هـ)، (د.ت). **وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان.** (د.ط)، (تحقيق إحسان عباس)، مجلد الرابع ، دار صادر: بيروت، ص٤٢٩ــ٤٣١.

(٢) ابن خلكان، **وفيات الأعيان** ، المجلد الرابع، ص٤٣١ .

(٣)رحيم مقداد، **رثاء النفس في الشعر الأندلس**، ص٢٤٧

المبحث الثاني: الكتابة على شواهد القبور:

نظم بعض الشعراء الأندلسيين – في عصري المرابطين والموحدين – مقطعات شعرية، وأوصوا ذويهم أن يكتبوها على قبورهم، ومن هذه النصوص ما كُتب عندما زهد الشاعر في الدنيا، فانصرف عنها، وعن ملذاتها، وراح يتأمل في حقيقة الموت، وأن الدنيا فانية مفنية، لا أمان لها، ومنها ما كُتب ساعة الاحتضار، فتميّز بالصدق الخالص.

ولهذه النصوص قيمةٌ أدبيةٌ وتاريخيةٌ، تبين نظرة الأندلسي إلى حقيقة الموت والفناء. والناظر فيما كُتب على شواهد القبور يراها تتجه في عمومها إلى أربعة اتجاهات[١]:

الاتجاه الأول: يتجهون فيه إلى الله – سبحانه وتعالى – يسألونه الرحمة والمغفرة والصفح والغفران.

الاتجاه الثاني: يطلبون فيه من كل من يمرّ بهم أن يسلم على هذا القبر، ويسأل الله الرحمة لصاحبه.

الاتجاه الثالث: وهذا الاتجاه ذو طابع موعظي وحكمي، ومفاده أن الدنيا دار فناء، لا ينبغي لمن يسكنها أن يُغرّ بها.

الاتجاه الرابع: ويحاولون فيه أن يقطعوا دابر الشماتة والشامتين، فلا شماتة في موت، فهو كأس، وكل الناس يشربون منه، فلم الشماتة إذاً؟

ويعد الشاعر الملك الأسير المعتمد بن عباد من الذين اتجهوا إلى الكتابة على قبورهم، وقد تضمنت أبياته معاني الفخر بنفسه، فبدأ مقطوعته الشعرية بطلب السقيا لقبر الغريب، متعجبا من فتكة الموت التي ظفرت به، ثم يصف نفسه بالحلم والعلم والنعمى والكرم والعطاء والشجاعة والفتك بالأعداء، وما إلى ذلك من صفات يظهر فيها أنه كان على ظهر هذه الأرض ذا مكانةٍ عظيمةٍ وسؤدد وشرف، فهو الدهر في انتقامه، والبحر في عطائه، والبدر في الظلام، والصدر في المكان، يقول[٢]:

قَبْرَ الغَرِيْبِ سَقاكَ الرَّائِحُ الغَادي! حَقّاً ظَفَرتَ بِأَشْلاءِ ابْنِ عَبَّادِ
بالحِلمِ، بالعِلمِ، بالنُّعمَى إذا اتَّصَلَت بالخِصْبِ إنْ أجْدَبوا، بالرَّي، للصَّادي
بِالطَّاعِنِ، الضَّارِب، الرَّامِي، إِذَا اقْتَتَلُوا بالمَوتِ أَحْمَرَ بِالضِّرْغَامَةِ العَادي

(١) انظر: رحيم، مقداد، **رثاء النفس في الشعر الأندلسي**، ص١٠٧.
(٢) المعتمد بن عباد، **الديوان**، ص١٩٣.

بِالـــدَّهْرِ فِـــي نِقَـــمٍ، بِـــالبَحْرِ فِـــي نِعَـــمٍ بِالبَـــدرِ فِـــي ظُلَـــمٍ، بِالـــصَّدرِ، فِي النَّـــادِي

ثم يؤكد المعتمد حقيقة ما حلّ به، وهو الموت، الذي لا بد منه، ولا مفر عنه ويأتي لميعاده، مصداقا لقوله تعالى: ﴿ وَلِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ فَإِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ ﴾[١]، مشبّهًا نفسه بالجبال في عظمتها، وقد صارت فوق أعواد النعش، يقول[٢]:

نَعَـــمْ هُـــوَ الحَـــقُّ وَأَفـــانِي بِـــهِ قَـــدَرٌ مِـــنَ الـــسَّمَاءِ، فَوافَـــانِي لِميعَـــادِ
وَلَـــمْ أَكُـــن قَبْـــلَ ذاكَ الـــنَّعْشِ أَعْلَمُـــهُ أَنَّ الجِبَـــالَ تَهَـــادى فَـــوقَ أَعْـــوادِ

ثم يطلب المعتمد من نعشه أن يرفق به، بعد أن غيّب كرمه ، سائلا له السقيا من قطوب البرق والرعد، ثم يبين أن الرعد يبكي أخاه، لأن المعتمد البحر في كرمه، وقد غُيِّب هذا الكريم المعطاء تحت الصفيح، لذلك يطلب من الزهر ألا يبخل عليه بالسقيا، يقول[٣]:

كفَاك، فَـارْفُق بِمَـا اسْـتَودَعتَ مِـنْ كَـرَمٍ رَوَّاكَ كُـــلُّ قُطُـــوبِ البَـــرقِ رَعَّـــادِ
يَبكِـــي أَخَـــاهُ الَّـــذِي غَيَّبْـــتَ وَابِلُـــهُ تَحْـــتَ الـــصَّفِيحِ، بِـــدَمْعٍ رائِـــحٍ غَـــادِي
حَتَّـــى يَجُـــودَكَ دَمْـــعُ الطَّـــلِّ مُنْهَمِـــراً مِـــن أَعْـــيُنِ الزَّهـــرِ، لَـــمْ يَبخَـــلْ بِإسـعَادِ

ويختتم المعتمد رثاءه نفسه طالباً أن تظل صلوات الله ورحماته دائمة لهذا القبر، إذ يقول[٤]:

وَلا تَـــزَل صَـــلَواتُ اللهِ دائِمَـــةً عَلَـــى دفِينِـــكَ لا تُحْـــصى بِتعْـــدادِ

ويمكن أن يُعد الشاعر ابن خفاجة ضمن الاتجاه الثاني ، فقد كان يرجو كل من يمرّ بقبره أن يقف متألماً، وينظر مترحماً، ويتساءل حائراً، هل بعد بطن الأرض من دار مخيّم. وقد بدأ ابن خفاجة مقطوعته التي أوصى أن تكتب على قبره بمخاطبة خليليه، يقول[٥]:

خَلِيلَـــي هَـــل مِـــنْ وقفَـــةٍ لِتَـــأَلُّمِ عَلَـــى جَـــدثي، أَو نَظْـــرَةٍ لِتَـــرَحُّمِ
خَلِيلَـــي هَـــل بَعْـــدَ الـــرَّدى مِـــنْ ثَنِيَّـــةٍ وَهَـــل بَعْـــدَ بَطْـــنِ الأَرضِ دارُ مُخَـــيَّمِ

(١) سورة الأعراف ، آية٣٤ .
(٢) المعتمد بن عباد، **الديوان**، ص١٩٣.
(٣) المصدر نفسه، ص١٩٤.
(٤) المصدر نفسه، ص١٩٤.
(٥) ابن خفاجة، **الديوان**، ص٣٦٣.

ثم يطلب ابن خفاجة من إخوانه الذين يزورون ضريحه أو يمرون به أن يسلموا عليه، وذلك لن ينقص منهم شيئاً، ويعده من علامات الوفاء له، ويصف أشلاءه أنهن كَرُمن عن البلى، ويصور من يسلم عليه متأوهاً حزيناً طوراً، وذارفاً دموعه طوراً آخر، يقول[١]:

وَمَـــاذا عَلَيْـــه أَنْ يَقُـــولَ مُحَيِّيـــاً ... أَلا عِـــمْ صَـــباحاً أَو يَقُـــولَ أَلا اسْـــلَمِ
وَفَـــاءً لأَشْـــلاءٍ كَـــرُمْنَ عَلَـــى البِلـــى ... فَعَـــاجَ عَليهَـــا مِـــن رُفَـــاتٍ وَأَعْظُـــمِ
يَـــرَدِّدُ طَـــوراً آهَـــةَ الحُـــزنِ عِنْـــدها ... وَيَـــذْرِفُ طَـــوراً دَمْعَـــةَ المُتَـــرحِّمِ

أما أبو الصلت أمية بن عبد العزيز، فقد ختم حياته الحافلة بالعطاء بهذه الأبيات، والتي أمر أن تكتب على قبره[٢]، وتعد أبياته ضمن الاتجاه الأول، فقد بيَّن أن هذه الدنيا دار فناء، والآخرة دار بقاء، وتنعكس ثقافة أبي الصلت الدينية في أبياته، فقد كان معتقداً أنه سائر إلى دار البقاء، وتاركاً دار الفناء، وأعظم من ذلك أنه يصير إلى رب العزة والجلالة، ويصفه بالعدل، وهو من أسمائه الحسنى، وينزهه عن الجور والظلم، يقول[٣]:

سَـــكَنْتُك يـــا دارَ الفَنَـــاءِ مَـــصَدِّقاً ... بِـــأَنِّي إلى دارِ البَقَـــاءِ أَصِـــيرُ
وَأَعْظَـــمُ مَـــا في الأَمْـــرِ أَنِّـــي صَـــائرٌ ... إلى عَـــادِلٍ في الحُكْـــمِ لَـــيسَ يَجُـــورُ

ثم يتساءل أبو الصلت عما ينتظره عند ربه ، وقد نفد زاده، وكثرت ذنوبه ، ولا أمل له إلا الله المنزه عن الظلم ، والجور ؛ إن عذب فبعدله، وإن عفا فبرحمته، ويصف ذلك بقوله [٤]:

فَيـــا لَيْـــتَ شِـــعْرِي، كَيـــفَ أَلقَـــاهُ عِنـــدها ... وزادِي قَلِيـــلٌ والـــذُّنُوبُ كَـــثِيرُ
فَـــإِن أَكُ مجزِيَّـــاً بِـــذَنبِي فَـــإِنَّني ... بِـــشَرِّ عِقَـــابِ المُـــذنبِين جَـــدِيرُ
وَإِنْ يَـــكُ عَفـــوٌ مِنْـــهُ عَنِّـــي، وَرَحْمَـــةٌ ... فَـــثَمَّ نَعِـــيْمٌ، دائِـــمٌ، وَسُـــرورُ

ومن الشعراء الذين يعدون ضمن الاتجاه الأول أبو بكر[٥] بن مغاور، الذي يطلب ممن يقف بقبره، أن يعتبر بموته ويستمع لقوله وقد صار عظمه رميما، ثم يصور دافنيه أنهم هربوا

---

(١) ابن خفاجة: الديوان ص٣٦٣.
(٢) أبو الصلت، أمية، **ديوان الحكيم**، ص٨٧.
(٣) المصدر نفسه، ص٨٧.
(٤) المصدر نفسه، ص٨٧.
(٥) أبو بكر بن مغاور:عبد الرحمن بن محمد بن مغاور بن حكم السلمي، ولد في شاطبة سنة٥٠٢هـ، عرف بأنه من جلة الأدباء والكتاب والفقهاء، وقد جمع شعره ونثره في ديوان أسماه(نور الكمائم وسجع الحمائم)، (الطريفي: شعراء العرب المغرب والأندلس ٢٠٠٧، يوسف عطا ط١،عمان- الأهلية للنشر والتوزيع، ص٢٤٤) .

منه لكثرة ذنوبه ، أما هو فيحسن الظن بالله الكريم ، وكأن الشاعر يقول لمن حوله إن الله كريم جواد يكرم ضيفه، وإن كثرت ذنوبه [١]:

أَيُّهـــا الواقِـــفُ اعتِبَـــاراً بِقَبْـــرِي	اسْـــتَمِع فِيْـــهِ قَـــولَ عَظـــمِ الـــرَّميمِ
أَودَعُـــونِي بَطْـــنَ التُّـــرابِ، وَراحـــوا	مِـــنْ ذُنُـــوبٍ كلموهـــا بِـــأَدِيمِ
قُلْـــتُ لا تَجْزَعـــوا عَلَـــيَّ، فَـــإِنِّي	حَـــسنُ الظَّـــنِّ بِـــالرَّؤُوفِ الـــرَّحِيمِ
وَدَعُـــونِي بِمـــا اكْتَـــسَبْتُ رَهِيْنـــاً	غَلِـــقَ الـــرَّهنِ عَنْـــدَ مَـــولىً كَـــرِيمِ

ويعد ابن الزقاق البلنسي من الذين اتجهوا إلى الاتجاه الثاني، فيما كتب على قبورهم، فقد خاطب ابن الرقاق إخوانه، الذين حال الموت بينه وبينهم، وبيّنَ لهم أن حكم الموت نافذ على الخلائق. بعد ذلك يذكرهم أنه سبقهم إلى الموت، وهم به لاحقون، ثم يشبّه العمر بالشيء الذي يُطوى ويذكر ابن الزقاق إخوانه وهو مضطجع في ثراه، أنه كان معهم في صفو من العيش، ثم يختتم مقطوعته طالباً من إخوانه أن يترحموا عليه ، وذلك من الوفاء للأصدقاء، يقول[٢]:

أَإِخوانَنـــا، وَالمـــوتُ قَـــد حَـــالَ بَيْنَنَـــا	وَلِلمَـــوتِ حُكْـــمٌ نافِـــذٌ فِـــي الخَلائِـــقِ
سَـــبَقْتكُم للمَـــوتِ، والعُمْـــرُ طَيَّـــةٌ	وَأَعْلَـــمُ أَنَّ الكُـــلَّ، لا بُـــدَّ لاحِقَـــي
بعَيـــشِكُمُ أَو باضْـــطِجاعِي فِـــي الثَّـــرى	أَلَم نَـــكُ فِـــي صَـــفوٍ مِـــن العَـــيشِ رائِـــقِ
فَمَـــن مَـــرَّ بِـــي فَلْـــيمضِ بِـــي مُتَرَحِّمـــاً	وَلا يَـــكُ مَنـــسيَّاً وفَـــاءُ الأَصَـــادِقِ

وقد حرص أبو بكر الكتندي[٣] على أن لا يموت غريباً دون أن يفوز بالتسليم والترحم عليه، من قبل كل من يمرّ بقبره، بعد أن جدّ في طلب الرحلة، متوكلاً على الله، يقول[٤]:

حَـــيِّ قَبْـــراً بِـــالبَقِيْعِ حَـــوى	ذا اغْتِـــرابٍ حَـــطَّ أَرْحُلَـــه
جَـــدَّ فِـــي تَـــسيَارِهِ وَجَـــرى	طَلقـــاً مَـــا شَـــاءَ طَوَّلَـــه
فَهُـــوَ قَـــد أَلقَـــى عَـــصَاهُ وَلَـــمْ	يَـــدَّخِر إِلاَّ تَوكلـــه

(١) المقري، **نفح الطيب**، ج٤، ص٣٤٢.
(٢) البلنسي، ابن الزقاق، **الديوان**، ص٢٠٥.
(٣) أبو بكر الكتندي: محمد بن عبد الله بن عبد العزيز بن أبي العافية الكتندي الغرناطي، ولد سنة ٥٠٦هـ، ولقبه الكتندي نسبة إلى مدينة كتندة من كورة سرقسطة التي كان أهلها منها. كان أديبا وكاتبا وشاعرا مجيدا ذا معرفة باللغة حسن التغزل والرثاء. (الطريفي: شعراء العرب في المغرب والأندلس، ص٣٠٤).
(٤) ابن خميس، **أدباء مالقة**، ص٨٩.

وقد رثى ابن الزقاق نفسه مرةً ثانيةً، ولكن هذه المرة يرد على الشامتين بموته، فلا يقف معتبراً عند قبره بل ليسأل عن تقلبات هذه الدنيا، ويسأل عن حاله، ويعتذر عنها إن لم تفصح، فعَبرتها تجيب عن السؤال(١)، يقول(٢):

أَلا يَـــا واقِفـــاً بِـــي عِنـــدَ قَبْـــرِي	سَـــلِ الأَحْـــداثَ عَـــن صِـــرْفِ الليـــالي
وعَـــن حَـــالِي فـــإن عَيَّـــت جَوابـــاً	فَعبرتُهـــا تجيـــبُ عَـــنِ الـــسُّؤال

ثم يوجه ابن الزقاق خطابه الشعري للشامتين ويسميهم "الأعداء"، ويبين لهم أنهم سيلقون ما لقي، وينقلون إلى ما نقل إليه، ثم يستهزئ بشماتتهم، لأنه يترك الدنيا لأصحاب الأمل الطويل، ويرتحل عنها، و يختم مقطوعته مبينا أنه كان يقيم بين الناس، وقد سار إلى رب العزة المهيمن، وهذا لا شك سيسير له الجميع، يقول في ذلك(٣):

لَـــئِن شَـــمت العَـــدُوُّ بِنـــا فَمَهْـــلاً	سَـــــينقلُ للـــــصفائحِ كانْتِقـــــالي
وَأَيّ شَـــــماتَة فـــــي تَـــــرك دُنيـــــا	لـــــذي أَمَـــــلٍ رَأى عَنْهـــــا ارتحَـــــالي
وَكُنْـــتُ أُقـــيمُ بَـــين النَّـــاسِ فيهَـــا	فَـــسِرتُ إِلى المُهَـــيْمنِ ذي الجَـــلالِ

وهكذا يتضح أن فكرة الموت والفناء قد أرقت الشاعر الأندلسي ، فلم يتوان في رثاء نفسه تارة ، أو موصيا ذويه تارة أخرى، أن يكتبوا بعض المقطوعات الشعرية التي نظمها في حياته لتكون على قبره، مبينا فيها فلسفته الخاصة تجاه الحياة والموت .

وقد يكون السبب الحقيقي في كتابة الشواهد الشعرية على القبور، أن الشاعر الأندلسي محبٌ للحياة متمسكٌ بها، غيرُ زاهدٍ في الدنيا وملذاتها ،وإن زعم ذلك ، ويميل إلى تخليد ذكره وبقاء اسمه ، وحفظ مآثره لذلك سطر أبياتا وأوصى أن تكتب على ضريحه.

---

(١) رحيم، مقداد، **رثاء النفس في الشعر الأندلسي**، ص١٠٣.
(٢) البلنسي، ابن الزقاق، **الديوان**، ص٢٤٧-٢٤٨.
(٣) المصدر نفسه ، ص٢٤٨.

الفصل الثالث

رثاء الشخصيات العامة

أولاً : رثاء الملوك

ثانياً: رثاء الأمراء

ثالثاً: رثاء الرؤساء الوزراء

رابعاً: رثاء العلماء

خامساً: رثاء القادة

سادساً: رثاء آل البيت

المبحث الأول: رثاء الملوك:

واكب الشعر في الأندلس أحداث العصر ومتطلباته ، وما طرأ عليه من تغيير سببه الموت الذي يغير مسار الدولة بوفاة ملك ، وإحلال آخر ، وفي مثل هذه الحالة ينظم الشعراء الرثائيات التي تجمع بين العزاء والتهنئة ، ليؤبنوا الفقيد، ويمجدوا الجديد. وغالبا ما يكون ذلك بسبب تحول الخلافة من نظام الشورى إلى نظام الوراثة .ولكننا في الأندلس قد نجد ملوكا أو ملكا رثي ولم يتول مكانه أحد من أبنائه بل إنه أسر وسجن ، وقد اختتم حياته بمأساة تناولها الشعراء ، وأكثروا الحديث عنها ، وكان لها النصيب الأكثر ، والحظ الأوفر من الرثاء أعني الملك المعتمد بن عباد.

ولنا أن نتساءل هل كان الشعراء محقين في إكثارهم من رثاء المعتمد، وكأنهم يصوِّرون دولة المرابطين، وعلى رأسها يوسف بن تاشفين دولة نكبات؟ أم هل طغت مصلحة الفرد على الجماعة؟ أم أن أفول نجم المعتمد كان يمثل في نفوس طائفة كبيرة من الناس حقيقة المأساة، أكثر مما تمثله النكبات المتلاحقة التي تخطفت المدن، وزعزعت السيادة العربية عامة؟ أم أن قصة "العزيز الذي ذلَّ" كانت تثير العواطف أكثر مما يثيرها ضياع أجزاء عزيزة من الوطن؟ وما ذلك إلا لأن الشاعر الأندلسي ربط مقدراته بالفرد الحامي، فلما فقد هذا الفرد، أدركه اليأس الغالب[١].

وقد شارك في رثاء المعتمد بن عباد مجموعة من الشعراء من أشهرهم "أبو بكر محمد بن عيسى الداني" المعروف بابن اللبانة ، الذي كانت له غير قصيدة في رثاء المعتمد ، وأول قصائده تلك القصيدة التي سجل فيها بدموعه لحظاتِ رحيل المعتمد وأهل بيته قسرا وقهرا إلى أغمات على ظهر السفن التي مخرت بهم عباب الماء بين نحيب الناس وعويلهم والتي يبدؤها بقوله[٢] :

تبكي السماءُ بِدمعٍ رائحٍ غادي على البهاليل من أبناءِ عبادِ

---

(١) عباس، إحسان، (د.ت). **تاريخ الأدب الأندلسي، عصر الطوائف والمرابطين.** (ط٧)، بيروت: دار الثقافة، ص١٨٨.

(٢) الداني ، **الديوان** ، ص١٣٨.

أما ابن حمديس فقد شارك في رثاء صاحبه، وولي نعمته، إلا أنه يفترق عن ابن اللبانة بشيء من التأمل العابر والتفاؤل العارض الذي كان يُنظر به إلى مأساة المعتمد، فهو يعزيه بما يصيب الأسد حين تحبس[١]، يقول[٢]:

جَرى بِكَ جَدٌّ بِالكِرامِ عَثُورُ ... وَجارَ زَمانٌ كُنْتَ فيهِ تُجيرُ
لَقد أَصْبحَتْ بِيْضُ الظِّبا في غُمُودِها ... إناثاً لِتَركِ الغابِ وَهيَ ذُكُورُ
وَقَد تنتَحِي السَّاداتُ بَعْدَ خُمولِها ... وَتَخْرجُ مِن بَعْدِ الكُسوفِ بُدُورُ

ولا ينسى ابن حمديس أن يعرِّج على فضائل آل عبّاد، وما لهم من مآثر أهمها صون الدين، وحفظه، والإشادة بكرم المعتمد، فرحيله كان يمثل قيام الساعة، يقول[٣]:

لَقَد صُنْتَ دينَ اللهِ خَيْرَ صِيانَةٍ ... كَأَنَّكَ قَلْبٌ فِيْهِ وَهُوَ ضَميرُ
ولَمَّا رَحلتُم بالنَّدى في أَكُفِّكُم ... وَقُلقِلَ رَضْوى مِنكُمُ وَثَبيرُ
رَفَعْتُ لِساني بِالقِيامَةِ قَد دَنَت ... أَلا فانْظُروا هَذي الجِبالَ تَسيرُ

وسندرس المعتمد بن عباد في شيء من التفصيل ، وذلك عند الحديث عن رثاء الدول والممالك.

ومن الملوك الذين قيلت فيهم قصائد تصوِّر موتهم يوسف بن تاشفين، منقذ الأندلس، ومعيدها إلى حظيرة المسلمين فقد توفي يوسف بمدينة مراكش يوم الإثنين، مستهل محرم سنة خمسمائة[٤]. ورثاه أبو بكر بن سوّار[٥]، وقال قصيدته على قبره، وهنا نلحظ أنه من عادة الأندلسيين أن يقرأوا قصيدهم على قبور موتاهم، خصوصاً إن كانوا من الملوك، كما سيمر معنا في رثاء المهدي بن تومرت.

---

(١) عباس، إحسان، **تاريخ الأدب الأندلسي عصر الطوائف والمرابطين**، ص١٩١.
(٢) ابن حمديس، **الديوان**، ص٢٦٨.
(٣) المصدرنفسه ، ص٢٦٩.
(٤) المراكشي، **البيان المغرب**، (تحقيق ومراجعة: إحسان عباس)، ط٣، ج٤، ص٤١١.
(٥) محمد بن سوّار: محمد بن سوّار الأشبوني أبو بكر أسره الروم بمدينة موزية مدةً من الزمن، ثم فداه أحد بني عشرة أعيان سلا فأكثر من مدائحه. انظر البيان المغرب، ج١، ص٤١١.

وقد بيَّن أبو بكر بن سوّار في رثائه يوسف أنه ملك الملوك، وفي الشطر الثاني أشاد بتقوى يوسف، ومن ثم شبَّه يوسف بيوسف النبي، وصوَّر رعية يوسف بن تاشفين وحزنهم عليه كحزن يعقوب، و دعا له بالخير، يقول(١):

مَلِــــك المُلُــــوكِ وَمَــــا تَرَكْــــتَ لِعَامِــــلٍ ... عَمَــــلاً مِــــنْ التَقْــــوَى يُــــشَارِكُ فِيــــهِ
يــــا يُوسُــــفُ مَــــا أَنْــــتَ إلاّ يوسُــــفُ ... وَالكُــــلُّ يعقــــوبُ بِمَــــا يَطوِيــــهِ
جُوزِيــــتَ خَــــيراً عَــــن رَعِيتِــــكَ الَّتِــــي ... لَــــمْ تَــــرْضَ فيهَــــا غــــيرَ مَــــا يرضِــــيهِ

ثم يشير إلى مساعي يوسف التي تخرج عن التكييف والتشبيه، ووقائعه بالروم،التي كان لها أكبر الأثر في كسر شوكتهم ، وفنائهم ، وإردائهم، يقول(٢):

أَمَّــــا مَــــسَاعِيْكَ الكِــــرَام فَإِنَّهَــــا ... خَرَجَــــتْ عَــــن التَكيِيــــفِ وَالتَــــشبِيهِ
فِــــي كُــــلِّ عَــــامٍ غَــــزوَةٌ مَبْــــرُورَةٌ ... تــــردي عَديــــد الــــرُّومِ أَو تَفنِيــــهِ

ويبين الشاعر أن التواضع من الصفات التي يتحلى بها المرثى، وأفعاله لا تكاد تحصيها الأيام، والجميع مفجوع لفقدان هذا الملك، ويشير الشاعر إلى حمام الأيك الذي طالما ذكره الشعراء الأندلسيون في مراثيهم ويصوّره باكياً على المرثي، فيقول(٣):

وَلقَــــد مَلكــــتَ بحَقِّــــكَ الــــدُّنيَا وكَــــمْ ... مَلَــــكَ المُلُــــوْكُ الأَمْــــرَ بالتَموِيــــهِ
لَــــو رامَــــت الأَيَّــــامُ أَنْ تُحــــصِي الَّــــذي ... فَعلَــــتْ سُــــيوفُكَ لَــــمْ تَكَــــدْ تُحــــصِيهِ
إِنَّــــا لَمفْجُوعــــونَ فِيــــك بِواحِــــدٍ ... جَمَعــــتْ خِــــصالَ الخَــــيرِ أَجْمَــــع فيــــهِ

وإذا سَــــمِعْت حَمامَــــةً فِي أَيْكَــــةٍ ... تَبكــــي الهَــــديل فَإنَّهــــا ترثيــــهِ

---

(١) المراكشي، (١٩٨٣). **البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب**. (تحقيق ومراجعة إحسان عباس)، (ط٣)، بيروت: دار الثقافة، ج٤، ص٤١١.
(٢) المصدر نفسه، ج٤، ص٤١١.
(٣) المصدر نفسه، ج٤، ص٤١١.

ولا يفوت الشاعر أن يهنىء علي[١]بالملك بعد أبيه، مبيناً أن هذا الشبل من ذاك الأسد، يقول[٢]:

وإذا هزبْـــرُ الغَـــابِ صَـــرَّى شِـــبله ... في الغـــاب كَـــان الـــشِّبْلُ شـــبهَ أَبيـــهِ
وإذا عَلـــــيٌّ كَـــــان وارث مُلكـــــهِ ... فَالـــسَّهمُ يُلقـــى فِـــي يَـــدِ باريـــهِ

ومن المرابطين ننتقل إلى الموحدين الذين تمثل الرثاء الرسمي عندهم في قصيدة لأبي مروان بن خالد، وهي واحدة من قصائد متعددة نظمها الشعراء بتكليف من الخليفة يوسف بن عبد المؤمن، حين زار قبر المهدي وقبر أبيه عبد المؤمن، وأظهر الإيحاش إليهما، وسكب عبراته عليهما، وأمر الشعراء أن يرثوهما، ويذكروا غُرَّ فضائلهما، يقول أبو مروان[٣]:

مَجَـــاري عُيُـــون المُـــسلمينَ تَـــسيلُ ... دَمَـــاً وَنَجيْعـــاً وَالـــدُّموعُ هُمـــولُ
أَلَـــمْ تَـــرَ أَنَّ الـــدَّهْرَ قَـــد عَـــمَّ صِـــرْفُهُ ... فَفِـــي كُـــلِّ دَارٍ أَنَّـــةٌ وَعَويـــلُ
أَحَقّـــاً أَمـــيرَ المـــؤمنينَ إمامَنـــا ... مَحَـــا القَمَـــر الـــدِّيني منـــهُ أُفـــولُ
أَقَـــامَ بِـــأَعْلى (تينمـــال) وَإِنَّمَـــا ... إلى جانـــبِ المَهـــدي منـــهُ نـــزولُ
فَطـــوبى لأَرضٍ حَـــلَّ فيهـــا إمَامـــهُ ... وَلِلَّـــه مَهْـــديٌّ بِهَـــا وَخَليـــلُ
فَحَقـــاً لأَهـــلِ الـــدِّينِ سَـــكْبُ دُمُـــوعِهِم ... وَحَقـــاً لِكُـــلِّ المُـــؤمنينَ ثُكـــولُ

ويعلق الدكتور فوزي سعد على الأبيات السابقة بقوله: "...إنهامجتزأة حافلة بمظاهر الضعف والقصور، فالمعاني مهلهلة، والألفاظ ساذجة قصيرة الرشاء، ولك أن تستخرج ما شئت من مظاهر الضعف، فأي جمالٍ في تشبيه العيون بالمجاري التي تسيل؟ وما فائدة الجمع بين ألفاظ تؤدي معنىً واحداً، دون أن تضيف شيئاً جديداً، وما الداعي لقوله (الدموع هموله)، بعد تشبيه الدموع بالدم والنجيع؟ ثم انظر إلى التكلف في قوله (محا القمر)"[٤].

---

(١)علي بن تاشفين : هو أمير المسلمين بالعدوة ، والأندلس بعد أبيه ، يكنى أبا الحسن ، تصير إليه الملك بالعهد من أبيه عام سبع وثلاثين وتسعين وأربعمائة ، ثم ولّي يوم وفاته ، وهو يوم الاثنين مستهل محرم عام خمسمائة ، توفي سنة ٥٣٧هـ ، وعمره ٦١ / الإحاطة في أخبار غرناطة مج٤ ــ ص٥٨ــ٥٩.

(٢) المراكشي، **البيان المغرب**، ج٤، ص٤١١.

(٣) المصدر نفسه ، ج٤، ص١٤٨.

(٤) عيسى، فوزي سعد، **الشعر الأندلسي في عصر الموحدين**، ص٢٢٢.

ثم يعلل ضعف الأبيات بأن الشاعر يداري ضعفه بتكرار جمل تنبئ عن عجزه وقصوره، والقارئ يشعر بفقدان الصلة العاطفية بين الشاعر وموضوعه، وكأن هناك مسافة بعيدة تقوم بينهما(١).

وتعد القصيدة السابقة خير دليل على مدى الضعف والفتور الذي يتصف به هذا اللون من الرثاء الرسمي، وذلك أن صاحب الصلاة اختار هذه القصيدة باعتبارها أجود ما قيل في هذه المناسبة.

ومن صعب الرثاء أيضاً جمع تعزية وتهنئة في موضع(٢)، وقد تنبّه لهذا الصعب ابن الأبّار عندما رثى أبا زكريا الحفصي، وهنّأ المستنصر بالخلافة بقصيدة وصلت أبياتها إلى ثمانية وخمسين بيتاً، فقد أظهر ابن الأبّار في مرثيته حزنه على الخليفة، واصفاً إيّاه بناصر الإسلام، وإن موته داهية أصابت الخليفة، يقول(٣):

بِيَنِي ثَلاثاً سَلوَةَ الأَيَّامِ ... أَودَى الحِمَامُ بِنَاصِرِ الإِسلامِ
وَدَعَا دَعامَتَه إِلى تَعوِيضِهَا ... تَأسِيسُهُ بِالتُّرْبِ دَار مُقَامِ
وَدَهَى الوَرَى مِن ثُكلِ هَادِيهِم بِمَا ... أَعْيَا عَلَى الإِفْهَامِ وَالأَوهَامِ
وَتقاضَتِ الأَجْفَانُ حُمْرَ دُمَوعِهَا ... فَمِنَ القُلُوبِ عَلَى الخُدُودِ دَوامِ

ونلحظ في القصيدة تكلفاً ينبئ عن قصور من الشاعر، وتصنعاً، دفع الشاعر إلى البديع ليواري ضعفه، فمثلاً في قوله(٤):

فَلَو التَفَتَّ لَقُلتَ: شِرْبُ مُدَامِ ... وَلَو استَمَعتَ لَقُلْتَ: سِربُ حَمَامِ

فما الجامع بين شرب المدام، وسرب الحمام إلا الصنعة البديعية؟!.

ومن المبالغات التي جاء بها ابن الأبّار تساؤله عن النجوم والجبال والبحار، لِم لَم تحزن على الخليفة فتغور وتغوص من شدة الألم وفداحة الأمر، وقد جاءت الأبيات خالية من الذائقة الجمالية، يقول(٥):

---

(١)عيسى، فوزي سعد، **الشعر الأندلسي في عصر الموحدين**، ص٢٢٢.
(٢) ابن رشيق، **العمدة** ، ص٤٣٣.
(٣) ابن الأبّار، **الديوان**، ص٢٦٢.
(٤) المصدر نفسه، ص٢٦٣.
(٥) المصدر نفسه ، ص٢٦٣.

مَـــا لِلنُّجـــومِ طَوالعـــاً؟ مـــا لِلجِبَـــا ... لِ رَواســـيا؟ مَـــا لِلبحـــارِ طَـــوامِي
لِمَ لَمْ تَغُر، لِـمَ لَـمْ تَـزلْ، لِـمَ لَـمْ تَغُـصْ ... مِـــنْ شِـــدَّةِ الحَـــسَراتِ والآلامِ

ويعود الشاعر للمستنصر ليهنئه بالخلافة، ويبين أن ما هوّن مصاب أبي زكريا هو خلافة المستنصر، فيقول[١]:

يَـــا فَـــوزَهُم بِخلافَـــةٍ تَعنُـــوا لَهـــا ... خُلَفَـــاءُ بَيتِـــي هَاشِـــمٍ وَهِـــشَامِ
قَـــسَماً بِـــهِ لَـــولا خِلافَـــةُ نَجْلِـــهِ ... لَغَـــدى الهُـــدى نَثْـــراً بِغَـــيرِ نِظـــامِ

ويبشّر ابن الأبّار بالدولة الحفصية، المنصورة على مَن عاداها[٢]:

بُـــشرى الأَنَـــامِ بِدَولَـــةٍ حَفْـــصِيَّةٍ ... مَنْـــصُورَةِ الرَّايـــاتِ وَالأَعْـــلامِ

ثم يصرح أنه المهني والمعزي، والمتأثر بأبي تمام في قصديته التي مدح بها الواثق، وعزّاه بالمعتصم، ، يقول[٣]:

كَنْـــتُ المُطيـــلَ مُهَنِّئـــاً وَمُعَزِّيـــاً ... وَ لَكِـــن كَفَانِيهَـــا أبـــو تَمَّـــامِ
تِلـــكَ الرَّزِيـــةُ لا رَزِيَّـــةٌ مِثلـــهَا ... وَالقِـــسْمُ لَـــيسَ كَـــسَائِرِ الأَقـــسَامِ

ويتضح لنا مما سبق أن رثاء الملوك في عصري المرابطين والموحدين، يغلب عليه الضعف والفتور والتكلف، إذا ما استثنينا المراثي التي قيلت في المعتمد بن عبّاد، ومرد ذلك إلى أن الشعراء في رثائهم للمعتمد كانوا ينظمون على الوفاء، وكانت عواطفهم تجاهه صادقة، وأن مصيره المأساوي قد حرّك فيهم الشعور الصادق، إلى جانب أن المعتمد نفسه كان شاعراً.

---

(١)ابن الأبار، **الديوان** ، ص٢٦٤.
(٢) المصدر نفسه، ص٢٦٥.
(٣) المصدر نفسه، ص٢٦٥.

المبحث الثاني: رثاء الأمراء:

كان للأمراء نصيب من الرثاء الرسمي في عصري المرابطين والموحدين ، وقد ذكر الشعراء في قصائدهم ما كان للأمير من كرم وشجاعه ورأي، وما شاكل ذلك من الخلال والصفات.

ومن الأمراء الذين رثاهم أبو بكر الداني الأمير نَمِيٌّ بنُ زياد، و جاءت رثائية أبي بكر الداني في تسعة عشر بيتاً. بدأها بالاستفهام، وأظهر فيها أسفا على الأمير وعدَّ فقده فاجعة للنعاة. وقد أضفى الشاعر على ممدوحه صفات الشجاعة والفروسية، وأشرك الطبيعة في البكاء عليه، يقول(١):

أَتَــــدري مَــــن بكتـــهُ البَاكِيَـــاتُ　　　وَمَـــنْ فُجعَـــت بِمَـــصْرَعِه النُّعَـــاةُ
أَلا فُجِعـــت بِـــأَبْلَج مِـــن هِـــلالٍ　　　عَلَيـــهِ لِكُـــلِّ مَعْلُـــوَةٍ سِـــمَاتُ
بِحَيـــثُ تُكنُّـــهُ الـــسُّمرُ العَـــوالِي　　　وَتَكْنفُـــهُ الجيـــادُ الـــصَّافِناتُ

ويعود الشاعر إلى الحقيقة التي لا مفرّ منها، وهي أن الموت لا يرد، ولا يدفع، وإن كثر المؤسون، يقول(٢):

رَمَتـــهُ يَـــدُ الحمَـــامِ فَأَقْـــصدته　　　وَلَـــمْ تُغْـــنِ العَوَائِـــدُ وَالأُسَـــاةُ

وللوزير أبي بكر بن الصائغ – رحمه الله – رثاء في الأمير الأجل، أبي بكر بن إبراهيم، وقد ذكر أنه لحنه لحناً يطابق معناه، فما غنى به أحد إلا أبكاه، يقول:(٣)

يـــا صَـــدَىً بِـــالثَّغْرِ جَـــاوَرَهُ　　　رِمَـــمٌ بُوْرِكَـــتْ مِـــنْ رِمَـــمِ
صَـــبَّحَتْك الخَيْـــلُ غَادِيَـــةً　　　وَأَثَارتـــكَ فَلَـــمْ تَـــرِمِ
قَـــد طَـــوى ذا الـــدَّهر غُرَّتَـــهُ　　　عَنْـــكَ فَـــالبسْ حُلَّـــةَ الكَـــرَمِ

ومن الظواهر الجديرة بالتسجيل في الرثاء في هذا العصر تلحين بعض المراثي

(١) الداني، الحكيم، **ديوان الحكيم**، ص٦٣.
(٢) المصدر نفسه، ص٦٣.
(٣) ابن خفاجة، **الديوان** ٥٨، وانظر : ابن خاقان : القلائد ٣-٤ ص٩٤٠.

للمناحة[١]، فقد نظم الشاعر الفيلسوف أبو بكر بن باجة[٢] عدة مقاطع يرثي بها الأمير أبا بكر بن إبراهيم ،وركب عليها ألحاناً شجية، ولقنها فتيات ينحن بها على الأمير الفقيد، يقول فيها[٣]:

سَـــــلامٌ وَإِلَمـــــامٌ وَوَسمـــــي مزْنَـــــةٍ ... عَلَـــى الجَـــدَثِ النَّـــائي الَّـــذي لا أَزورُهُ
أَحَـــقٌ أَبـــو بَكْـــرٍ تَقْـــضَّى فَـــلا تُـــرَى ... تـــــردُّ جَمَـــــاهِيرَ الوفُـــــودِ ســـــتورهُ
لَـــئِن أَنـــسَت تِلـــكَ القُبُـــورُ بِقَبْـــرِهِ ... لَقَـــد أَوحَـــشت أَمـــصَارُه وَقُـــصورهُ

ويتبين لنا مما سبق أن شعراء الأندلس استطاعوا أن ينظموا أشعار المناحات على الأمراء وما هذا إلا لأن الشاعر أجاد في هذا النوع من الرثاء ، ونرى أيضا أن المناحة قد تكون من التقاليد المتبعة في ذلك الزمن وخصوصا في الرثاء الرسمي .

وقد كان لهارون بن عبد الله بن هارون[٤] قصيدةٌ في رثاء ابن القاسم، ابن الرئيس أبي علي بن خلاص المتولى على سبتة حينئذٍ، فقد أرسل ولده المذكور إلى هذه الحضرة العلية، فغرق تحت الليل في الغراب الميمون، وكاد أن يخرج الحزن بوالده عليه إلى حد الجنون[٥].

ووصل من المرثية التي قالها الشاعر في رثاء ابن القاسم أربعة أبيات يقرر فيها الشاعر حقيقة الموت، وأنه رزءٌ لا يبقي على عزيز إلا ويصيبه، وأن فقدان ذلك الابن الأمير أمر جلل، يقول[٦]:

هُـــوَ الـــرَزءُ مـــا أبقـــى عَزيـــزاً وَلا صَـــبرا ... دُهينَـــا مِـــنَ الأَيَّـــامِ بِالبَطـــشَةِ الكُـــبرَى
حَقيـــــقٌ عَلينَـــــا أَنْ تَـــــسيلَ نُفوســـــنا ... دَماً مِن دُمـــوعٍ مَازَجـــت حُزنَهـــا القَطـــرا
وَإِن نَهـــــب الـــــدُّنيا نَـــــضَارةَ عَيـــــشنَا ... وَإِنْ كَـــانَ عَيْـــشاً لا شَـــهِيّاً وَلا نَـــضرا
أَبَـــا قَاسِـــمٍ لَهْفـــي عَلَيـــكَ، وَإِنَّنـــي ... لِفَقْـــدِكَ، لا أنفـــك ذا كَبـــدٍ حَـــرَّى

---

(١) انظر: عبد الكريم، مصطفى عوض، **الأدب الأندلسي في عهد المرابطين**، ص٦٩.
(٢) أبو بكر بن باجة: هو أبو بكر محمد بن الحسين بن باجة، فيلسوف الأندلس وإمامها في الألحان، كان جليل القدر، استوزره أبو بكر إبراهيم.الأصفهاني، عماد خريدة القصر وجريدة العصر ، القسم الرابع، ج٢، تحقيق: عمر الدسوقي، وعلي عبد العظيم، دارنهضة مصر للطباعة والنشر ، القاهرة ــ الفجالة، ص٢٨٣.
(٣) الأصفهاني ، خريدة القصر وجريدة العصر ، القسم الرابع، ج٢،ص٢٨٣.وابن خاقان:القلائد٣-٤،ص٩٤٣.
(٤) هارون بن عبد الله بن هارون: من كتاب إشبيلية ، واشتهر بالكتابة عن أبي عمران بن أبي يعقوب بن عبد المؤمن والي بجاية. انظر ترجمته في اختصار القدح، ص١٤٥.
(٥) ابن سعيد، **اختصار القدح العلى**،ص١٤٥.
(٦) المصدر نفسه، ص١٤٥.

المبحث الثالث: رثاء الوزراء والرؤساء:

كان للرؤساء والوزراء نصيب من الرثاء الأندلسي تمثل في بعض القصائد التي يشير قائلوها إلى أن المرثى صاحب رئاسة. ومن هذه القصائد ما نظمه ابن سهل في أبي العباس، في مرثيته التي وصلت أبياتها إلى ثلاثةٍ وثلاثين بيتاً، يبدؤها بنظرة فلسفية تأملية في الموت، مصورًا الزمان يريد الثأر من الكرام، ويصوّر الدنيا فانيةً، تهدّم الأعمار، يقول(١):

يَشقَى بريبِ زَمَانِهَا الأَحرَارُ ... هَل للزَّمَانِ لَدَى المَكَارِمِ ثَارُ
سُوقُ الرَّدى مَا زالَ يَكسدُ عِندَها ... خبثٌ وَتنفقُ فَضَّةٌ وَنضَارُ
دُنْيَاكَ دَارٌ لَمْ تَزَلْ تفنَى بِهَا ... نُوَبُ الخُطُوبِ وَتُهدَمُ الأَعمَارُ
نَضَت المَنِيَّةُ عَنْهُ ثَوب حَياتِهِ ... هَا إِنَّمَا ثَوبُ الحَيَاةِ مُعَارُ

ثم يصوِّر الشاعر حزنه وألمه لفقد المرثى، وكيف أن نهارَه صار ليلاً من الوحشة، وليله صار نهاراً من السُّهد، يقول(٢):

هذا نَهاري مِنْ تَوحُّشِ فَقْدِهِ ... لَيْلٌ وَلَيلي بالسُّهَادِ نَهارُ

و يصور الشاعر وحدته، وغربته وكأن الدنيا أقفرت من الناس والعمران ،ثم يبين الأثر الذي خلّفه غياب الفقيد على عيونه التي صارت تسيل على خديه رغم تصبره ، يقول(٣):

أَمسَيتُ فِي الدُّنيَا فريداً بَعْدهُ ... فَكَأَنَّمَا عُمرانُها إِقْفَارُ
وَمَحت جَميلَ الصَّبْرِ مِنِّي عَبرَةٌ ... خُطَّت بِهَا فِي صَفحَتي آثَارُ

ويهنئ الشاعر الثرى الذي ضم أبا العباس، بعد أن صوَّر المنايا قد حققت شيئاً عظيماً عندما أخذته، ويبين أن جسده دُرَّةٌ ، وقد حلت هذه الدرة في الثرى ، يقول(٤):

حَسبُ المَنايا أَنْ تَفُوز بمثلِهِ ... قُطْباً عَليهِ للعلاء مدارُ
يهنى الثرى أَن صَارَ فِيهِ لَحْدُهُ ... فَبخدِّهِ شَرَفٌ لَهُ وَفَخارُ
صارَ الثَرى صَدَفاً لِدُرَّة جِسْمِهِ ... إِذْ غَرَّقَتهُ مِن المنونِ مِنهُ بِحَارُ

---

(١)ابن سهل، **الديوان**، ص١٣٢.
(٢) المصدر نفسه ، ص١٣٣.
(٣) المصدر نفسه، ص١٣٣.
(٤) المصدر نفسه، ص١٣٣-١٣٤.

ولا يفوت الشاعر أن يمدح المرثي بما يليق به ، فقد كان التاج يتلألأ بين مفرقيه والعلياء تحيط به إحاطة السوار بالمعصم ، ولكن الرئاسة لم تدم ،والملك لم يستقر فقد ولّى الرئيس وبقيت الرئاسة حزينة كئيبة مضطربة لفراق صاحبها ، ثم يصور المجد يسير تحت سرير المرثي، وهو يساق إلى نعشه ، ويبين أن فؤاده وجفنه يعتبران بموته ،يقول في ذلك[١]:

قَد كَانَ رَأسُ المُلْكِ منهُ مُتَوَّجاً ... وَبِمعصَمِ العَلياءِ منهُ سِوارُ
إنَّ الرِئاسةَ بَعدَهُ لَكَئِيبَةٌ ... مَا إن يَقِرّ بِها الغَدَاةَ قَرارُ
وَلَّى وَسَارَ المَجدُ تَحتَ سَرِيرِهِ ... أَسَفُ الفُؤادِ لِجفنِهِ استِعبارُ

ويصوّر ابن سهل ممدوحه وكأنه القمر الذي يكسف إذا اكتمل، يقول[٢]:

عُوجِلتَ لَمَّا تَمَّ حُسْنُكَ إِنَّما ... عِندَ التَّكَمُّلِ تُكْسَفُ الأَقْمَارُ

ويصوَّر البدر حزيناً عليه[٣]:

مَا اصْفَرَّ وَجْهُ البَدْرِ إلاَّ خِيفَةً ... مِمَّا رَمَتْكَ بِسَهْمِهَا الأَقدارُ

ويلمس القارئ في القصيدة بعض المبالغات التي تنبئ عن ضمان الجنة للمرثي وكأنه أمضى عمره ناسكا عابدا طائعا يعمل للجنة، لذلك ينتظره رضوان بشوق، أما حور العين فيتباشرن بلقائه [٤]:

سِر لِلجنانِ فَأَنتَ مِنْ وِلدانِها ... مَا هذِهِ الدُّنيَا لِمثْلِكَ دَارُ
رَضوَانُ مُنتَظِرٌ قُدومَكَ شَيِّقٌ ... وَلِحورِهِ بِلقائِكَ استِبْشارُ

فالشاعر فيما سبق يظهر التأثر بالقرآن الكريم ، ويظهر ذلك جلياً في المفردات التي استخدمها(الجنان ، وولدانها، ورضوان ؛وهو ملك من الملائكة موكل بالجنة،وحور العين اللائي يتباشرن بقدوم المرثي)، فجميع المفردات السابقة مستوحاة من القرآن .

وينهي الشاعر قصيدته داعياً لممدوحيه بالسقيا، فيسأل الله أن تجود سحائب الرحمة كما بكى عليه، أو ككرمه ، ثم يسلم عليه صباح مساء كلما ناحت الحمائم وسالت دموعه،

---

(١)ابن سهل، **الديوان**، ص١٣٤.
(٢) المصدر نفسه، ص١٣٤.
(٣) المصدر نفسه، ص١٣٥.
(٤) المصدر نفسه، ص١٣٥.

يقول[١]:

فَســـسَقاكَ مثـــل مَـــدامعي فِـــي فَيـــضها | أَو مِثـــل جـــودك وَابِـــلٌ مِـــدْرارُ
وَعَليـــكَ مِنِّـــي مـــا حَيِيْـــتُ تَحيَّـــةٌ | عمَـــرَت بِهَـــا الآصَـــالُ وَالأَبْكَـــارُ
مَـــا نَـــاحَ مِـــنْ شَـــجَنٍ عَلَيـــكَ حَمَـــائِمُ | وَتَفَجَّـــرَت مِـــن عَبْرَتِـــي أَنْهـــارُ

ولأبي بكر محمد بن أحمد الإشبيلي بيتان في رثاء السيد أبي عبد الله بن أبي حفص بن عبد المؤمن والي إشبيلية يصورّ فيهما أبا حفص بالكوكب الطالع ، ويصورّ موته بأنه ذهب إلى جهة الغرب فصار هاوياً، وقد يكون تشبيه حياة المرثي بالكوكب الطالع دلالة على عطاء المرثي، وكرمه وجوده ، ودلالة الشطر الثاني في البيت الثاني أن الموت أخذ المرثي فجأة وهو صغير السن ، متجدد العطاء ، يقول[٢]:

كَأَنَّكَ مِـــنْ جِـــنْسِ الكَوَاكِـــبِ كُنْـــتَ لَـــمْ | تفَـــارِقْ طُلوعـــاً حالَهـــا وَتَوَاريـــا
تَجَلَّيْـــتَ مِـــنْ شَـــرْقٍ تَـــرومُ تَلالِيَـــا | فَلَمَّـــا انتَحَيـــتَ الغَـــرْبَ أَصـــبَحْتَ هَاوِيَـــا

ولابن خفاجة قصيدة في رثاء الوزير أبي محمد عبد الله بن ربيعة – رحمه الله –، وكانا قد جمعت بينهما أدمة الشباب، ومحضر الكتّاب، وقراءة الحساب والآداب، فكانا من الانتظام والالتحام، بحيث لا يريان ينفصلان، حتى افترقته الوفاة بعقب وفاة جملة من إخوانهما وأقرانهما.

وقد جاءت قصيدة ابن خفاجة في خمسة وعشرين بيتاً، أشرك فيها الشاعر "الجنان" الطبيعة في رثاء صاحبه، وهذا نابع من تأثير البيئة الأندلسية في شعر ابن خفاجة، يقول[٣]:

فِـــي كُـــلِّ نَـــادٍ مِنْـــكَ رَوْضُ ثَنـــاءٍ | وَبِكُـــلِّ خَـــدٍّ فِيْـــكَ جَـــدْوَلُ مَـــاءِ
وَلِكُـــلِّ شَـــخْصٍ هِـــزَّةُ الغُـــصنِ النَـــدِي | غِـــبَّ البُكَـــاءِ وَرَنَّـــةُ المكـــاءِ

(١) ابن سهل، **الديوان**، ص١٣٥–١٣٦.
(٢) ابن سعيد، **اختصار القدح المعلى**، ص١١٩.
(٣) ابن خفاجة، **الديوان**، ص١٧٨.

بعد ذلك، يخاطب الشاعر المرثى بأنه مطلع الأنوار، مبيناً أسفه على موته، مشبهاً موته بمطلع الأنواء، وفي هذا نلحظ مدى حزن ابن خفاجة على المرثي ، فالشاعر يبدو متحسرا يقول(١):

يَـــــــامَطلعَ الأَنـــــــوَارِ إنَّ بِمُقلَتِـــــــي   أَسَـــــفاً عَلَيـــــكَ لِمَطْلَـــعِ الأَنْـــوَاءِ
وَكَفَـــــى أَسَـــــىً أَلاَّ سَـــفِيرٌ بيننـــــا   يَمْـــشِي وَأَلَّـــا مَوعِـــدٌ لِلِقَــــاءِ

ونلمح في القصيدة حزناً حقيقياً على المرثي، وكأن الشاعر قد أحسّ بدنو أجله، يقول(٢):

فَـــــإذا مَـــــرَرْتُ بِمَعْهَـــــد لِـــــشَبِيبَةٍ   أَو رَسْـــــمِ دارٍ للــــــصَّدِيقِ خَـــــلاءِ
جَالَـــــت بِطَـــــرفِي للــــصَّبَابةِ عَبْـــرَةٌ   كَـــــالغَيْمِ رَقَّ فَحـــــالَ دُونَ سَـــــمَاءِ

ولا ينسى ابن خفاجة أن يسأل الله الرحمة له وللمرثى، واصفاً ممدوحه أنه كان سيداً نجيباً، يقول(٣):

وَرفَعـــتُ كَفِّـــي بَـــيْنَ طَـــرْفٍ خاشـــعٍ   تَنْـــدَى مَآقِيْـــهِ وَبَـــيْنَ دُعَـــاءِ
وَبَـــسَطْتُ فِـــي الغَـــبرَاءِ خَـــدِّي ذِلَّـــةً   أَســـتنْزِلُ الرُحْمَـــى مِـــنَ الخَـــضْرَاءِ
مُـــــتَململاً أَلمـــــاً بِمَـــــصرَعِ سَـــــيِّدٍ   قَـــد كَـــانَ سَـــابِق حلبـــةِ النُجَبَـــاءِ

فالشاعر فيما سبق يدعو الله خاشعا باكيا ، ويبسط خده في التراب ذليلا سائلا الرحمة من واهبها ، وما ذلك إلا لكثرة الألم الذي ألم به من وفاة السيد النجيب السباق إلى الخير.

ولابن خفاجة قصيدة أخرى في رثاء الوزير أبي محمد بن ربيعة، جاءت في واحد وخمسين بيتاً، بدأها الشاعر زاهداً في ملذات الحياة، واصفاً إقبالها بالسراب، وأن كل ما فوق التراب تراب ، وقد أبدع الشاعر في وصف حيرته عندما استعار الليل ليدل على الحزن والقلق وصور الصباح واضعا النقاب على وجهه (٤):

أُقَلِّـــبُ طَـــرفِي لا أَرى غَيْـــرَ لَيلَـــةٍ   وَقَـــدْ حُـــطَّ عَـــنْ وَجـــهِ الـــصَبَاحِ نِقَـــابُ

---

(١) ابن خفاجة، ص١٧٨.
(٢)المصدر نفسه ، **الديوان**، ص١٧٩.
(٣) المصدر نفسه، ص١٧٩.
(٤) المصدر نفسه ، ص٢١٨.

و يتحسر الشاعر على أصحابه الذين تخطفهم الموت، وتركوه وحيدا في الدنيا و يبين أنهم ماتوا وهم شباب، ثم يتعجب من فتكة الموت بهم ، ويقول في ذلك[١]:

فَيـــا لَهُـــم مِـــنْ رَكـــبِ صَـــحْبٍ تَتـــابَعوا فُـــرادى وَهُـــم مُلْـــد الغُـــصونِ شَـــبَابُ

ويصوّر ابن خفاجة فيما سبق الموتَ وكأنه دعا هؤلاء الفتية، فلبّوا نداءه، ويصوّر أصحابه يتسابقون إلى الموت.

وبعد أن أفاض الشاعر في وصف حيرته وشكواه من الليالي وتقلباتها، عاد إلى المرثى، وفاءً لهذا الشخص، إذ يقول[٢]:

فَلـــستُ بنـــاسٍ صَـــاحباً مِـــن رَبيعَـــة إذا نَـــسيت رَسْـــمَ الوَفـــاءِ صِـــحَابُ
أَجَلْـــتُ طِبـــاعِي فِيـــهِ فَـــالأُنسُ وَحْـــشَةٌ طِـــوَالَ اللَّيَـــالِي وَالنَّعِـــيْمُ عَـــذابُ

ومما يسبب القلق لابن خفاجة أن أبا الربيع مات حتف أنفه، ولم يمت بين طعن القنا وضرب السيوف، كما يظهر في قوله[٣]:

وَمِمّـــا شَـــجانِي أَنْ قَـــضى حَتْـــفَ أَنْفِـــهِ وَمـــا انْـــدَقَّ رُمْـــحٌ دُونَـــهُ وَذُبـــابُ

ويشير الشاعر إلى الحزن الذي يعيشه، إذا زار قبر صاحبه، وكيف أن الشمس تصبح ظلماء، وتضيق عليه الأرض بما رحبت، ويكاد أن يحاور الحي الميت، ولكن هيهات أن يتكلم الموتى، يقول[٤]:

وَأَنّـــي إِذا يَمَّمْـــتُ قَبْـــرَكَ زائـــراً وَقَفْـــتُ وَدُوني لِلتُّـــرابِ حِجـــابُ
فَـــأَظلَمَ قَـــرْنُ الـــشَّمسِ وَهِـــيَ مُنيْـــرَةٌ وَضـــاقَت بِـــلادُ اللهِ وَهِـــيَ رِحـــابُ
وَلَـــو أَنَّ حَيّـــاً كـــانَ حـــاوَرَ مَيِّتـــاً لَطـــالَ كَـــلامٌ بَيْنَنـــا وَخِطـــابُ

ويشير ابن خفاجة إلى مدة جواره مع المرثى، وهي ثلاثون عاماً على حد تعبيره، فيقول:

---

(١)ابن خفاجة، **الديوان**، ص٢١٨.
(٢)المصدر نفسه ، ص٢١٩.
(٣) المصدر نفسه، ص٢١٩.
(٤) المصدر نفسه ، ص٢٢٠.

وَأَنّـــــا تَجارينَـــــا ثَلاثِـــــيْنَ حِقْبَـــــةً فَفَـــــاتَ سِـــــبَاقاً وَالحِمَـــــامُ قِـــــصَابُ

ثم يسلم الشاعر على روح صاحبه الذي قضى نحبه ، وأجهش ربعه . وبعد ذلك يبين الشاعر بعض صفات المرثي التي منها ، الذكر الحسن ، والعفاف ، وطلاقة الوجه، ويختم المرثية بالزهد في الدنيا، لأن نعيمها لايدوم ونهايتا إلى خراب، والسعي الحقيقي يكون للآخرة . يقول في ذلك[١]:

عَلَيْـــكَ سَـــلامُ اللهِ مِـــنْ صـــاحِبٍ قَـــضى فَـــأَجهَشَ رَبْـــعٌ بَعْـــدَهُ وَجَنَـــابُ
تَـــوَلّى حَمِيْـــدَ الـــذِّكرِ لَـــمْ يَـــأْتِ وَصْـــمَةً فَتَبْقَـــى وَلَـــمْ تَـــدْنَس عَلَيْـــهِ ثيـــابُ
أَغَـــرُّ طَلِيـــقُ الـــصَفحَتينِ كَأَنَّمَـــا وَرَاء تُـــرابِ القَبْـــرِ مِنـــهُ شِـــهَابُ
أَلا إِنَّ جِـــسْماً يَـــستَحِيلُ لِتُربَـــةٍ وَإِنَّ حَيَـــاةً تَنْتَهِـــي لخَـــرابُ
فَـــلا سَـــعْيَ إِلاَّ أَن يَكُـــونَ لآجِـــلٍ وَلا ذُخْـــرَ إِلاَّ أَن يَكـــونَ ثَـــوابُ

(١)ابن خفاجة، **الديوان**، ص٢٢٠-٢٢١.

المبحث الرابع: رثاء العلماء:

تتميز قصائد رثاء العلماء أنها تبين مكانة العلماء من المجتمع، فلا شك أنه لا خير في أمةٍ لا توقر علماءها؛ فهم عماد المجتمع، والذين تقع عليهم مسؤولية إعداد الأمة إعداداً صحيحاً، سليماً بعيداً عن الخرافات والأساطير والتبعية والتدمير. لذلك حظي العلماء بمكانة مرموقة في عصري المرابطين والموحدين، وشكّل فقدهم خللاً في بنية المجتمع.

ولنا أن نقف مع الشاعر الرصافي البلنسي[١] – الذي كان يتحلى بصفات العلماء – في رثاء أبي محمد عبد الله بن أبي العباس[٢]، فقد رثى الرصافي أبا العباس بقصيدةٍ وصلت أبياتها إلى تسعةٍ وأربعين بيتاً تفيض أسىً ولوعةً على فقد هذا العالم الذي ترك علمه شاهداً على مكانته. وقد خاطب الشاعر أهل البلاغة بلغة البائس، سائلاً عن قس إياد الخطيب المعروف، وكأنه يشبّه المرثي به، فيقول[٣]:

أَبَنِــــي البَلاغَـــــة فِـــيمَ حَفـــلُ النَّـــادِي ... هَبْهـــا عُكـــاظَ فـــأينَ قَـــسُّ إِيـــادِ[٥]
أَمَّـــا البيـــانُ فقـــد أَجَـــرَّ لِـــسَانَهُ ... فِـــيْكُم بِفَتْكَتِـــهِ الحِمـــامُ العَـــادي
حُطُّـــوا عَلـــى عَنَـــدِ[٤] الطرِيـــقِ فَقَـــدْ خبَـــا ... لأَلاءُ ذاكَ الكَوكَـــــبِ الوَقّـــــادِ

فالشاعر في الأبيات السابقة يسأل أهل البلاغة بلسان المستنكر الذي بات يرى أهل البلاغة لا قيمة لاجتماعهم ، وقد أقفروا من خطيبهم وأستاذهم،ثم أن الشاعر عاد إلى التراث ، وهو يصور ما تبقى من علماء بعد أبي العباس بالعلماء الذين كانوا يجلسون في سوق عكاظ ، ثم تساءل عن قس الإيادي الذي رأى أن لا قيمة لاجتماع أهل البلاغة دون وجوده في سوق عكاظ ، وكذلك الحال لأهل البلاغة والبيان في عصره، الذين فتك الموت بخطيبهم ، وأستاذهم وكبيرهم أبي العباس .

---

(١) الرصافي البلنسي: محمد بن عابد، أبو عبد الله (ت: ٥٦٢هـ)، كان بيته من بيوتات مالقة، وكان برع في النظم والنثر. (ابن خميس، **أدباء مالقة**، ص١٠٧–١١٠).

(٢) أبو العباس:كان فقيها بارع الأدب وبيته من بيوتات مالقة ، وكان أبو محمد هذا من أعلام ذلك البيت وقد برع في النثر والنظم ، وله شعر يمدح فيه عبد المؤمن بن علي ويوسف بن عبد المؤمن ، وكانت وفاته سنة ٥٦٢هـ (الديوان، ص٦٣،)

(٣) الرصافي البلنسي، أبو عبد الله محمد بن عابد (ت: ٥٧٢هـ)، **ديوان الرصافي البلنسي**، (جمعه وقدّم له إحسان عباس)، بيروت: دار الشروق، ص٦٣.

(٤) عَنَد الطريق: جانب الطريق، انظر لسان العرب مادة عند.

(٥) قس إياد: هو قس بن ساعدة بن عمرو، خطيب العرب، وشاعرها، وحليمها، وحكيمها في عصره، أدركه الرسول (ﷺ) قبل النبوة، ورآه بعكاظ، فكان يؤثر عنه كلاماً سمعه منه، فقال يحشر أمة واحدة. (الأصفهاني، **الأغاني**،ج١٤،ص٤٠).

ويصف الشاعر المرثى أنه عميد الحي دون منازع، وهو بمثابة العقد، فيقول[١]:

إيْـــهِ عَمِيْـــدَ الحَـــيِّ غَـــيرَ مُـــدافعٍ ... إيـــهِ فِـــدىً لَـــكَ غـــابرُ الأَمجَـــادِ
مـــا عُـــذرُ ســـلكٍ كُنْـــتَ عِقـــدَ نِظامِـــهِ ... إِنْ لَـــمْ يَـــصِرْ بُـــرْداً إِلى الآبَـــادِ

ويصوّر الرصافي الجبل مطأطأ رأسه، والوادي مقشعراً، فالطبيعة تشاركه ألمه ، وتشاطره حزنه، فهذا الجبل الشامخ قد طأطأ رأسه، وهذا الوادي الخصب قد اقشعرَّ وتغير شأنه بعد أن فتك الموت بأبي العباس، ثم يصوّر الردى معتذراً من المرثى، ويطلب منه أن ينام وادعاً، إذ يقول في ذلك[٢]:

قَـــد طَأطَـــأَ الجَبَـــلُ المُنيـــفُ قذَالَـــهُ ... لِلجَـــارِ بَعـــدكَ وَاقـــشعَرَّ الـــوادِي
وَكَأَنَّمـــا قـــالَ الـــرَّدَى نَـــمْ وَادِعـــاً ... سَـــبقَتْ إِلى البُـــشرى بِحُـــسنِ مَعـــادِ

ويتساءل الشاعر بلغة الحائر الحزين عن مصير صاحبه، وهل صحيح أنه سيكون في قبره وحيداً ميشبّهاً القبر الذي حله بحرف الصاد. يقول[٣]:

أَمُوَسَّـــداً تلـــكَ الرُّخـــام بمَرقـــدٍ ... أَخْـــشِن بِـــه مِـــن مَرقـــدٍ وَوِسَـــادِ
خُـــصَّتْ بِقَـــدركَ حُفـــرَةٌ فَكأَنَّهـــا ... مِـــنْ جَوفِهـــا فِـــي مِثـــلِ حَـــرفِ الـــصَّادِ

ثم يعود الشاعر ليصوّر نعش المرثى، وكثرة الذين ساروا في جنازته، ويدعو الشاعر على حامليه بالخضوع لأنهم شاموه ــ أي أغمدوه ــ في غمد لا نجاد له و يعني به القبر، إذ يقول[٤]:

بـــأَبِي وَقَـــد سَـــاروا بِنعـــشِكَ صَـــارِمٌ ... كـــثُرَتْ حمائلُـــهُ علـــى الأَكتـــادِ
ذَلَّـــتْ عَواتِـــقُ حامِليـــكَ فـــإِنَّهم ... شَـــاموكَ فِـــي غِمْـــدٍ بِغَـــيرِ نِجَـــادِ

ويخاطب الشاعر بني العباس مستخدماً حرف النداء الهمزة ، وذلك لقرب المرثي من نفسه وعلو شأنه ، فقد أصاب القدر عين بني العباس ، وسيدهم ، وكأني به كان محسّداً لعلو مكانتـــه

---

(١) الرصافي البلنسي، **الديوان**، ص٦٣.
(٢) المصدر نفسه، ص٦٤.
(٣) المصدر نفسه ، **الديوان**، ص٦٤.
(٤) المصدر نفسه ، ص٦٥.

وغزير علمه ، فكان فقدانه من أعظم المصائب التي نزلت بهم ، ومن أكبر الفوادح التي حلّت بساحتهم . يقول الشاعر في هذا المصاب الجلل الذي دهمهم[(١)]:

أَبَنِـــي أَبِـــي العَبَّـــاسِ أَيَّ حُلاحِـــلٍ سَـــلَبتكُم الـــدُّنيا وَأَيَّ نَـــضَادِ
هَـــلْ كَـــان إِلَّـــا العَـــيْنَ وافـــقَ سَـــهمُهَا قَـــدراً فَأُقْـــصِدَ أَيَّمَـــا إِقْـــصَادِ
كيـــفَ العَـــزاءُ وإِنَّهـــا لَرَزِيَّـــةٌ خَـــرَجَ الأَسَـــى فيهـــا عَـــنِ المُعتـــادِ

ثم يبيّن الشاعر في آخر القصيدة، أنه لا يجد حيلةً إلا دموعه، وهي أضعف ناصر ليبين فيها وفاءه للمرثى، ثم يهدي قبر صاحبه السلام، وقد صاغ ذلك كله بلغة رقيقة نلمس فيها صدق التعبير، ومرارة الحزن، يقول في ذلك[(٢)]:

أَمَّـــا الـــدُّموعُ فَهُـــنَّ أَضـــعَفُ ناصِـــرٍ لكِـــنَّهُنَّ كَـــثيرَةَ التعْـــدادِ
ثُـــمَّ الـــسَّلامُ ولا أَغـــبَّ قَـــرَارَةً وارَتْـــكَ صَـــوب رَوائـــح وغـــوادِ
تـــسْقيْكَ مَـــا سَـــفحَتْ علَيـــكَ يَراعَـــةٌ فِـــي خَـــدِّ قِرْطـــاسٍ دُمـــوعِ مِـــدادِ

وللرصافي أيضاً قصيدة أخرى في رثاء شخص اسمه عبد الإله، يبدو لنا أن المرثى من العلماء، وذلك أن الشاعر يذكر العلوم في معرض رثائه، إذ يقول[(٣)]:

لَعَلَّـــكَ وَالعُلـــومُ مُغَنِّيَـــاتٌ نَـــسيتَ هُنَـــاكَ بِـــالغُنْمِ الإِيابَـــا
أَيَـــا عَبْـــدَ الإِلـــهِ نِـــدَاءَ يَـــأسٍ وَهـــلْ أَرجُـــو لـــدى رَمْـــسٍ جَوابـــا

ولا تقل هذه القصيدة عن سابقتها في الصدق الفني، وفي جودة التعبير، ومما يلفت الانتباه، ويدمي العين، ويحزن القلب، قول الرصافي في آخر القصيدة[(٤)]:

فَـــإِنّي رُبَّمَـــا استَـــسْقَيتُ يَومـــاً لَـــكَ الجَـــونَين: جَفْنِـــي والـــسَّحابا
فَتَخْجَـــلُ مِـــن ملوحَتِهَـــا دُمُـــوعي إِذا ذَكَـــرَتْ شَـــمائلكَ العِـــذَابا

(١) الرصافي البلنسي، **الديوان**، ص٦٥.
(٢) المصدر نفسه ، ص٦٦.
(٣) المصدر نفسه ص٣٧.
(٤) المصدر نفسه، ص٣٩.

وينهي القصيدة بطلب السقيا، ولكن هذه المرة بمغايرة تنم عن شاعرية رقيقة، وهي أن الشاعر يتمنى أن تأتي ريح فيها مسك فتصير غيماً، فتحوم على ضريح المتوفى، ثم تصيب منه ما تشاء [١]:

فَلَيْتَ أَحَمَّ مِسْكٍ عادَ غَيْماً ... فَحامَ علَى ضَرِيحكَ ثُمَّ صابَا
وَزاحَمَ في ثَرَاكَ الدَّمْعَ حَتَّى ... يَشُقَّ إلى مَفَارِقِكَ التُّرابا

وكذلك فقد رثى أبو محمد البرجي أستاذه أبا محمد القرطبي[٢] ، وقد بدأ الشاعر رثاءه طالبا من خليليه البكاء معه، لأنه يبكي المجد والعلا ، فموت صاحبه يمثل موتا للمجد وطمسا للسنّة، وإقفارا للدنيا. يقول في ذلك[٣]:

خَليلَيَّ هبَّا ساعِداني بِعَبْرَةٍ ... وَقُولا لِمَن بِالرَّيِّ وَيحكُم هُبُّوا
نَبْكِ العُلا وَالمَجْدَ وَالعِلمَ وَالتُّقَى ... فَمَأتمُ أَحْزان نوائحُهُ الصَّحبُ
فَقَدْ سَلَبَ الدِّينُ الحنيْفيُّ رُوْحَهُ ... فَفِي كُلِّ سِرٍ مِن نَباهَتِه عصبُ
وَقَد طُمِسَت أَنوارُ سُنَّةِ أَحْمَد ... وَقد خَلَت الدُّنيا، وَقد ظَعَنَ الرَّكبُ

ويلجأ الشاعر للإستفهام الذي يفيد الإنكار ، في قوله "أأسلو" ثم يسرد صفات ذلك العالم فهو بحر العلم ، ومحيي الدين ، وعزيز على الإسلام، والعالم الندب ، ثم يبين أن الموت غيض بحره ،وأودعه التراب ، وحجبه عن الناس، وفي هذا يظهر لنا أن الشعراء الأندلسيين يقدرون العالم ، ويعلون منزلته . يقول في ذلك [٤]:

أَأَسْلوا وَبَحْرُ العِلمِ غِيْضَتْ مياهُهُ ... وَمُحيي رُسُومَ العِلمِ يَحْجبُهُ التُّرْبُ
عَزِيزٌ عَلى الإِسلامِ أَن يُودَعَ الثَّرى ... مُسَدَّدُهُ الأَهدى وَعالَمُهُ النَّدْبُ

---

(١)الرصافي البلنسي، **الديوان**، ص٣٩.
(٢) القرطبي: عبد الله بن الحسن بن أحمد بن يحيى بن عبد الله الأنصاري مالقي، قرطبي الأصل، كنيته أبو محمد القرطبي، من أكبر مفاخر زمانه، ومن مصنفاته: "مجموع نبيل في قراءة نافع"، و"تلخيص أسانيد الموطأ". كان واسع الحفظ، حسن الضبط. (المراكشي، أبو عبد الله، ()). **الذيل والتكملة**. (تحقيق إحسان عباس)، بيروت: دار الثقافة، ج٤، ص١٩١-٢٠٨).
(٣) المراكشي، **الذيل والتكملة**، ج٤، ص٢١٦.
(٤) الصدر نفسه، ج٤، ص٢١٦.

ويشير إلى أنه حبر العلم، وأستاذ العصر، وقد فضّله الله على من سواه بسعة علمه ، وذلك في قوله [١]:

عَلَـــى القُـــرطُبِيِّ الحَبْـــرِ أُســـتَاذنا الَّـــذي عَلـــى أَهْـــلِ هـــذا العَـــصْرِ فَـــضَّلهُ الـــرَّبُّ

ومن العلماء الذين افتقدتهم الأندلس ابن رشد، الذي كان صديقاً لكثير من الأدباء والعلماء. وعندما توفي، عَزى سهل بن مالك أبناءه بقصيدةٍ يبين فيها حزنه وكثرة بكائه، ثم يحسن التقسيم في أي الثلاثة أكثر شقاءً بابن رشد ،إذ يقول[٢]:

أَخِـــلايَّ إِنِّـــي مِـــنْ دُمُـــوعِي بِزَاخِـــرٍ بَعِيـــدٌ عَـــن الـــشّطَيْنِ منـــهُ غَرِيقـــهُ
وَمَـــا كَـــانَ ظَنِّـــي بَعْـــدَ فَقْـــدِ أَبِـــيكُمُ بِـــأَنَّ مُـــصَاباً مِثـــلَ هَـــذا أطيقـــهُ
وَلَـــمْ أَدْرِ مَـــنْ أَشْـــقَى الثَلاثَـــةِ بَعـــدَهُ أَأَبْنَـــاؤهُ أَم دَهْـــرُهُ أَمْ صَـــديقهُ

وكذلك عندما توفي سهل بن مالك، وقد كان فقيهاً محدثاً بارعاً شاعراً، رثاه تلميذه الكاتب، أبو عبد الله بن الجنان، بقصيدةٍ طويلةٍ، تصل أبياتها إلى ثمانين بيتاً، وعزّى بنيه في مصابهم بفقده، وحثهم على الصبر من بعده، وقد بدأ الشاعر قصديته، وكأنه يعزّي نفسه في أستاذه، فهو يسكب دموعه وحزنه، ويبين أن الدنيا تتنكر لعلماء الدين، كالمبغضة لهم ، عندما يصورها تتنكر تنكر فارك .يقول[٣]:

أَصَـــبْرٌ جَمِيْـــلٌ فِـــي قَبِـــيحِ حَـــوادِثٍ خَلَعْـــنَ عَلَـــى الأَنـــوَارِ ثَـــوبَ الحَوالِـــكِ
تَنَكّـــرَت الـــدُّنيَا عَلَـــى الـــدِّين ضِـــلَّةً وَمِـــن شِـــيمَةِ الـــدُّنيا تَنكُّـــر فَـــارِكِ

و يصوّر الشاعر نفسه في الحزن متمم بن نويرة في حزنه، ويبين أن المرثى إمام نقلد رأيه كتقليد الإمام الشافعي ومالك رضي الله عنهم، وهذا التشبيه يشير إلى علو مكانة المرثي الدينية ، وتبحره في الفتوى والفقه ، يقول[٤]:

لِـــذَلك مـــا أبْكِـــي كَـــأَنِّي مُـــتَمِّمُ أَتمِـــم مـــا أَبْقَـــى الأَسَـــى بَعْـــدَ مالِـــكِ
إِمـــام هُـــدى كُنَّـــا نُقَلِّـــدُ رَأيَـــهُ كَتَقليـــدِ رَأي الـــشَّافِعِيِّ ومالِـــكِ

(١) المراكشي، **الذيل والتكملة**، ج٤، ص٢١٧.
(٢) ابن الخطيب، **الإحاطة في أخبار غرناطة**، مطبعة الخانجي ، تحقيق عبدالله عنان ،مج٤، ص٢٨٢.
(٣) المصدر نفسه ، مج٤، ص٢٨٦.
(٤) المصدر نفسه ،مج٤ ،ص٢٨٧ .

ثم يطلب الشاعر من الناعي أن لا يفه بخبر وفاة سهل بن مالك، لأن هذا الخبر أم الدواهي، وفي هذا يرجو الشاعر رجاء اليائس أن يكون خبر النعي غير صحيح، إذ يقول(١):

أَلا أَيُّهـا النَّـاعِي لَـكَ الثُّكْـلُ لاتَفُـه ... بهَـا إِنَّهَـا أُم الـدَوَاهِي الـدَّوَاهِكِ
لَعَلَّـكَ فِـي نَعـي العُـلا مُتَكَـذِّبٌ ... فَكَـم ماحِـلٍ مِـن قَبـل فِيـهِ وَمَاحِـكِ

وما إن يثبت خبر وفاة سهل بن مالك حتى تميد الأرض بمن عليها ، بكاء ونحيبا على على علم الإسلام. يصف ذلك قائلا (٢):

بَكَـتْ حُزنَهـا الغَبْـراءُ فِيْـه فَأَسْـعَدَتْ ... بِأَدْمُعِهَـا الخَـضْرَاءِ ذات الحَبائـكِ
عَلَـى عَلَـم الإِسـلامِ قامَـت نـوادِبُ ... بِهـتِنِ مبَـاكٍ أَوِ بِهـتِم مـضَاحِكِ

والقصيدة طويلة كما ذكرنا، وفيها إشارات كثيرة إلى علم المرثي وحكمته، ومكانته، فهو لواء الشرع، ودارس لكتاب الله وسنّة رسوله صلى الله عليه وسلم ، وزاهد في الدنيا

وقد ختم القصيدة بتعزية آل سهل وبنيه ونفسه، يقول(٣):

فَيَـا آلَ سَـهْلٍ أَو بَنِيـه مُخَصِّـصاً ... نـداءَ عُمـومٍ فِي عُمُـومِ مَوالِـكِ
فَكَيْـفَ أُعَـزِّي وَالتَّعَـزِّي مُحَـرَّمٌ ... عَلَـيَّ وَلكِـن عـادَةٌ آلَ مالِـكِ

ثم يسأل الشاعر الرحمن أن ينزل الرحمة ، والسلام على روح المرثي ، ويطلب من لوعته أن تقص أخبارها عليه(٤):

فَيَـا رَحمَـةَ الـرَّحمَنِ وَافِـي جَنابـهِ ... وَيَـا روحـه سَـلِّمْ عَلَيْـهِ وَبَـارِكِ
وَيَـا لَـوْعَتِي سِـيرِي إِلَيـهِ بِرُقعَتِـي ... وَقُـصِّي شُـجُوناً مِـنْ حَـدِيثِي هُنَالِـكِ

---

(١) ابن الخطيب، **الإحاطة في أخبار غرناطة**، مج٤، ص٢٨٧.
(٢) المصد نفسه ،مج٤، ص٢٨٩
(٣) المصدر نفسه، مج٤، ص٢٩١.
(٤) المصدر نفسه، مج٤، ٢٩١.

ومن أهم العلماء الذين أفتقدتهم الأندلس، الأديب المحدّث العلاّمة، أبو الربيع سليمان بن موسى الكلاعي[١]، الذين استشهد هو، ومجموعة من أهل بلنسية في موقعة أنيشة[٢]، فقد كانت تلك الوقيعة بين المسلمين من أهل بلنسية وبين النصارى، ورثى ذلك العالِمَ الشاعرُ ابنُ الأبَّار، الذي كان تلميذاً للكلاعي، وقد قدَّم ابن الأبَّار قصيدةً طويلة، أشاد فيها بهذا البطل المجاهد، الذي كان يتقدم الصفوف في أحلك الظروف، وكان الجهاد عنده عقيدة شب على تقديسها[٣]. يقول ابن الأبَّار في ذلك[٤]:

ألمَّـــا بأَشْـــلاءِ العُلَـــى وَالمَكَـــارِمِ ... تُقَـــدُّ بِـــأَطْرافِ القَنـــا وَالـــصَّوارِمِ
نُحَيِّـــي وُجوهـــاً فـــي الجِنـــانِ وَجيهَـــةً ... بِمَـــا لَقِيَـــت حُمْـــراً وُجُـــوه المَلاحِـــمِ
وَأَجْـــسادَ إِيْمَـــانٍ كَـــسَاهَا نَجيْعُهَـــا ... مَجاسِـــدَ مِـــن نَـــسْجِ الظُبَـــى وَاللَّهَـــاذِمِ
مُكَرَّمَـــةٌ حَتَّـــى عَـــنِ الـــدَّفْنِ فِـــي الثَّـــرَى ... وَمَـــا يُكْـــرِمُ الـــرَّحْمَنُ غَيْـــرَ الأَكَـــارِمِ

فالشاعر فيما سبق يطلب من صاحبيه أن "يلما بأشلاء العلى والمكارم" ، ويقصد في هذا التعبير أن أشلاء الكلاعي وأصحابه الذين قضوا نحبهم في حومة الوغى يدافعون عن الدين ، ويذبون عن الأوطان ، قد صارت رمزاً للمجد والعلياء ، ثم يطلب الشاعر من أصحابه أن يحيوا تلك الوجوه التي نالت شرف الشهادة فاستحقت الجنة ، ثم يطيل الشاعر في وصف تلك الأجساد التي كساها الدم ومزقتها السيوف ، ويبين أن تلك الأجساد كرمت حتى عن الدفن ، ويتبين لنا من هذا البيت أن رفات الكلاعي وأصحابه لم تدفن بعد المعركة وربما بقيت نهبا للنسور، فهي أسمى من أن تدفن ويواريها التراب، أو أن الشاعر يشير هنا إلى أن الأرض لا تأكل أجساد الشهداء ، كما هو معلوم .

---

(١) أبو الربيع الكلاعي: سليمان موسى بن سالم الكلاعي، مصنف كتاب الاكتفاء في سير النبي (ﷺ)، استشهد في أنيشة سنة (٦٣٤هـ)، وكان خطيباً راوية ناظماً وناثراً. (أبو عبد الله، محمد بن عبد الله بن عبد المنعم الحميري، (١٩٨٨). **صفة جزيرة الأندلس، منتخب من كتاب الروض المعطار في خبر الأوطار**. بيروت: دار الجيل، ص٣٢).

(٢) أنيشة : بالشين المعجمة والجيم معاً، موضع على مقربة من بلنسية وبالقرب من بنشكلة من أرض الأندلس، وعقبة أنيشة جبل معترض عال على البحر والطريق عليه، ولا بد من السلوك على رأسه وهو صعب جداً. وفيه كانت الوقيعة بين المسلمين من أهل بلنسية وبين النصارى .(الحميري: الروض المعطارص٣٢،٣١).

(٣) لهي، ثريا، أبو الربيع سليمان بن موسى بن سالم الكلاعي حياته وآثاره، (١٩٩٤). المغرب: وزارة الأوقاف، ص١٢٨.

(٤) ابن الأبار، **الديوان**، ص٢٧٥، ص٢٧٦.

ثم يسلم الشاعر على رفات أصحابه ، مبينا أنهم صبروا ، لذلك فازوا بصحبة الأكارم على حد تعبيره ، إذ يقول [١]:

سَـــقى اللَّـــهُ أَشْـــلاءَ بِـــسَفْحِ "أَنِيـــشَةٍ" سَـــوَافِحَ تُزجِيهَـــا ثِقَـــالُ الغَمَـــائِمِ
لَقَـــد صَـــبروا فِيهـــا كِرَامَـــاً وَصَـــابروا فَـــلا غَـــرْوَ أَنْ فَـــازوا بِـــصَفْوِ المَكَـــارِمِ

وبعد أن أطال ابن الأبَّار في مدح أولئك الذين قضوا نحبهم في سبيل ربهم؛ دفاعاً عن وطنهم، عاد لصاحبه الكلاعي ليمدحه بما هو أهله، فقد كان حامل الآثار وحامي الديار ، عربيا أصيلا ، يحافظ على سنة نبيه ﷺ . يقول في ذلك[٢]:

قَـــضَى حَامِـــلُ الآثـــارِ مِـــنْ آلِ يَعْـــربٍ وَحـــامِي هُـــدى المُخْتَـــارِ مِـــنْ آلِ هاشِـــمِ

ثم يسلم الشاعر على الدنيا التي صارت تعسة خالية من المتعة بعد غياب محيا الكلاعي ولا يفوت الشاعر أن يذكر اسم الكلاعي كاملاً ، تخليد وإبقاء له . يقول في ذلك[٣]:

سَـــلامٌ عَلَـــى الـــدُّنيا إِذا لَـــمْ يَلُـــح بِهـــا مُحَيَّـــا سُـــلَيْمانَ بـــنِ مُوسَـــى بـــن سَـــالِمِ
وَهَـــل فِـــي حَيَـــاتِي مُتعَـــةٌ بَعـــدَ مَوتِـــهِ وَقَـــد أَسـْـــلَمَتني للـــدَّواهِي الـــدَّواهِمِ

ويذكر الشاعر أن من صفات المرثى عذوبة المنطق، وذلك عندما قرّر أنه يملك قدرةً على الإفصاح والبيان، وأعطي منطقاً سهلاً ممتنعاً، ووُهِب سحر بيان يُحسدُ عليه[٤]، يقول في ذلك[٥]:

بَعيـــدٌ مَـــداه لا يُـــشَقُّ غُبَـــارُهُ إذا فَـــاهَ فَـــاضَ الـــسِّحْرُ ضَـــربةَ لازِمِ
لَـــهُ مَنْطِـــقٌ سَـــهْلُ النَّـــواحِي قَرِيبُـــها فَـــإِن رُمْتَـــهُ أَلْفَيـــتَ صَـــعْبَ الـــشَّكائمِ
وَسِـــحْرُ بيـــانٍ فَـــاتَ كُـــلَّ مُفَـــوَّهٍ فَبَـــاتَ علَيـــه قارِعـــاً سِـــنَّ نـــادِمِ

ويبين أنه استشهد مقبلاً لا مدبراً، وفي هذا دلالة على أنه كان يباشر القتال بنفسه، ويطلب من الله أن يقبل إقباله عليه، يقول في ذلك[١]:

(١)ابن الأبار، **الديوان** ، ص٢٧٧.
(٢)المصدر نفسه ، ص٢٨٠.
(٣)المصدر نفسه، ص٢٨٠.
(٤) لهي، ثريا، **أبو الربيع سليمان بن موسى بن سالم الكلاعي، حياته، وآثاره**، ص٤٣.
(٥) ابن الأبَّار، **الديوان**، ص٢٨١.

أَتَـــاهُ رَداهُ مُقْـــبِلاً غَيْـــرَ مُـــدبِرٍ   لِيَحْظَـــى بِإقبَـــالٍ مِـــنَ اللَّـــهِ دائِـــمِ

ويبين الشاعر ما لهذا الشهيد من جنات تجري من تحتها الأنهار، ويهنأه على ذلك، وأنه لن ينسى ثباته في تلك المعركة، إلا الجاحد. ثم يصوِّره كيف أقبل على المعركة جذلان باسماً.

ولا نستطيع أن نفي هذه المرثية حقها من الشرح والتعليق، لأن القارئ يجد نفسه أمام نص قلّ نظيره في الشعر الأندلسي، وذلك أن ابن الأبَّار كان محبّاً للكلاعي، وتلميذاً له، والكلاعي أيضاً كان قد شبَّ على الجهاد، وجمع بين العلم والحلم والكرم والشجاعة والجهاد، فقد استشهد في هذه المعركة، وقد أشرف على السبعين، فتوَّج حياته بهذا المجهود المتواصل والحافل بمواقفه الخالدة، ونال فيها ما كانت نفسه تأمله من الشهادة في سبيل الله[٢]، وفي ذلك يقول أبو المطرف المخزومي[٣] في رثائه أيضاً[٤]:

وَأعْظَـــمُ ميـــتٍ فُجعْنَـــا بِـــهِ   حَلِيْـــفُ النَّـــدى المَاجِـــدُ الواهِـــب
وَذاكَ سُـــلَيمَانُ لا غَائِـــبٌ   إذا الأَمْـــرُ جَـــدَّ وَلا لاعِـــب
فَلِلّـــهِ مِـــنْ حَقِّـــهِ جَانِـــبٌ   وَلِلـــصَّحبِ مِـــنْ أُنْـــسِهِ جانِـــب

وقد صوَّر أبو المطرف الكلاعيَّ نور العلم، وطود الحلم، وبيَّن أن هذا الطود قد هوى في سبيل الله، وأن أبا الربيع قضى حياته مجندلاً في سبيل الله وشملته عناية الرحمن، فلم يرَ ما يسؤوه في أهله ووطنه ودينه، وتركت جثته نهباً للنسور والذئاب، وكأن مشيئة الله أبت لهذا الجسد الطاهر أن يوارى تراباً تطأه أقدام الكفار، صباحاً ومساءً[٥]، يقول في ذلك[٦]:

وَغُـــودِرْتَ نَهْـــبَ عُفـــاةِ العُلـــى   فَنَـــالَ الَّـــذي شـــاءَهُ الـــذَّاهِب
إذا كـــانَ لِلـــدُودِ مَيْـــتُ القُبـــورِ   فَلِلـــذِّئبِ أَكـــرَم وَالنَّاعِـــب

---

(١)المصدر نفسه، ص٢٨١.
(٢) لهي، ثريا، **أبو الربيع سليمان بن موسى بن سالم الكلاعي، حياته وآثاره**، ص١٢٨.
(٣) أبو المطرف: أحمد بن عبد الله بن عميرة المخزومي، فقيه وكاتب .انظر ترجمته في الحميري، **الروض المعطار**، ص٣٣.
(٤) الحميري، **صفة جزيرة الأندلس**، ص٣٣.
(٥) انظر: لهي، ثريا، **ابن الربيع بن سليمان بن موسى بن سالم، حياته وآثاره**، ص١٢٨.
(٦) الحميري، **صفة جزيرة الأندلس**، ص٣٣.

وينهي الشاعر قصيدته هذه طالباً من الله أن يتقبّل الشهيد برضوانه، ويجود عليه برحماته، فقد صار في جوار ربٍ كريمٍ، وهذا أفضل ما يطلب، والكل إلى الموت ذاهب، يقول في ذلك[1]:

تَلَقّــــاكَ رَبِّــــي بِرِضــــوانه وَجــــادَكَ فِيــــهِ الحَيــــا الــــسَّاكِب
وَإِنَّ الَّــــذي نِلْــــتَ مِــــنْ قُربِــــهِ لأَفْــــضَل مــــا يَطْلــــبُ الطَّالِــــب
عَلَيْــــكَ الــــسَّلامُ إِلَــــى غايــــةٍ مــــن المَــــوتِ كُــــلٌّ لَهــــا ذاهِــــب

ويتضح لنا مما سبق أن الكلاعي جمع بين العلم والشجاعة ، فقد ترك اسشهاده أثراً في الشعر لتكون تلك الرثائيات خير دليل على أن العلماء خير من يهب للدفاع عن الأمة، إذا نادى منادي الجهاد .

(١)الحميري، **صفة جزيرة الأندلس**، ص٣٣.

المبحث الخامس: رثاء القادة:

رثى ابن حمديس القائد أبا الحسن علي بن حمدون الصنهاجي، بقصيدة وصلت أبياتها إلى سبعةٍ وثلاثين بيتاً، يصوِّر فيها العز والمجد، والسيوف تبكي هذا القائد وتندبه، وفي هذا دلالة على أن شعراء الأندلس يحسنون مدح القادة فقد ذكر الشاعر أدوات القتال وصورها تبكي، وتندب صاحبها، يقول في ذلك(١):

بَكَى فَقْدَكَ العِزُّ المُؤَيَّدُ وَالمَجْدُ ... وَناحتْ عَليكَ الحرْفُ وَالضُّمَّرُ الجُرْدُ
وَقَد نَدَبَتكَ البيضُ وَالسُّمْرُ في الوَغى ... وَعَدّدَكَ التَّأيِيْدُ والحَسبُ العِدُّ

ثم يبين الشاعر مكانة هذا القائد الذي ورث المجد كابراً عن كابر، ويبين أنه أهل للمجد همام ، فيقول(٢):

وَكُنْتَ أَميْنَ الملكِ حَقّاً وَسَيْفَهُ ... وَمَنْ حَسَنات البِرِّ كانَ لَكَ الغِمْدُ
وَأَنتَ ابْنُ حَمْدونَ الَّذي كان حَمْدُهُ ... يُعَبِّرُ عَنْ ناديهِ في عُرفِه النِّدُّ
هُمامٌ إليهِ كانَ تَقريبُ غُربَتي ... بِبُزلٍ خَفيْفٍ بَيْنَ أَخفافِها الوخْدُ

و يصف ابن حمديس كثرة بكائه على المرثي، فقد ترك الدمع آثاره على خد الشاعر ، وذلك قليل إذا ما قورن مع عظمة المرثي ، وأفعاله التي لا تحصى، يقول في ذلك(٣):

بَكَيْتُ عَليهِ وَالدُّموعُ سَواكِبٌ ... تَخدّد مِن طُولِ البُكاءِ بها الخَدُّ
وَذاكَ قَليلٌ قَدْرهُ في مُعَظَّمٍ ... لَهُ حَسَبٌ ما إن يُعَدَّ لَهُ عَدُّ

ثم يفيض الشاعر في ذكر صفات المرثي التي من أهمها همته العالية ، ويبالغ الشاعر في وصفها إذ يجعلها تصل إلى الفرقد ، ثم يذكر أنه سديد الرأي ، كريم معطاء جوده كالغيث إذا همى ، لا تستطيع النفس أن تتصبر على فراقه وقد ضمه لحده . ويصف ذلك قائلا (٤):

لَهُ هِمَّةٌ في أُفْقِها فَرقَدِيَّةٌ ... كَواكِبُها زُهْرٌ أَحاطَ بهِ السَّعْدُ
إذا أَعْمِلَ الآراءَ عَنَّ لَهُ الهُدى ... سَدادٌ هُو الفَتْحُ الَّذي ما لَهُ سَدُّ
وإِنْ جادَ كانَ الجودُ مِنْهُ مهنّأً ... كَغَيثٍ هَمى ما فيهِ بَرْقٌ ولا رَعْدُ

---

(١) ابن حمديس، **الديوان**، ص١٧٣.
(٢) المصدر نفسه، ص١٧٤.
(٣) المصدر نفسه، ص١٧٤.
(٤) المصدر نفسه، ص١٧٥.

وَأَيَّ اصْـــطِبارٍ فيـــهِ لِلـــنَّفْسِ رَحمَـــةٌ عَن القائـــدِ الأَعلـــى الَّـــذي ضَـــمَّهُ اللَّحـــدُ

ولابن حمديس قصيدة أخرى في رثاء الشريف الفهري علي بن أحمد الصقلي تقع في سبعةٍ وخمسين بيتاً، يبدؤها بتصوير صاحبه بالبدر، وفي الشطر الثاني يشبهه بالطود متسائلاً هل يمكن لهذا البدر أن يطوى في اللحد، أم أن هذا الطود قد هُدّ وصار في ثرى القبر، ثم يؤكد في البيت الذي يليه أن موت الشريف الفهري كسوف للشمس وهد للأرض ، يقول[١]:

إذا البَدرُ يُطـوى فـي رُبـوعِ البِلَـى لَحْـدا أَم الطّود حَطّـوا في ثَـرى القَبْـرِ إِذْ هُـدّا
كُـسُوفٌ وَهَـدٌّ تَحْـسبُ الـدَّهرَ منـهما لِعَـيْنٍ وَأُذنٍ ظَلْمَـةً مُلئـتْ رَعْـدا

ويشير إلى أن علي بن أحمد مات، وأبقى الفخر والحمد وراءه شاهدين على ما كان له في هذه الدنيا من فخر ومجد ، فيقول[٢]:

تَـولّى عَـنِ الـدُّنيا عَلـيٌّ بـنُ أَحْمَـدٍ وَأَبْقى لها مِـن ذِكْـرِهِ الفَخْـرَ والحَمْـدَا

ويصوّر ابن حمديس وقع خبر وفاة الشريف الفهري، وكيف أنهم صاروا يخوضون في ذلك النبأ بين مصدّق ومكذب، ثم يبين أن نبأ وفاة الفهري أمر مستنكر فظيع، يقول في ذلك[٣]:

حَمَلنـا علـى التَكـذيبِ تَـصديقَ نَعْيـهِ وَسُـدّتْ لَـهُ الأَسْـماعُ وَانْـصَرَفتْ صَـدّا
وَقـالَ لِمَـن أَدَّى المُـصاب مُعَنِّـفٌ فَظيْـعٌ مِـن الأَنبـاءِ جِئـتَ بِـهِ إِدّا
إِلى أَنْ نَعـاه الـدَّهْرُ مِـلءَ لِـسانِهِ وَمَن ذا الَّذي يخفي مِـنَ الـرزءِ مـا أَبْـدى

وبعد أن تأكد خبر نعي الشريف الفهري، أخذ ابن حمديس يصف لنا ما حلّ به، وبمن سمع الخبر فقد ارتفعت أصواتهم في البكاء[٤]:

هُنالِـكَ خُـضْنَا في العَويـلِ وَلَـم نَجِـدْ عَلى الكُـرْهِ مِـنْ تَـصديقِ مـا قالَـهُ بُـدّا

(١) ابن حمديس، **الديوان**، ص١٦٣.
(٢) المصدر نفسه، ص١٦٣.
(٣) المصدر نفسه، ص١٦٣.
(٤) المصدر نفسه، ص١٦٣.

ثم يخاطب الشاعر الذين حملوا نعش الشريف الفهري ، ويبين لهم أنهم يحملون رجلا جليل الشأن رفيع المقدار عالي الهمة ، كريماً معطاءً ، ويتعجب الشاعر من أولئك القوم الذين يدفعون صاحبهم إلى القبر ، وقد كانت يده تُمَتدُّ إليهم بالعطايا فيقول مخاطبهم[١]:

حَمَلْتُمْ عَلى الأَعوادِ مَن قَد حَملتُمُ ... فَكُلّ جَلالٍ قَدْ وَجَدْتُم لَهُ فَقدا
لَقد دَفعَتْ أَيديكمُ مِنْه لِلبِلى ... يَداً بِجَديدِ العُرفِ كانَتْ لَكُم تَندى

ثم يخاطب الشاعر من كان يؤمل على كرم الشريف الفهري، فقد حال الموت بينهم وبين البحر الذي كان يمدّهم بالعطاء[٢]:

فَقُل لِبَني الآمالِ أخْفَقَ سَعْيُكُمْ ... فَقَد حَسَرَ البَحْرُ الَّذي لَكُمُ مَدّا

ويطلب الشاعر إلى الهمة العالية ، والسيف المجلو ، والدرع الفولاذي ، والحصان الأصيل أن يبكوا عليا . وكل ما سبق هي أدوات القتال التي تدل على حذاقة الشاعر في اختيارها ، وتدل أيضا على علو شأن المرثي ، وأنه فارس شجاع مقدام. يقول في ذلك [٣]:

لِتَبْكِ عَلِيّاً هِمَّةٌ كَرَميّةٌ ... ثَنى قَاصِدو الرُّكبانِ عَن رَبعِها القَصْدا
وَأَسْمَرُ خَطِّيّ أَمَامَ كُعوبِهِ ... سِنانٌ ذَليقٌ يَنفُذُ الحَلْقَ السَّردا
وَحَصْداءُ فولاذيَّةُ النّسْجِ لَمْ تَزَلْ ... مِنَ اللَّهْذَمِ الوَقَّادِ مُطفئَةً وَقدا
وَأَجْرَد يبكي الجَرْدَ يَوْمَ صَهِيلِهِ ... غَدا مُرْجَلاً عَنْهُ فَلَمْ يَسُدِ الجَرْدا

ويكثر الشاعر من مدح صاحبه ويصفه بالحلم والعلم والبأس، ويبين أنهم أكثروا من البكاء عليه، وقد بالغ في ذلك عندما قال[٤]:

فَلَو رُدَّ مِنْ كَفِّ المنيَّةِ هالِكٌ ... بِنَوْحِ بناتٍ كانَ أوَّلَ مَنْ رُدّا

---

(١) ابن حمديس، **الديوان**، ص١٦٣.
(٢) المصدر نفسه، ص١٦٤.
(٣) المصدر نفسه، ص١٦٤.
(٤) المصدر نفسه ، ص١٦٥.

ويمدح الشاعر ذوي المتوفى، ومادام أنه أبقى أحمد ومحمداً فإنه لم يمت ، وهما خير خلف لخير سلف ، وفيهما الحلم والحزم، يقول في ذلك[١]:

وَمـــا مَـــاتَ مُبقـــي أَحْمَـــدٍ وَمُحَمَّـــدٍ ... فإنَّهمـــا سَـــدّا المَكـــانَ الَّـــذي سَـــدّا
بَـــدا مِنْهمـــا حَـــزْمٌ يَـــسيْرٌ تَمامُـــهُ ... وَقَد يَثْقـــبُ النَّـــارَ الَّـــذي يَقْـــدَحُ الزِّنـــدا

ثم يخاطب الشاعر صاحب القبر مبيناً أنه شهيد يسمع نداءه، ثم يجنس الشاعر بين الشهادة التي هي موت في سبيل الله ، وبين الشهد أي العسل، ويلتفت الشاعر إلى معنى لطيف وهو أن الموت جعل المرثي يظفر بالشهادة التي هي خير من الشهد ،ثم يبين أن القبر صار مكانا يفوح الطيب منه، وليس ذلك عجيب على المرثي الذي كانت مفاخره كالمسك والند. وفي هذا يقول [٢]:

فَيـــا ســـاكِنَ القَبْـــرِ الَّـــذي ضَـــمّ تُربُـــهُ ... شَـــهيداً كـــأَنّ المَـــوتَ كَـــان لَـــهُ شـــهدا
لَـــئنْ فـــاحَ طيـــبٌ مِـــنْ ثَـــراهُ لِناشِـــقٍ ... فَفَخْـــرُكَ فيـــهِ فَتَّـــقَ المِـــسْكَ وَالنَّـــدّا

وفي الجزء الأخير من القصيدة يبين الشاعر أن الدنيا في تقلبها وتبدلها، كالحرباء في تغيرها وتلون جلدها ، ويحسن الشاعر الختام في أن الله قد اصطفى الفقيد وأراد له الآخرة، وينهي القصيدة بالدعوة له بالرحمة والسقيا، يقول[٣]:

وَدُنْيـــــاكَ كَالحِربـــــاءِ ذات تَلـــــوُّنٍ ... وَمبيَـــضّها في العَـــيْنِ أَصـــبَحَ مـــسوَدّا
أَرَدنـــا لَـــكَ الـــدُّنيا القليـــلَ بَقاؤهـــا ... وَرَبُّـــك في الأُخـــرى أَرادَ لـــكَ الخُلـــدا
فَـــلا بَرِحَـــتْ مِـــن رَحْمَـــةِ اللَّـــهِ دَائبـــاً ... تَـــزور نَـــدى كَفَّيـــكَ في قَبْـــرِكَ الأَنْـــدَا

وكذلك رثى ابن حمديس القائد عبد الغني بن عبد العزيز الصقلي، بقصيدة طويلة، تصل أبياتها إلى خمسةٍ وستين بيتاً، يبدؤها بالتساؤل عن الحِمام الذي لا تطيش سهامه ولاتخطي، وعن الزمان المتقلب المتبدل ، ولذا فهما غير وفيين، لا يصلان من يصلهما، يقول[٤]:

هَـــل أَقـــالَ الحِمَـــامُ عَثْـــرةَ حَـــيّ ... أَمْ عـــدَا سَـــهْمهُ فُـــؤَادَ رَمـــيِّ
هَـــلْ أَدامَ الزَّمَـــانُ وَصْـــلَ خَليـــل ... فَـــوَفَى وَالزَّمَـــانُ غَـــيرُ وَفِـــيِّ

(١) ابن حمديس، **الديوان**، ص١٦٦.
(٢) المصدر نفسه، ص١٦٦.
(٣) المصدر نفسه ص١٦٦.
(٤) المصدر نفسه، ص٥٢٥.

ويصوّر ابن حمديس الدنيا زائلة، فالملك والسوقة، والشجاع والجبان، والطائع والعاصي، جميعهم متساوون في حكم القدر، وكلهم يموتون، وتكون نهايتهم باطن الأرض، يقول في ذلك[١]:

كَـــمْ مَلِيْـــكٍ وَســـوقةٍ وَشُـــجاعٍ … وَجَبـــانٍ وَطـــائعٍ وَعـــصيّ
نَـــشَرَهمْ حَيـــاهُم أَيّ نَـــشْرٍ … وَطَـــواهُمْ حِمَـــامُهُمْ أَيَّ طَـــيّ
فَهُـــم في حَـــشا الـــضَّريح سَـــواءٌ … وَلَقَـــد كَـــان ذا لـــذا غَيْـــرَ ســـيّ

بعد ذلك يبين الشاعر عظيم مصابه وتحسره على المرثي، ثم يصف شجاعته وبسالته وقوته في الحرب، وينبه إلى أن أجله وافاه وهو مقبل غير مدبر، فكان كالشبل الفاتك القوي، ويعود الشاعر ليزيد في صفات القائد المجاهد، فهو إلى جانب ماسبق عظامي ورث المجد عن أبيه ، لذلك لا عجب أن وافاه أجله وهو مقبل ، يكافح الأعداء، وفي هذا إشارة إلى أن المرثي مات في ميدان المعركة ، وهو يباشر القتال ضد الأعداء يقول في ذلك[٢]:

أَيَّ رُزْءٍ جـــاءت بِـــه الـــرِّيحُ في المـــا … ءِ وَأَفْـــشَتْهُ مِـــنْ لِـــسانِ النّعـــيّ
وَمُـــصابٍ أَصـــابَ كُـــلَّ فُـــؤادٍ … في ابْـــنِ عَبْـــدِ العَزيـــزِ عَبْـــدِ الغـــنيّ
قَائـــدٌ قـــادَهُ إلى المـــوتِ عِـــزٌّ … باقتِحـــامٍ كَهْـــلٍ وَعَـــزْمِ فَـــتيّ
وَرِثَ العِـــزَّ مِـــنْ أَبِيْـــه كَـــشِبْلٍ … أَخَـــذَ الفَتْـــكَ عَـــنْ أَبيـــه الأَبيّ
مُقْـــبِلاً لا مُوَلِّيـــاً بالأَمـــاني … عَـــنْ كِفـــاحِ العِـــدا وبِالـــسَّمهَريّ

ويصور الشاعر القائد الشهيد يصافح الموت والسيوف غضبى، وفي هذا دلالة على احمرار الحدق ، واشتداد وطيس المعركة ، ثم يصف الشاعر المرثي وهو يخوض غمار المعركة ، حتى يعلوه غبارُها ، فيصير نجيع المعركة طيبا له ، وبعد ذلك يقدم المرثي روحه رخيصة إرضاء لله تعالى .وقد قدم ابن حمديس ذلك بسرد شعري قل نظيره، إذ يقول في ذلك [٣]:

صـــافَحَ المَـــوتَ وَالـــصَّفائحُ غَـــضْبى … وَلغـــتْ مِنْـــهُ في دِمـــاءِ رَضـــيّ
طيبـــهُ مِـــنْ نَجيعـــهِ[٤] وَهُـــو مِـــسْكٌ … في عِـــذاري مُهَـــذَّبٍ لـــوذَعيّ

(١) ابن حمديس، **الديوان**، ص٥٢٦.
(٢) المصدر نفسه، ص٥٢٧.
(٣) المصدر نفسه ، ص٥٢٧.
(٤) النجيع: الدم ، وقيل هو دم الجوف خاصة . (انظر لسان العرب ، مادة نجع)

وَسَخيّاً بِنَفْسِهِ للعوالي ... في رِضى اللّهِ فعْلُ ذاكَ السَّخيّ

ويبين الشاعر أثر استشهاد صاحبه في نفسه وأصدقائه؛ فهم يبكون بدموع غزارٍ تنبئ عن مكانة عالية للمرثي، ولا ينسى أيضاً أن يعرِّج على النساء اللواتي صرن ثُكالى بعده، يندبن ذلك القائد الألمعي، يقول في ذلك(١):

كَمْ صَديْقٍ بَكاكَ مِثْلي بِدَمْعٍ ... طائع مِن شُؤونه لا عَصيّ

تَذْرِفُ العَيْنُ مِنْهُ جَريةَ ماءٍ ... تَطَأُ الخَدَّ وَهيَ جَمْرَةُ كَيّ

وَثَكالى يَنْدُبن مِنْكَ بحُزْنٍ ... خَيْرَ نَدْبٍ مُهَذَّبٍ ألَمعيّ

حاسِراتٍ يَنُحْنَ في كُلِّ صُبْحٍ ... بَلَّهُ دَمْعها وَكُلَّ عَشيّ

ثم يصف ابن حمديس علاقته بالمرثى، وأن الدهر فرَّق بينهم، ويصوّر الأرض التي حلّها قبر ممدوحه تهدي المسك، وهذا من أثر دفن هذا الشخص فيها، ثم يدعو الله له بالسقيا ويبين أنه يبكي على هذا القائد طوال حياته، وستبكيه القوافي بعد موت ابن حمديس، يقول في ذلك(٢):

يا خَليلاً أَخَلَّ بي فيهِ دَهْرٌ ... لوفاءِ الأَحْرارِ غَيرِ وَفيّ

إنَّ أَرْضاً غُودِرتَ فيهَا لتَهْدي ... ريحُها منكَ عَرْفَ مِسْكٍ ذَكيّ

فَسقى شِلْوَكَ الُمَزَّقَ فيها ... خَيْرُ وَسْميٍّ رَحْمَةٍ وَوَليّ(٣)

أَنا أَبْكي عَليكَ ما طالَ عُمْري ... شَرِقَ العَيْنِ مِنْ دُمُوعٍ بِريّ

وَسَتبكيكَ بَعْدَ مَوتي القَوافي ... في نياحٍ مِن لَفْظِها مَعنَويّ

ويتضح لنا مما سبق ان غالبية الأشعار التي وردت في رثاء القادة كانت للشاعر ابن حمديس الصقلي ، الذي أكثر في هذا اللون من الرثاء وأجاد فيه .

وقد جاءت الأشعار التي قيلت في رثاء القادة تبين أنهم كانوا يباشرون القتال بأنفسهم ، وفي هذا إشارة لشجاعتهم لذلك نجد أن أكثرهم سقط شهيداً في أرض المعركة ، فكان استشهاده دليل صدق على شجاعته وبسالته وقوته .

---

(١) ابن حمديس، **الديوان**، ص٥٢٨.

(٢) المصدر نفسه ، ص٥٢٩.

(٣) الوَسْمِيُّ : مطرُ أوّلِ الربيع، وهو بعدَ الخريف لأنه يَسِمُ الأرض بالنبات فيصير فيها أثراً في أوّل السنة. والولي : ثاني المطر ، وهو ما ما يأتي بعد الوسمي (انظر لسان العرب ، مادة وسم، ومادة ولي)

المبحث السادس: رثاء آل البيت:

كان لقيام الدولة الموحدية في الأندلس علاقة وثيقة بالتشيع الذي جاء مع المهدي بن تومرت، فقد وُصِف (أنه كان يبطن شيئاً من التشيع)[١]، وقد كانت الدولة الموحدية تستند في قيامها على بعض أفكار التشيع كالإمامة الدينية، ونظرية المهدي المنتظر، لذا شاع في ذلك العصر بعض المؤلفات التي تتناول أخبار آل البيت عامةً، والحسين خاصةً[٢].

ومن هذه المؤلفات (مناقب السبطين الحسن والحسين)[٣]، الذي ألفه محمد بن عبد الرحمن التجيبي[٤]، ومنها أيضاً ما أورده المقري لابن الأبَّار، وهو "معادن اللجين في مراثي الحسين"[٥].

ويدل رثاء الحسين وأهل البيت على حب الأندلسيين وتعلقهم بأهل البيت الأطهار، وتأكيداً للمكانة التي احتلوها في قلوب الأندلسيين[٦].

ومن القصائد التي قيلت في رثاء الحسين ، قصيدة للشاعر أحمد ابن شكيل، جاءت في خمسة وعشرين بيتاً، تساءل فيها الشاعر عن الهموم التي تؤرقه، والدموع التي تغلبه كلما عَنَّ على باله تلك المأساة التي كان الحسين ضحيتها، لذلك يشغل عن البرق ،الذي خاطبه الشاعر وبين له أنه مشغول عنه ، فهو يذكره بالحسين. يقول في ذلك[٧]:

أَحَقٌّ ما كانَ مِن قَلبي تَباريحُ	**فَليهْنِئ العَيْن أنَّ الدمعَ مَسفُوحُ**
يا أَيُّها البَرقُ إِنِّي عَنكَ فِي شُغلٍ	**دونَ المزارِ فيافٍ بيننا فيح**

ثم يؤكد الشاعر أن ما يؤرقه ، ويسهره ، ويجعله في حيرة من أمره هو زيارة قبر الحسين الموجود في يثرب، والمسافة بين الشاعر ، وبين ضريح الحسين كبيرة تحول دون

(١) المعجب، **المراكشي**، ص٢٥٥.
(٢) عيسى، فوزي، (٢٠٠٧). **الشعر الأندلسي في عصر الموحدين**. (ط١)، القاهرة: دار الوفاء، ص١٧٥.
(٣) البلنسي، الحافظ أبي عبد الله محمد بن عبد الله بن أبي بكر القضاعي، (د.ت). **التكملة في كتاب الصلة**. (تحقيق عبد السلام الهراش)، عمّان: دار الفكر، ج٢، ص١٠٣.
(٤) التجيبي: هو محمد بن عبد الرحمن بن علي بن محمد بن سليمان التجيبي، نزيل تلمسان، يكنى أبو عبد الله، وُلد في نحو الأربعين وخمسمائة، وتوفي جمادى الأولى سنة عشرة وستمائة. (ابن الأبار، **التكملة لكتاب الصلة**، ص١٠٢، ١٠٤).
(٥) المقري، **نفح الطيب**، ج٥، ص٩١.
(٦) انظر: فوزي، عيسى، **الشعر الأندلسي في عصر الموحدين**، ص١٧٥.
(٧) أحمد بن شكيل، **الديوان**، ص٤٧.

تحقيق أمنية الشاعر . ثم يلقب الشاعر الحسين بقتيل الطف[١]، ويؤكد أن دمعه ممنوحٌ لأهل البيت، يقول في ذلك[٢]:

قَبرٌ بِيَثرِبَ هَمّي لَو ظَفَرتُ بِهِ ... وَمَقْصِدٌ بِجبالِ الطَفِّ مَطروح
مَن كانَ في جَفنِهِ دَمعٌ يَضِنُّ بِهِ ... فَإِنَّ دَمعي لأَهلِ البَيتِ مَمْنُوحُ

ثم يصرّح الشاعر بالمرثي، وهو "الحسين شهيد كربلاء، ويصفه بالفارس المحتسب"، ويصف الشاعر جبريل عليه السلام يحيي روح الحسين التي سقطت في أرض كربلاء ،ويفيض في شجاعة الحسين الذي ثبت في أرض المعركة عندما فر غيره ،وفي ذلك يقول[٣]:

صَلّى الإلَهُ عَلى أَشْلاءِ مُنجَدِلٍ ... بِكَربلاءَ يُحَيّي روحَهُ الرُّوحُ
أَوفى عَلى مَعْرِكِ الأَبْطالِ مُحْتَسِباً ... لَيْثُ شِعاراهُ تَهليلٌ وتَسْبيحُ
طَاروا وَأَثبتَ في الهَيْجاءِ أَخْمَصَهُ ... صَبْراً وَكانَ لَهُ عَنْها مَناديحُ

ويتمنى الشاعر لو شاهد تلك المعركة التي قتل فيها الحسين ، إذن لفداه بروحه ، وصار جسده ترسا يذب عن جسد الحسين ، فيقول[٤]:

لَو كُنْتُ شاهِدَ يَومِ الرَّوعِ قُلْتُ لَهُ ... لشائحُ القَومِ جَلْدٌ دونَهُم شيحُ
وَلا احتَضَنْتُ أَمامَ الصَّفِّ مِنْ جَسَدٍ ... جوداً بِنَفْسي وَبَعضُ الجُودِ مَربوحُ

ثم يعرض الشاعر بابن حرب، ويقصد هنا يزيد بن معاوية بن سفيان بن أبي حرب، ويصف مشهدا مؤلما، وهو مشهد الطواف برأس الحسين الذي يمدحه الشاعر ، ويعرض بمن طاف بذلك الرأس الشريف[٥] :

أَمّا ابنُ حَربٍ فَدَعْ حَرباً وَأُسرتهُ ... تِلكَ الجُسومُ لَوَ انَّ العِرضَ مَمدوحُ
طافوا بِرأسِ ابنِ خَيرِ الناسِ كُلِّهِمُ ... بِئسَ الطَوافُ وَنِعمَ الرَأسُ وَالروحُ

---

(١) الطف: ما أشرف من أرض العرب على ريف العراق. (انظر حاشية الديوان ص٤٧)
(٢) أحمد بن شكيل، **الديوان**، ص٤٧.
(٣) المصدر نفسه، ص٤٧.
(٤) المصدر نفسه، ص٤٧.
(٥) المصدر نفسه، ص٤٧.

وينهي رثائيته طالباً من عينه أن تستبدل الدماء بالدموع على الحسين ، وأن تبكي جهاراً لقتله ، ثم يعود للسانه طالباً منه أن يظل يلهج بمدح الحسين، وذلك أيسر ما يستطيع تقديمه، وفي ذلك يقول[١]:

يا عَـيْنُ جُـودي علـى قَتْـلِ الحُـسينِ دَمـاً وابْكـي جَهـاراً فَـإنَّ الوَجْـدَ تَـصريحُ
ويـا لِسـاني عـاوِدْ مَدْحَـهُ أَبدا وَإنَّ أَيْـسَرَ مـا فيـهِ الأَمَـاديحُ

و كان للأندلسيين عادات ومراسم معينة في ذكرى مقتل الحسين كالتمثيل بإقامة الجنائز، وإنشاد المراثي. فقد وصف ابن الخطيب إحدى هذه المراسم وصفاً شيّقاً حتى يُخيَّل إلينا أننا نرى إحياء هذه الذكرى في بلد شيعي، فذكر أن المآتم كانت تقام في البلاد ليلة مقتل الحسين، وكان الناس يختلفون إليها من كل مكان يقيمون رسم الجنازة في ثياب معينة، وتقدم الأطعمة، وتضاء الشموع، ويوقد البخور، ويُجلب القرّاء المحسنون، ويتغنى بالمراثي الحسنة، وتسمى هذه المراثي بالحسينية[٢].

وقد أورد ابن الخطيب نموذجاً لهذه المراثي ممثلاً في قصيدةٍ لأبي بحر صفوان بن إدريس التجيبي[٣]، وذكر أنها من القصائد المشهورة التي كانت تنشد في الحسينيات.

كما أن للشاعر صفوان بن أبي إدريس غير قصيدة، في رثاء آل البيت وبكاء الحسين، منها هذه القصيدة التي تصل أبياتها إلى ثمانيةٍ وعشرين بيتاً، يصف فيها التجيبي كثرة دموعه وغزارتها وكأنها الغيث المنهمر من السماء ، ولا يلوم الشاعر نفسه على استثارة دموعه وانسكاب عبراته ، ولا عزاء له وقد نفد صبره ، وقلّت حيلته واشتد مصابه ، ثم يعود الشاعر

---

(١) أحمد بن شكيل ، **الديوان**، ص٤٧.
(٢) عيسى، فوزي، **الشعر الأندلسي في عصر الموحدين**، ص١٧٦.
(٣) صفوان بن إدريس بن إبراهيم بن عبد الرحمن بن عيسى بن إدريس، كان أديباً حسيباً ممتعاً من الظرف، انفرد في تأبين الحسين، وبكاء أهل البيت، بما ظهرت بركته عليه ت: ٥٩٨هـ. انظر المقري، **نفح الطيب**، مج٥ ، ص٥).

إلى عينيه لا لينهاهما عن البكاء، بل ليدعو عليهما بالثكل إن بخلا على سبط رسول الله بالبكاء .يقول في ذلك[١]:

إذا جـــادَتْ دُمـــوعي فـــي انْتحـــابِ ... فمـــا دعْـــوى الغَمَـــامِ في الانـــسكابِ
وَحُـــقَّ لِيَ البُكَـــاءُ فَـــإنَّ حُـــزني ... يُـــثيرُ الـــدَّمْعَ في جَفْـــنِ الـــسَّرابِ
وَأَيْـــنَ لِيَ العَـــزاءُ وقـــدْ تَـــرّدى ... فـــراشُ الـــصَّبْرِ في نـــارِ المُـــصابِ
ويـــا عَيْنَـــيَّ إن لَـــم تَـــسْتَهِلّا ... ثكلتُكُمـــا إذاً بَـــيْنَ الـــسحابِ

و يعرض التجيبي بيزيد بن معاوية، مجِّنساً بين "يزيد، ويزيد حقدي"، مبيناً أنه خسر الفوز والنجاة يوم القيامة ، وكيف له أن يرجي شفاعة سيدنا محمد (ﷺ)، وقد قتل سبطه ونكل بأهل بيته . ثم يدعو التيجيبي على يوم الطف، لا بورك فيه من يوم، يقول[٢]:

يَزيـــدُ فَكَـــمْ يَزيـــدُ عليـــكَ حِقْـــدي ... رُزِئـــتَ الفَـــوزَ مِـــنْ حُـــسْنِ المـــآبِ
أَيَـــومَ الطَّـــفِّ لا بُورِكْـــتَ يَوْمـــاً ... جعَلْـــتَ الأَسْـــدَ نَهْبـــاً لِلْكـــلابِ

وينادي الشاعر مولاه الحسين ، نداء العبد المحزون المكلوم المنتحب. وفي هذا نلحظ الألم الذي حل بالتجيبي وغيره ممن يدعون التشيع للحسين وهم ينظمون مراثيهم وفاء لشهيد كربلاء، ويلتمس الشاعر من مراثيه الثواب من الله تعالى وشفاعة النبي (ﷺ)، يقول[٣]:

أَمَـــولايَ الحُـــسَين نـــداءَ عَبْـــد ... عَظـــيم الحُـــزنِ فِيْـــكَ والانتحـــابِ
مَنَحتُـــكَ مـــن بَنـــاتِ الفِكْـــرِ بِكْـــراً ... أَطـــارَ شـــرارها زَنـــدُ اكتئـــابي
عَـــسى الـــرَّحمنُ يَقبَلـــها فَتـــضحي ... شَـــفاعة أَحْمَـــد عَنـــها ثَـــوابي

ومن مراثي التجيبي التي تنشد في الحسينيات، هذه القصيدة التي جاءت في واحد وثلاثين بيتاً، يبدأ الشاعر مُسلماً سلاما يفوح منه الأرج والعطر كالنسيم العليل، ويرسل سلامه إلى منزل الحسين ، يقصد بمنزله قبره . ثم ينسب الشاعر الحسين إلى أمه فاطمة الزهراء ويبين أن مصرع الفاطميين هو غياب للنجوم والبدور، و يبالغ الشاعر وهو يصف مقتل الحسين

---

(١) محمد بن شريفة، (١٩٩٩).**التجيبي، أبو بحر أديب الأندلس، (ت:٥٩٨هـ) عمر قصير وعطاء غزير**،الطبعة الأولى ، ص٩٩.
(٢) المصدر نفسه، ص٩٩.
(٣) المصدر نفسه ، ص١٠٠.

وذلك أن جعل أعضاء النبي تقسَّم، ثم يبيكي الشاعر يوم كربلاء الذي تخلى فيه الشيعة عن الحسين ، فبقيت الأحزان تطاردهم كلما أحيوا ليلة مقتله . يقول في ذلك [١]:

سَـــــلامٌ كَأَزْهَـــــارِ الـــــرُّبى يتنـــــسَّمُ ... علـــى مَنْـــزِلٍ فيـــهِ الهُـــدى يـــتَعلَّمُ
علـــى مَـــصْرعٍ للفـــاطميِّينَ غُيِّبَـــت ... لأوجُهِهِـــم فيـــه بُـــدورٌ وأَنْجـــمُ
علـــى مَـــشْهدٍ لَـــو كُنـــتُ حَاضِـــرَ أَهلـــهِ ... لعايَنْـــتُ أَعـــضَاءَ الـــنَّبِيِّ تُقَـــسَّمُ
علـــى كَـــربلا لا أَخْلـــفَ الغيْـــثُ كَـــربُلا ... وإلاَّ فَـــإِنَّ الـــدَّمْعَ أَنـــدى وَأَكـــرَمُ

ثم يفيض الشاعر في وصف هول كربلاء، فقد ضجت يثرب ، وناح الحطيم وزمزم ومكة والأستار والصفا، وموقف الجمع ، وكأن الشاعر يسرد كل هذه الأماكن المقدسة ليبين حزنها على الحسين – رضي الله عنه – وعلو مكانته، وكأن من قتله جاء شيئا فريا. يقول في ذلك[٢]:

مَـصارِعُ ضَـجَّت يَثْـرِبٌ لِمُـصَـابِها ... وَنَـاحَ عَلَـيهِـنَّ الحَـطِـيمُ وَزَمْـــزَمُ
وَمَــكَّــةُ وَالأَسْـتَارُ والـرُّكْـنُ والصَّـفَا ... وَمَـوقِـفُ جَـمعٍ والمَقَـامُ المُـعَظَّـمُ

ومما يزيد النفس لوعة وأسى تصوير الشاعر فاطمة الزهراء باكيةً شاكيةً للنبي (ﷺ)، ما فُعِل بالسبطين الحسن، والحسين، طالبةً منه أن يأخذ ثأرها ممن قتل سبطيه ظلما وزورا، ولم يندم على ذنبه العظيم ، بل إنه رأى جرمه حسنا ، لذلك تطلب الزهراء يوم القيامة من أبيها أن يعاقبهم ، فيسكِّن قلبَها ، ويهدأ روعها وتكف دموعها إذا رأت النبي(ﷺ) ينتقم من قتلة الحسين يقول في ذلك[٣]:

لَـــو انَّ رَسُـــولَ اللهِ يَحْـــيى بُعَيْـــدَهُم ... رَأى ابـــنُ زيـــادٍ أُمَّـــهُ كَيـــفَ تعقَـــمُ
وَأَقْبَلَـــتِ الزَّهْـــراءُ قُـــدِّسَ تُربُهَـــا ... تُنـــادي أَباهـــا، وَالمَـــدامِعُ تَـــسْجُمُ
تَقـــولُ أَبِي هُـــم غـــادَروا ابْنَـــيَّ نُهْبَـــةً ... لمـــا صَـــاغهُ مَـــيْنٌ، ومـــا ســـحَّ أَرقَـــمُ
سَـــقوْا حَـــسَناً بالـــسُّمِّ كَأسَـــا رَوِيّـــةً ... وَلَـــمْ يَقرعُـــوا ســـنّاً ولم يتنـــدَّموا
وَهُـــمْ قَطعـــوا رَأسَ الحُـــسَينِ بِكَـــربلا ... كـــأَنَّهُم قَـــد أَحـــسنوا حـــيْنَ أَجْرمـــوا
فَخُـــذْ مـــنهُم ثـــاري وَسَكِّـــن جَـــوانِحـــاً ... وَأَجْفـــان عَـــيْنٍ تَـــسْتَطِيرُ وَتَـــسْجُمُ

---

(١) التجيبي، أبو بحر صفوان، **أديب الأندلس**، ص١٢٣.
(٢) المصدر نفسه، ص١٢٣.
(٣) المصدر نفسه، ص١٢٣.

ويختم التجيبي مرثيته هذه بدعوة كل من سمعه أن يقف ويبكي على الحسين، مبينا أنه سيطيل في بكائه، ويطلب من السامعين أن يصلوا على جد الحسين، ويقول في ذلك[١]:

قِفـــوا ســـاعِدونَا بِالـــدُّمُوعِ فَإِنَّهـــا ... لَتَـــصغُرُ فِي حَـــقِّ الحُـــسَينِ وَيَعْظُـــمُ
وَمهمـــا سَـــمِعتُم فِي الحُـــسَينِ مراثِيـــاً ... تُعَبِّـــرُ عَـــن مَحـــضِ الأَســـى وَتُتَـــرجِمُ
فَمـــدُّوا أَكُـــفَّ المُـــسعدينَ بِـــدعوَةٍ ... وَصَـــلُّوا عَلـــى جَـــدِّ الحُـــسَينِ وَسَـــلِّموا

ومن مراثيه أيضاً في رثاء سيّدنا الحسين، وقد عارض بها الحريري في قوله: "خَلِّ ادّكار الأدْمُع"[٢]، ولعل هذه المقطوعة مما ينشد في بكاء الحسين، لأننا نجدها ملحنة، [٣]:

أَوْمِـــضْ بِبَـــرْقِ الأَضْـــلُعِ ... وَاسْـــكُبْ غَمَـــامَ الأَدْمُـــعِ
واحْـــزَنْ طَـــويلاً وَاجْـــزَعِ ... فَهُـــوَ مَكـــانُ الجَـــزَعِ
وَانْثُـــرْ دمـــاء المُقْلَتَـــيْنِ ... تَأَلُّمـــاً علـــى الحُـــسَين
وَابْـــكِ بِـــدَمْعٍ دَوْنَ عَـــيْنِ ... إنْ قَـــلَّ فَـــيْضُ الأَدْمُـــعِ

وقد نظم التجيبي كثيراً من القصائد التي لقبها بالحسينيات، وهي ما قاله يندب الحسين، وأهل البيت، ويكثر فيها من البكاء على الحسين – رضي الله عنه –، ويبين فيها حزن النبي (ﷺ)، لو رأى سبطه يقتل ، وقد أحسن الشاعر التشبيه ، وهو يصور الحسين ظمآن ، فيسقى الحسام المرهف ، وفي هذا دلالة على الوحشية التي قتل فيه الحسين ، لذلك يصور النبي(ﷺ) متألما منطويا متأسفا على ما حدث لسبطه، يقول في ذلك [٤]:

انْـــدُب الطّـــفَّ وَسِـــبْط المُـــصْطَفى ... بِمـــراث هِـــيَ أَسْـــرى مـــن قفـــا
لَـــو رَآهُ جَـــدُّهُ بَيْـــنَكُمُ ... ظامِئـــاً يُـــسْقَى الحُـــسَامَ المُرهَفَـــا
لانْطَـــوى فَـــوق يَديـــه أَلَمـــاً ... وَتَـــولَّى قَـــائلاً وا أَســـفا

(١) التجيبي، أبو بحر صفوان بن إدريس، **أديب الأندلس**، ص١٢٣.
(٢) المصدر نفسه، ص١١٦.
(٣) المصدر نفسه، ص١١٦.
(٤) المصدر نفسه ، ص١١٦.

ويهول الشاعر في مقتل الحسين ،مبينا أنه لا يوزن بأحد إلا رجحه، ولو قتل بمثله كل قاتليه لم ينتصف منهم ، لعظيم شأنه ، وعلو رتبته ، ومقامه ، كيف لا ، وهو سبط المصطفى لذلك يقول[١] :

أَيُّ سِـــــبْطٍ لَـــــو قُتِلـــــتُم عِنْـــــدَهُ	وَقُتِلـــــتم كُلُّكُـــــم مـــــا انتَـــــصَفا

ويختم الشاعر بكاءه للحسين ، مخاطبا بني حرب أنهم جزوا نبي الله بالجفاء عندما قتلوا سبطه ولا عذر لهم فيما فعلوا، ثم يسألهم أيكفيكم هذا الهجاء الممزوج بالرثاء أم يزيد وفي هذا دلالة على تمكن الشاعر ، يقول[٢]:

يـــا بَـــنِي حَـــرْبٍ جَفَـــوتُمْ جَـــدَّهُ	أَرسُـــــولُ اللهِ يُجْـــــزى بالجَفـــــا
يـــا بَـــنِي حَـــرْبٍ ولا عُـــذْرَ لَكُـــمْ	أَأُطيـــــلُ القَـــولَ فـــيكُم أَمْ كفـــا

ومن الشعراء الذين كانت لهم قصائد في رثاء الحسين – رضي الله عنه – ناهض الوادي آش[٣]، الذي جاءت مرثيته في ستة عشر بيتاً يخاطب فيها الحمامة الساجعة على عود الأراك ، ويسألها ما يبكيها؟ ، أجفاء الألاف أم فراق الأحباب أم أن البرق الذي يلوح بالأفق يهيج الأشجان ، ويذكر بالخلان؟ [٤]:

أَمُرِنَّـــــةً سَـــــجَعَتْ بعـــــودِ أَراكِ	قـــولي موهّـــــةً: عَـــــلامَ بُكـــــاكِ
أجفـــــاكِ إِلفُـــــكِ أَم بُليـــــتِ بِفُرقـــــةٍ	أَمْ لاحَ بَـــــرقٌ بـــــالحِمى أَشْـــــجاكِ

ثم يبين الشاعر لتلك الحمامة الباكية ، أن أحزانه تتجدد ، وبكاءه يتزايد ولو كان حالها كحاله ما أفاقت من الأحزان ، ومرد تلك الأحزن المتزايدة والآلام المتجددة بكاء الحسين، "قتيل الطف" فرع المصطفى ثم يتوعد الشاعر الذين تركوا الحسين مضرجا بدمائه تمزق أشلاءه الشريفة السيوفُ بالويل والثبور ، يقول في ذلك [٥]:

لَـــو كُنْـــتِ مِثلـــي مـــا أَفَقْـــتِ مِـــنَ البُكـــا	لا تَحْـــسبي شـــكوايَ مِـــنْ شَـــكْواكِ

(١) التجيبي، أبو بحر صفوان بن إدريس، **أديب الأندلس**، ص١١٦.
(٢) المصدر نفسه، ص١١٦.
(٣) ناهض الوادي آشي: توفي بوادي آش سنة ستمئةٍ وخمس عشرة للهجرة. (المقري، **نفح الطيب**، مج٥، ص٧١).
(٤) المقري، **نفح الطيب**، مج٥، ص٧١.
(٥) المصدر نفسه، مج٥، ص٧١.

إِيْـــــهِ حَمامـــــةُ خَبِّـــــريني، إِنَّـــــني أَبْكـــي الحُـــسَينَ، وأَنْـــتِ مـــا أَبكـــاكِ

أَبْكِـــي قتيـــلَ الطّـــفِّ فَـــرع نَبيِّنـــا أُكْـــرِم بِفـــرعٍ للنبـــوَّةِ زاكـــي
وَيـــلٌ لِقَـــومٍ غـــادروهُ مُـــضَرَّجاً بدمائـــه نَـــضوا صَـــريعَ شَـــكاكِ
مُتَعفـــراً قـــد مُزِّقَـــتْ أَشـــلاؤهُ فَرْيـــاً بِكُـــلِّ مُهَنَّـــدٍ فَتَّـــاكِ

ثم يختتم الشاعر رثائيته مخاطبا يزيد بن معاوية الذي لم يراع حرمة النبي (ﷺ)عندما قتل ذلك الليث، ويقصد به الحسين، ثم يتوعد يزيد بالنار والحرمان من شفاعة النبي (ﷺ) ، وأنه سينبذ في نار جهنم خالداً فيها إلى ما شاء الله[١].

أَيَزيـــدُ لَـــو راعَيـــتَ حُرمَـــةَ جَـــدِّه لَـــم تَقتـــنص لَيْـــثَ العَـــرين الـــشَّاكي
أَو كُنْـــتَ تُـــصغي إِذ نَقَـــرتَ بِثَغْـــرِه فرغـــت صـــماخك[٣] أنّـــة المـــسواكِ
أَتَـــرُومُ وَيْـــكَ[٢] شَـــفاعَةً مِـــنْ جَـــدِّه هَيهـــاتَ لا، وَمُـــدَبِّرِ الأَفْـــلاكِ
ولـــسَوفَ تُنْبَـــذُ في جَهَـــنَّمَ خالـــداً مـــا اللهُ شـــاء وَلاتَ حـــين فَكـــاكِ

فالشاعر فيما سبق يبين أن يزيد قام بنقر ثغر الحسين ، بعد أن قتله وطاف برأسه .

ونستطيع القول إن رثاء آل البيت وصل إلى الأندلس مع دولة الموحدين، و نذهب في هذا المبحث مع الدكتور فوزي عيسى في كتابه "الشعر الأندلسي في عصر الموحدين"، إن مراثي الحسين ليست إلا تعبيراً عن حب الشعراء الأندلسيين للرسول الكريم وأهل بيته الأطهار، وليس فيها ما يدل على نزعة شيعية أصيلة، كما أنها تخلو من أية إشارات إلى أفكار الشيعة ومبادئهم، ولا نستطيع أن نحكم على أولئك القوم أنهم شيعيون، أو أنهم كانوا يتخذون التشيع مذهباً لهم.[٤]

---

(١)المقري، **نفح الطيب**، ج٥، ص٧١.
(٢) ويك : بمعنى ويحك وتدل على التوبيخ .
(٣) الصماخ : الأذن ، وقيل ثقب الأذن . لسان العرب ، مادة صمخ .
(٤) عيسى، فوزي، **الشعر الأندلسي في عصر الموحدين**، ص١٧٨.

الفصل الرابع

المبحث الأول: رثاء الأصدقاء.

المبحث الثاني: رثاء الجواري.

المبحث الثالث: رثاء الغلمان.

المبحث الأول: رثاء الأصدقاء:

الصداقة، علاقة نبيلة تجمع بين شخصين أو أكثر، وغالباً ما تتحلى هذه العلاقة بالمودة والمحبة؛ فالصديق قد يكون من الأقارب، وقد يكون من غيرهم، وليس من السهل على أيّ منا أن يجد صديقاً صدوقاً منصفاً يكون عوناً له على تقلبات الزمن. وإذا ما عُثِرَ على هذا الصديق، كان فراقه صعباً، وبعده ألماً، ونسيانه أمراً جللاً.

وقد زخر الأدب الأندلسي بعلاقات الصداقة التي كثيراً ما تربط بين الشعراء، وغيرهم من أبناء المجتمع الأندلسي.

ويعد رثاء الأصدقاء تعبيراً عن عاطفة الصداقة السامية بما تنطوي عليه من معاني الوفاء والحب والتضحية، وفي هذا الرثاء يبكي الشاعر في صديقه أخلاقه النبيلة، ويصوّر وقع المصاب في نفسه، ويفيض في وصف خسارته بفقد هذا الصديق(١).

ومن أشهر الشعراء الذين سطروا أروع الشعر وأعذب الكلمات، فجاءت قصائدهم خالدةً تتسم بالصدق، و ظهر أثر الحرقة في أشعارهم على فقد خلانهم الشاعر الجنان، ابن خفاجة الذي تميّز بعاطفة جياشة، وهمة رفيعة، فقد امتد به العمر حتى بلغ اثنتين وثمانين سنةً، شهد خلالها وفاة كثير من أصدقائه وأحبائه الذين امتلأت بهم حياته سعادةً وسروراً، وسار في جنازاتهم جميعاً يشيعهم إلى مثواهم الأخير الواحد تلو الآخر(٢)، ومن ذلك ما قاله "متوجعاً لوفاة الإخوان والأتراب، عقب سيل عفا الدار ومحا الآثار"، يقول في ذلك(٣):

أَلا عَرَّسَ الإِخوانُ في ساحَةِ البِلَى ... وَما رَفَعوا غيرَ القُبُورِ قِبابا
فَدَمعٌ كَما سَحَّ الغَمامُ وَلَوعَةٌ ... كَما أَضْرَمَت ريحُ الشمالِ شِهابا
إِذا استَوقَفَتْني في الديارِ عَشيَّةً ... تَلَذَّذتُ فيها جيئةً وذِهابا

فالواضح أن ابن خفاجة في الأبيات السابقة يقرر مصير أصحابه الذين قضوا نحبهم، ولم يبقَ لهم غير القبور، التي تشبه القباب، ولم يكن أمام الشاعر إلا أن يسرح بصره ذهابا وإيابا حائرا على مصير أصحابه الذين ولوا إلى غير عودة .

---

(١) عيسى، فوزي سعد، **الشعر الأندلسي في عصر الموحدين**، ص٢٢٣.
(٢) والي، فاضل فتحي، (١٩٩٦). **الفتن والنكبات الخاصة وأثرها في الشعر الأندلسي**. (ط١)، الرياض: دار الأندلس للنشر والتوزيع، ص٣٢١.
(٣) ابن خفاجة، **الديوان**، ص١٧٧.

وبعد ذلك يبين أنه ذرف دموعه على إخوانه وأصدقائه مشبهاً دموعه بالغمام، الذي تأتيه رياح الشمال، فتهيج الغيم، وترسل المطر، ثم يتذكر ابن خفاجة ديار أصدقائه، وقد أقفرت من ساكنيها فلم يكن أمام الشاعر إلا الحيرة والالتفات يميناً وشمالاً، ذهاباً وإياباً، وهذه صورة واقعية للحيرة التي كانت تختلج في نفس ابن خفاجة، وهو يرى الموت وقد أحاط به، وأخذ أصحابه، يقول(١):

أَكُــــرُّ بطــــرفي في مَعاهـــد فتيَـــةٍ ... ثَكلــتُهمُ بــيضَ الوجـــوه شـــبابا
فَطـــالَ وُقـــوفي بَـــينَ وَجْـــدٍ وَزفْـــرَةٍ ... أُنـــادي رُســـوماً لا تُحـــيرُ جَوابـــا
وَحَـــسْبي شَـــجْواً أَنْ أرى الـــدّارَ بَلقعـــاً ... خَـــلاءً وَأَشْـــلاء الـــصَديقِ تُرابـــا

فالأبيات السابقة تبين أن الشاعر كان يتردد على قبور أصدقائه ويناديهم، ولكن لا جواب، ويطيل ابن خفاجة وقوفاً بين تلك الرسوم التي لا تعيره جواباً، ولا يجد إلا الدار وقد أقفرت من ساكنيها وصارت خاليةً، ليس بها إلا أشلاء الأصدقاء التي علاها التراب.

ولابن خفاجة أيضاً مقطوعة ثانيةٌ قالها إثر فقده لأحد خلانه، وقد رسم الشاعر لنفسه في هذه المقطوعة التي جاءت في ثلاثة أبيات صورةً واقعيةً تمثل حيرته وقلقه، فقد كان يرتجف إذا علم عن خبر أحدٍ من أصدقائه، ويبين في البيت الأخير أن حسبه الله الذي آنس يعقوب في كربته، وأنقذ يونس في بطن الحوت، يقول في ذلك(٢):

أَفي كُـــلِّ يَـــومٍ رَجفَـــةٌ لمُلمَّـــةٍ ... بفَقْـــدِ خَليـــلٍ يمـــلأُ العَـــيْنَ مُـــؤنِسِ
أَبيـــتُ لَـــهُ تَنْـــدى جُفـــوني لَوْعَـــةً ... كَما دَمَعَـــتْ تَحْـــتَ الحَيـــا عـــيْنُ نَـــرْجِسِ
وَحَـــسْبي إذا مـــا أَوجَعَـــتْني كُرْبَـــةٌ ... بِمُـــؤنسِ يَعقـــوبٍ ومُنقِـــذِ يـــونسِ

فالشاعر في الأبيات السابقة يشرك الطبيعة في الرثاء، إذ يشبّه دموعه بعين النرجس التي يخرج منها الماء، وقد أجاد الشاعر في ذلك التشبيه.

كما رثى ابن خفاجة جملةً من الإخوان أعيان إشبيلية، تلاحقوا في أقصر مدة، وندب معاهد الشباب في قصيدة مدح فيه أبا العلاء بن زهر(٣). ونادى إخوانه في لغة حزينة يظهر فيها

(١) ابن خفاجة، **الديوان**، ص١٧٨.
(٢) المصد نفسه، ص١٨٣.
(٣) ابن خفاجة ، **الديوان**، ص١٩٨.

قلق الشاعر، وأرقه وحيرته وهو يرسل عبراته ، ويخفض صوته شاكيا ما حل به ، ولا سبيل للصبر عنده.

يقول ابن خفاجة واصفا حزنه على أصدقائه[١]:

أَإخوانَنـــــا بالعَـــــدوَتينِ صَـــــمَمتُمُ ... بِحُكـــمِ الـــرَّدى عَـــن أَن تُجيبـــوا المُناديـــا
فَقَيَّـــدْتُ مِـــن شَـــجوي وأَطلقْـــتُ عَبْـــرَتي ... وَخَفَّـــضْتُ مِـــنْ صَـــوتي هُنالـــكَ شـــاكيا
وَأَكْـــبرتُ خَطبـــاً أَنْ أَرى الـــصَّبرَ بائنـــاً ... وراءَ ظَـــلامِ اللَّيـــلِ وَالـــنَّجم ثاويـــا

ويعود ابن خفاجة ليتذكر أيامه مع خلانه وأصحابه، فقد كانت أياماً حسنةً عطرةً، ولكن هذه الأيام ذهبت إلى غير عودة، ولم يبقَ منها إلا لوعة تَقُضُّ مضجع ابن خفاجة، فلا يجد معيناً إلا الدموع، ولا صديقاً إلا الليالي يشكوها ما حلَّ به، يقول في ذلك[٢]:

زَمـــانٌ تَـــولّى بالمَحاســـن عَـــاطِرٌ ... تَكـــادُ لَياليـــه تَـــسيلُ غَواليـــا
تَقَـــضّى وَأَلْقـــى بَـــيْنَ جـــنبَيَّ لَوْعَـــةً ... أُنَـــاجِي بِهـــا أُخـــرى اللَّيـــالي البواكيـــا

والقصيدة طويلة ومليئة بالذكريات الجميلة التي قضاها الشاعر بين أصحابه وخلانه، ويتضح فيها حنينه لتلك لليالي، ويبرز الليل في القصيدة ليذكر الشاعر بهؤلاء الأصدقاء الذين فارقوه إلى غير عودة، ولا يجد الشاعر إلا دموعه ليذرفها على من فارقوه.

ومن الشعراء الذين رثوا أصدقاءهم ابن حمديس، في رثائه الشاعر عمر الزكومي، وقد جاءت المرثية في ثمانيةٍ وعشرين بيتاً، طلب فيها الشاعر من دموعه أن لا تكف عن البكاء، وأن تفيض فيه، وبين أن الأسى قد تبدّل بالمصائب، وأن الحزن ملأ عالمه، ثم طلب من المخاطب أن يكون ذليلاً لرب العزة كالجمل المروض ، يقول في ذلك[٣]:

أَيـــا خُلُـــجَ المَـــدامعِ لا تَغيـــضي ... وَذوبي غـــيرَ جامـــدَةٍ وفيـــضي
فَقَـــد قُلِـــبَ التّأسِّـــي بالرَّزايـــا ... أَسَـــىً مَـــلأ التَراقـــيَ بـــالجريضِ[٤]
فَـــدع أشـــرَ الجمُـــوحِ وَكـــنْ ذَلـــيلاً ... لِعِـــزِّ اللَّـــه كـــالعودِ المَـــروضِ[٥]

(١)ابن خفاجة ، **الديوان**، ص١٩٩.
(٢) المصدر نفسه،ص١٩٩.
(٣) المصدر نفسه ص٢٩٤.
(٤) الجريض: بلع الريق حزنا . (انظر لسان العرب ،مادة جرض) .
(٥) العَوْد:الجمل المسن. (انظر لسان العرب :مادة عَوَد)

وبعد هذه المقدمة انصرف ابن حمديس إلى الزهد في الدنيا، مبيناً أنه أشقى الناس من طاوع نفسه في غيّها. وظل على هذا المنوال ضارباً أروع الأمثلة لترك ملذات الحياة، وأنها لا أمان لها، فملذاتها سرعان ما تنقضي، إلى أن يصل الشاعر إلى رثاء صاحبه الزكومي ، وقد مدح الشاعر المرثى، وذكر أن الكرم من أهم صفات المرثي، وأنه حلو الشمائل، شاعر يحسن الشعر الجيد المطبوع، و صوّر علم العروض مات بعد هذا الشاعر المجيد ، ثم أشار ابن حمديس إلى أخلاق المرثي الدمثة التي لو مزجت بالقطران، لتحوّل إلى ماء عذب سائغ للشاربين يقول(١):

وَقـــالوا الزَّكـــوميُّ أُذيـــقَ كَأســـاً ... يَحُـولُ بِهـا الجَـرِيضُ عَـنْ القَـرِيْضِ(٣)
فَقَـــدتُم في المُعَلّـــى كِبْـــرَ حَـــظٍّ ... لَـــهُ بالفـــائزينَ نَـــدى مفـــيضِ
يَطـــيرُ بِـــهِ جَنـــاحُ الطَّبْـــعِ سَـــبْقاً ... مِـــنَ الإحـــسانِ في جَـــوٍّ عَـــرِيْضِ
وَلَـــو مُزِجَـــتْ حَلاوتـــهُ بِـــنفط(٢) ... لَـــساغَ وَجَـــلّ عَـــن خَـــصْرِ الفَـــضيضِ(٤)
لَقَـــد عَـــدِمَ المُعمّـــى مِنْـــهُ فَكّـــاً ... وَمَـــات لِمَوتِـــهِ عِلـــمُ العَـــروضِ

ونادى الشاعر المرثي بكنيته "أبا حفصٍ"، مبيناً أنه ترك من خلفه محزونين عليه، ثم يدعو له الله بالرحمة، ويطلب له السقيا من المزن، ويختم قصيدته قائلاً : إنه أبقى ألسن الناس تلهج بمفاخر المرثى، يقول في ذلك(٥):

أَبـــا حَفْـــصٍ تَرَكْـــتَ بِكُـــلِّ حَـــزْنٍ ... عَليـــكَ الفَـــضْلَ ذا قَلْـــبٍ مَهـــيْضِ
يُـــرَوّي اللَّـــهُ تربـــاً نمـــتَ فِيْـــهِ ... فَبَـــاكي المُـــزنِ مُبْتَـــسمُ الـــوميضِ
فَقَـــد أَبقيْـــتَ أَلـــسنة البَرايـــا ... بِفخْـــرِك في حَـــديْثٍ مُـــسْتَفيْضِ

---

(١) ابن حمديس، **الديوان**، ص٢٩٥.
(٢) النفط : القطران (انظر :لسان العرب، مادة نفط)
(٣) الجريض : غصص الموت ، القريض : الشعر . ومن أمثال العرب: حالَ الجَرِيضُ دون القَرِيض؛ لأنه إذا غُصَّ لم يَقْدِرْ على قَرْض جِرَّتِه. والقَرِيضُ:الشِّعْر وهو الاسم كالقَصِيدِ، والتقْرِيضُ ، وهذا المثل لعَبِيد بن الأبرص قاله للمُنْذِر حين أراد قتله، فقال له: أنشدني من قولك، فقال عند ذلك: حال الجريض دون القريض(انظر :لسان العرب، مادة : قرض)
(٤) الفضيض: الماء العذب، وقيل : السائل . (انظر :لسان العرب، مادة فضض)
(٥) ابن حمديس، **الديوان**، ص٢٩٥.

ونخلص إلى القول: إن رثاء الأصدقاء من أكثر الأبواب التي طُرقت في الشعر الأندلسي، فمنه ما نظم في العلماء ومنه ما نظم في الأمراء. ويتميز هذا الشعر بصدق التعبير، وغالباً ما يكتب على الوفاء، فيبين فيه الشعراء الحسرة التي تنتابهم كلما ذكروا خلانهم،أو زاروا آثارهم، أو مروا من قبورهم، فتخرج رثائياتهم معبّرة عما يختلج داخل نفوسهم ويختلج بين ضلوعهم.

المبحث الثاني : رثاء الجواري:

طفح المجتمع الأندلسي بالجواري، ويقصد بالجواري، النساء المملوكات اللواتي يُبَعن بيع العبيد، وهن جزء من طبقة الرقيق، ولكن لهن صفاتهن الخاصة التي فرضتها عليهن أنوثتهن والظروف التي أحاطت بهن وإمكانياتهن(١).

وتقسم الجواري إلى نوعين: جواري الخدمة، ويشمل الجواري اللاتي يستخدمن في القصاء لقضاء الحاجات المنزلية، وما شابهها. وغالباً ما يكن من الجواري اللاتي جاوزن سن الشباب، أو ممن لا يصلحن للمتعة والتسلية(٢).

أما النوع الثاني فهن جواري اللذة: وهن اللاتي يستخدمن لتسلية أسيادهن، وجلب المتعة إلى نفوسهم بمختلف الوسائل، وقد كن على وجه العموم يثقفن ثقافة خاصة تساعدهن على أداء واجباتهن، فكن يتعلمن رواية الشعر والغناء والموسيقى والرقص، ويخترن من بين الجواري الشواب الحسان، وأثمانهن مرتفعة جداً، وتزداد ارتفعاً كلما تعددت صفات الجارية واتسعت ثقافتها(٣).

وفي الأندلس نمت شخصية بعض الجواري حتى نازعن الحرائر منازلهن السامية داخل القصور وخارجها، وكان لهن شهرة ذائعة في الأدب والشعر، حتى فرضن على سادتهن احترامهن وتقديرهن، وظللن أوفياء لوطنهن، حتى لقد كنّ عاملاً من عوامل القضاء على الحكم الإسلامي في الأندلس، مما أشعن في قلوب أبنائهن من ولاء لوطنهن، والنظرة إلى الحكم العربي على أنه حكم دخيل ينبغي التخلص منه(٤).

وقد كان لرحيل الجواري أثر في نفوس شعراء الأندلس فهم في رثائهم لجواريهم كتبوا أشعارهم الحزينة الباكية على قيثارة الحزن، الذي رثوا به زوجاتهم وأخواتهم وأهليهم، حيث اصطبغ بالدموع على الفقيدة ليطفئ من خلال هذه الدموع لوعة الفراق، ثم تصوير الحالة التي أمسى عليها بعد فراق جاريته(٥).

---

(١) خالص، صلاح، (١٩٦٥). **إشبيلية في القرن الخامس الهجري**. بيروت: دار الثقافة، ص٩٦.
(٢) المصدر نفسه، ص٩٦.
(٣) المصدر نفسه، ص٩٦.
(٤) شلبي، سعد إسماعيل١٩٧٨، **البيئة الأندلسية وأثرها في الشعر**، القاهرة: دار نهضة مصر للطباعة والنشر، ص٤٥٠-٤٥١.
(٥) أبو صالح، وائل، (١٩٨٥). **الجواري في الأندلس**. رام الله: منشورات دار القلم، ص١٢١.

ومن شعراء الأندلس الذين فجعهم الدهر بموت جواريهم ابن حمديس الصقلي، الذي توفيت له جارية غرقاً في المركب الذي عَطِب إثر خروجه من الأندلس[١] إلى أفريقيا فرثاها بقصيدة وصلت أبياتها إلى تسعة وعشرين بيتاً، وقد بدأ ابن حمديس مرثيته جاريته مبيناً حُسن صفاتها الجسدية، ومصوِّراً المرثية بغصن البان الذي يهصر، فينتقل من حال حسنة جميلة إلى حالة ضعف وهوان، ثم ينادي الجارية الفقيدة وكأنها عِقدٌ منتظم الشمل، فانتثر هذا العقد، وبيّن في البيت الثاني أن حاله صارت حزينة بسبب غياب تلك الدرة الثمينة، يقول في ذلك[٢]:

أَيــا رَشــاقةَ غُــصْنِ البــان مــا هَــصرك ... وَيــا تَــأَلُّفَ نَظْــمِ الــشَّمْلِ مَــنْ نَثَــرك
وَيــا شُــؤوني وَشــأني كُلّــهُ حَــزَنٌ ... فُــضّي يواقيــتَ دمعــي واحبــسي دُرَرك

ثم يبين ابن حمديس أن صبره نفد بعد غياب تلك الجارية، ويبين أن الموج حال بينه وبين جاريته، فطواها عن عينه، ولكنها ما زالت ماثلةً في قلبه، ويلوذ الشاعر بالطبيعة ليرسم مشهداً جميلاً مصوراً المرثية قبل وفاتها بالروض الحسن النضير، ولا تجد العين في ذلك الروض زهراً ذابلاً، ويدل هذا على جمال تلك الجارية، ثم يعود الشاعر إلى الحقيقة المؤلمة، وهي أن البحر كان سبباً في موت المرثية مبيناً أن هناك تياراً عالياً قد خطفها من المركب، ويصوّر التيار البحري بالإنسان الحاسد، الذي أعجبه حسن هذه الجارية وظنها درةً، فلم يجد لها مكاناً مناسباً إلا قاع البحر، لتكون جنباً إلى جنب مع درر البحر، وحجارته الكريمة، يقول في ذلك[٣]:

لا صَبْر عنــكِ وَكيــفَ الــصَّبْرُ عَنْــك وقَــد ... طَواكِ عَــن عــيني المَــوجُ الَّــذي نَــشَرك
هَــلاّ وروضَــةُ ذاكَ الحُــسْنِ ناضِــرَةٌ ... لا تَلحَــظُ العَــينُ فيهــا ذابِــلاً زهــرك
أَماتــكِ البَحــرُ ذو التَيّــارِ مِــن حَــسَدٍ ... لَمّــا درى الــدُرُّ منــهُ حاسِــداً ثغْــرك

ويبين الشاعر كيف أن الدمع قد لازمه، والحزن لم يفارقه منذ أن غرقت المرثية في البحر، والشاعر يكاد يغرق بدموعه لكثرة أحزانه، ثم يلوذ بالتقسيم مبيناً أنه يحق له أن يبكي،

---

(١) ابن حمديس، **الديوان**، ص٢١٢.
(٢) المصدر نفسه، ص٢١٢.
(٣) المصدر نفسه، ص٢١٢.

فعلى ما يبكي هل على أخلاقها أم على معناها أم على صغر سنها، وفي هذا دلالة على أن جارية ابن حمديس كانت من الجواري الثمينات(١).

وَقَعْتُ فِي الدَّمْعِ إذ أُغرقتِ فِي لُجَجٍ	قَدْ كَادَ يَغْمُرُنِي مِنْهُ الَّذي غَمَرَك
أَيَّ الثَّلاثَةِ أَبْكِي فَقْدَهُ بِدَمٍ	عَمَيْمَ خُلقِكِ أَمْ مَعنَاكِ أَمْ صِغَرك

ثم يلتفت الشاعر إلى قبر المرثية، ويبين أنه يعانق ذلك القبر شوقاً لمن سكنه، ويود لو وقاها ببصره، يقول في ذلك(٢):

أُعَانِقُ القَبْرَ شَوقاً وَهُو مُشْتَمِلٌ	عَلَيْكِ لَو كُنْتُ فيهِ عالماً خَبرَك
وَدَدْتُ يا نُورَ عَيْنِي لَو وَقى بَصَري	جَنادلاً وتراباً لاصقاً بشرك

ثم يبين الشاعر ملامح جمال المرثية من خلال توجيهه سؤاله إلى البحر، فقد كانت المرثية ذات أسنان جميلة، وكانت رشيقة القوام، وبعد ذلك يتعجب من عظمة البحر؛ لأنه لم يصبه سحر جمال المرثية عندما عانقها، ثم يزيد الشاعر في بيان وجه المرثية "جوهرة"، ويتوجه له بالنداء، وقد صار محجوباً عنه، مصوّراً موت جوهرة بالقمر إذا كُسف، يقول(٣):

أَقُولُ للبَحْرِ إذ أَغشَيْتُه نَظَري	ما كَدّرَ العَيْشَ إلاَّ شُربُها كَدَرك
هَلا كَفَفْتَ أُجاجاً مِنكَ عَن أشَرٍ	مِن ثَغْرِ لَمياءَ لَولا ضَعفها أَسَرك
يا وَجهَ جَوهَرةَ المَحجُوب عَن بَصَري	من ذا يقيكَ كُسُوفاً قد علا قَمَرك

ويظل الشاعر في هذا الجو المليء بالحزن والدموع والبكاء واللوعة، وكأن جاريته كانت كل شيء بالنسبة له، فهي "دولة الوصل" وقد ولت عنه، ثم ينهي ابن حمديس مرثيته مستسلماً، ومبيناً أن الأعمار بيد الله، وقد شاءت مشيئة الله أن ينجو ابن حمديس ويمدّ له في عمره، وترحل جوهرة عن الدنيا إلى غير عودة، يقول(٤):

يا دولةَ الوَصْلِ إن وَلَّيتِ عَن بَصَري	فالقلبُ يَقرَأُ في صُحفِ الأَسَى سَمَرَك
وَما نَجَوتُ بِنَفسي عنْكِ راغِبةً	وَإنَّما مَدّ عُمْري قاصِرٌ عمرك

(١) ابن حمديس، **الديوان**، ص٢١٢.
(٢) المصدر نفسه، ص٢١٢ و٢١٣.
(٣) المصدر نفسه، ص٢١٣.
(٤) المصدر نفسه، ص٢١٣.

ومن الشعراء الذين رثوا جواريهم أبو القاسم بن طفيل المالقي[١]، الذي يبكي على زوال الجمال وانتهاء الوصل، ويتحسر على ذلك الجسد المفقود، ويندب تلك المفاتن الذاوية، ويطيل في ترديد المعاني الحسنة، حتى ليخيل إلينا أننا في مقام غزل[٢]، وليس مقام رثاء، يقول[٣]:

أَمْسَيْتُ أَنْدُبُ في الفِراشِ مَكانَهَا ... وكأَنَّهُ ما كَانَ منهَا عامرا
وَكَأَنَّني لَم أجْنِ منها رَوْضَةً ... وَكأَنَّني لَم أَثْنِ غصنا ناضِرَا
وكأَنَّني واللَّيلُ أَرخى سِترهُ ... لَمْ يُبدُ لي مِنها هِلالاً زاهِرَا

ونخلص إلى القول: إن رثاء الجواري يختلف عن رثاء الزوجات والأمهات، فقد كان الشعراء يبكون في جواريهم جمال المرثية وحُسن القوام والاعتدال والتثني، وهم غالباً ما يبينون أن هذه الجارية كانت صغيرة السن جميلة الوجه، حسنة المعاملة، كما كان عند ابن حمديس، فالشاعر لا يهتم بالبكاء على الجارية بقدر اهتمامه بندب محاسنها والتغزل في جمالها، والإشادة بمفاتنها الجسدية التي حُرم منها، فهو بكاء على زوال الجمال، وانتهاء دولة الوصل[٤]، وبقي أن نقول إن هذا الفن يمتاز بصدق العاطفة.

---

(١) ابن طفيل المالقي: سكن مالقة، وكان يكتب عن ولاتها من ملوك بني عبد المؤمن. (المراكشي، **البيان المغرب**، ج٢، ص٨٤)

(٢) عيسى، فوزي، **الشعر الأندلسي في عصر الموحدين**، ص١٧١.
(٣) المراكشي، **البيان المغرب**، ج٢، ص٨٤.
(٤) عيسى، فوزي، **الشعر الأندلسي في عصر الموحدين**، ص١٧١.

المبحث الثالث: رثاء الغلمان

شاع في الأدب الأندلسي رثاء الغلمان، الذي نجده في دواوين بعض الشعراء، كالرصافي البلنسي، وغيره من الشعراء الذين اشتهروا بالغزل بالمذكر، كابن سهل الإسرائيلي، الذي كان يتغزل في غلام اسمه "موسى".

ولكن من المجحف أن نحكم على المجتمع الأندلسي أنه مجتمع شاذ، فيتغزل بالغلمان أو يرثيهم، ولكن هذا الواقع درسه بعض الباحثين مثل الدكتور صلاح خالص في كتابه الموسوم بـــ"إشبيلية في القرن الخامس الهجري"، وبيّن أن حب الغلمان يبدو شائعاً في الأندلس، كما يدل ما وصلنا من ذلك الزمان(١).

ومن الذين وقفوا عند ظاهرة رثاء الغلمان محمد مجيد السعيد في كتابه الموسوم بـــ"الشعر في عهد المرابطين والموحدين بالأندلس"، ويبين أن ذلك "من أرق مراثيهم – أي الأندلسيين، وأقربها إلى النفس تلك المقطوعات التي قيلت في رثاء الغلمان"(٢).

ومن أهم شعراء الأندلس الذين رثوا غلمانهم الرصافي البلنسي، الذين كان له غلام اسمه "عثمان" فـــرثاه بغير قصيدة. وجاءت مراثيه في مقطعات شعرية، لم تتجاوز جميعها العشر أبيات . يقول الرصافي في أولى هذه المقطعات راثياً يوسف(٣):

حَيـــــاً وَحَيـــــاةٌ سَـــــرْمَدٌ وَتَحيّـــــةٌ ... عَلى العَلَقِ(٤) المَطْلُوْلِ مِـــنْ كَثَـــبِ الـــشِّعْبِ
تَـــساقَطَ مَـــرْفضّ الرَّشاشَـــةِ فَاغتَـــدَتْ ... بِـــهِ سَـــاحَةُ الـــدُّنيَا مُـــضَمَّخَةَ التُّـــرْبِ
وَمِـــنْ أَسَـــفِ الـــدُّنيَا بُكَـــائي ليوسُـــفٍ ... ومـــا لِثـــراهُ في دمُـــوعي مِـــن شُـــرْبِ

فالرصافي في الأبيات السابقة يرسل سلاماً سرمدياً دائماً على دم يوسف المسفوح، في كثب الشعب، وفي هذا دلالة على أن يوسف مات مقتولاً.

بعد ذلك يصوّر الشاعر المرثي، كوكبا أو نجما سقط من أعلى إلى أسفل، فيوسف عندما رُش دمه على الأرض وانتثر عليها، تحوّلت ساحة الأرض إلى ساحة حمراء، وقد

---

(١) صلاح، خالص، **إشبيلية في القرن الخامس**، ص١٠٢.
(٢) السعيد، محمد ، **الشعر الأندلسي في عهد المرابطين والموحدين بالأندلس**، ص٣٠١.
(٣) الرصافي البلنسي، **الديوان**، ص٤٢.
(٤) العلق: قطع الدم.

تلطخت بدماء يوسف، ثم ينتقل إلى وصف حزنه على "يوسف" ويتأسف على الدنيا، وهو يبكي على المرثي ويسكب دموعه المالحة عليه.

أما المقطوعة الثانية في رثاء يوسف فقد جاءت في بيتين، وضح فيهما الشاعر أن يوسف مات مقتولاً، وقد صار فؤاد الشاعر كليماً جريحاً ، ومقلته حزينة باكية وكأنها جرح ينزف دماً، يقول[١]:

لا تَسَلْ بَعْدَ قَتْلِ يُوسُفَ عَنّي ... فَفُؤادي مُثَلَّمٌ كَسِلاحِه
لَو تَأَمَّلْتَ مُقْلَتي يَوْمَ أَوْدى ... خِلْتَني بَاكياً بِبَعْضِ جِراحِه

أما المقطوعة التي أبدع فيها الرصافي، وكان رثاؤه فيها رقيقاً عذباً، رشيقاً، يقتنص المعاني والصور، وحسن التعليل فهي[٢]:

يا وَردَةً جَادَتْ بِهَا يَدُ مُتحفي ... فَهَمى لَها دَمعي وَهاجَ تَأَسُّفي
حَمْراءُ عَاطِرَةُ النَّسيمِ كَأَنَّها ... مِنْ خَدِّ مُقْتَبِلِ الشَبيبة مُتْرَفِ
عَرَضَتْ تُذَكِّرُني دَماً مِن صاحِبٍ ... شَرِبَتْ بِهِ الدُّنْيا سُلافَةَ قرقفِ

فالواضح من الأبيات السابقة أن احمرار الورد يذكر الشاعر يوسف، وهذا التذكر يجعل الشاعر حزيناً يذرف دموعه أسفاً وحزناً على ذلك القوام الرشيق، والعطر النسيم، والخد المترف، ثم يبين أن هذه الوردة تذكره بصاحبه و يشبه احمرار الورد باحمرار خدوده، ونعومة ملمسه، ثم يصرّح الشاعر بأنه لثم الوردة شغفاً، وقال لدموعه إن هذه الوردة هي بقايا جسم يوسف الذي واراه التراب، فصار ذلك الثرى، يمدّ الأرض بالمسك، يقول[٣]:

فَلثمتُهَا شَغَفاً وَقلْتُ لِعبْرتي ... هِيَ مَا تَمُجُّ الأَرضُ مِن دَمِ يُوسُفِ

---

(١) الرصافي البلنسي، **الديوان**، ص٥٢، ٥٣.
(٢) المصدر نفسه، ص١٠٩.
(٣) المصدر نفسه، ص١٠٩.

كما رثى أبو عبد الله الجزار[١] غلامه عليّاً بمقطوعة شعرية، وصلت أبياتها إلى ستة أبيات، وقد اختلط فيها الغزل بالرثاء[٢]، والحب بالبكاء. يقول أبو عبد الله الجزار [٣]:

وَقَـــــالوا لي أَلا تَرثـــــي عَليّـــــاً ... وَقَـــــدْ وارى مَحاســـــنَهُ التُّـــــرابُ
فَقلـــــتُ لَهُـــــم وَفي نَفْـــــسي عَلَيْـــــهِ ... بَقايـــــا لَـــــم يُغَيِّرهـــــا العتَـــــابُ
نَعَـــــاء إِلى المكَـــــارمِ والمعَـــــالِي ... فَقيـــــداً مـــــا لِغَيبتِـــــهِ إِيـــــابُ

وبعد أن عرف الشاعر مصير المرثى، الذي غاب إلى غير أوبةٍ تساءل عن جمال "علي"، وتثني قوامه، وعذوبة أسنانه، ثم علل ذلك بأن الزمن قد ضنّ عليه بذلك الغلام الجميل، ثم عاد الشاعر راضياً بحكم الأيام، التي ليس لها إلا الصبر، يقول[٤]:

فَمـــا فَعَـــل اعتِـــدالُكَ وَالتَّثَنِّـــي ... وَمَـــا فَعلَـــت ثنايَـــاكَ العـــذابُ
أَظـــنُّ الـــدَّهْر ضَـــنَّ بِـــهِ عَلَينَـــا ... فَـــنَحنُ علـــى الزَّمـــانِ إِذاً غِـــضَابُ
وَمَـــنْ لَـــمْ يَـــرْضَ بِالأَيّـــامِ حُكْمـــاً ... وَلَـــم يَـــصبِرْ يَطُـــلْ مِنْـــهُ انتِحـــابُ

فالواضح من المقطوعة السابقة أن الشاعر لا يبدو حزيناً على الفقيد. أما أبو عبد الله بن سهل إليكي[٥]، فقد رثى محبوباً له قد صُلب في مقطوعتين شعريتين، أولهما جاءت في ثلاثة أبيات، بدا فيها الشاعر وكأنه يرثي عظيماً من العظماء، أو قائداً ثائراً من الثوّار، فبين أن هذا المصلوب رفيع الشأن حتى في موته، ويرسم مشهداً حافلاً بالصور المرئية، عندما يقول "علوت جذعاً للحمام صريعاً"، ثم يقرن بين المصلوب والبرامكة الذين كانوا في عهد الدولة العباسية، ونكبوا على يد هارون الرشيد، ثم يتمنى لو صلبوه بين جوانحه، ليكون قريباً منه، ويلثمه شوقاً وحباً، يقول في ذلك[٦]:

حَكَمـــت عُـــلاكَ بِـــأَن تَمُـــوتَ رَفيعـــا ... وَعَلَـــوتَ جِـــذْعاً للحمـــامِ صَـــريعا
وَقرَنْـــتَ نَفْـــسَكَ للبرامكَـــةِ الأُلى ... لَمَّـــا عَلَـــوا عِنـــدَ المَمَـــاتِ جُـــذوعا

---

(١) أبو عبد الله بن الجزّار: فقيه أستاذ شاعر متقدم في الأدب والشعر. (التجيبي، أبي بحر بن صفوان، (١٩٧٠). **زاد المسافر وغرة محيّا الأدب المسافر**. (أعدّه وعلق عليه عبد القادر محداد)، بيروت: دار الرائد العربي، ص٩٠).
(٢) السعيد، محمد ، **الشعر في عهد المرابطين والموحدين بالأندلس**، ص٣٠١.
(٣) التجيبي، **زاد المسافر**، ص٩٠.
(٤) المصدر نفسه، ص٩٠.
(٥) أبو عبد الله بن سهل اليكي: يحيى بن سهل اليكي أبو بكر، أديب شاعر، خبيث الهجاء، وينسب إلى يكة بالياء: مدينة لا زالت إلى الآن بشمال مرسية، وتسمى اليوم مرسية. (التجيبي، **زاد المسافر**، ص١١٩).
(٦) التجيبي، **زاد المسافر**، ص١٢٠-١٢١.

يـــا لَيـــتَهم صَـــلَبوكَ بَـــيْنَ جَـــوانِحي فَأَضُـــمُّ إشـــفاقاً عَلَيـــكَ ضُـــلوعا

أما المقطوعة الثانية فجاءت في ثلاثة أبيات، يرثي فيها محبوبه الذي صُلب، فبيّن فيها الشاعر ما يسؤوه وهو رؤية محبوبه مصلوباً على جذع من الجذوع، ثم رسم صورة لذلك المصلوب، وهو أشعث، وقد بسط ذراعيه عنوةً متعرياً من ثيابه في حر الهجير، وريح الصبا، والجنوب تلفحاته، يقول[١]:

ســـاءني أَنْ يَـــرى العَـــدُوُّ الحَبيبـــا فَـــوقَ جِـــذْعٍ مِـــنَ الجُـــذوعِ صَـــليبا
أَشْـــعَثٌ بَاسِـــطٌ ذِراعيـــهِ كَرْهـــاً مِثْـــلَ مَـــن شَـــقَّ لِلـــصدور جُيوبـــا
عاريـــاً مِـــن ثيابِـــهِ يَتلقّـــى شِـــدَّةَ القَـــرِّ وَالـــصَّبا والجنوبـــا

ومما سبق يتبين لنا أن ما قاله الشاعر قد لا يكون في رثاء غلام من الغلمان، بل ربما يكون في عظيم أو خارج على الدولة، ولا توحي المقطوعة بأي علاقة عشق، وإنما هي روح الحب للعظماء من مناضلي الشعوب، وفي هذا المقام لا يمكن أن ننسى مواقف الشاعر نفسه من المرابطين وكراهيته الشديدة لهم[٢]، وهجاءهم أياهم في أكثر من مناسبة، ومن ذلك قوله[٣]:

في كُـــلِّ مَـــنْ رَبَـــطَ اللثـــامَ دَنـــاءةٌ لَـــو أَنَّـــهُ يَعلُـــو علـــى كيـــوَان
المتَمُـــونَ لِحمَيَـــرٍ لكـــنَّهُم وَضَـــعوا القُـــرونَ مَواضِـــعَ التِيجـــان

ومن الشعراء الذين جادت قريحتهم بصور طريفة، تنبئ عن حضور بديهة، أبو القاسم ابن الأبرش في رثاء غريق كان قد صحب الشاعر من حلب إلى دمشق، وذلك قوله[٤]:

الحَمْـــدُ للَّـــهِ عَلَـــى كُـــلِّ حـــال قَـــد أَطْفَـــأَ المَـــاءُ ســـراجَ الجَمَـــال
أَطفَـــأَهُ مَـــن كَـــانَ مُحيـــاً لَـــهُ قَـــد يُطفِـــئُ الزَّيـــتُ ضـــياءَ الـــذِّبال

وقد أحسن الشاعر التشبيه في مرثيته ، وذلك عندما شبه الغريق بالسراج ، وفي هذا التوهج دلالة على جمال المرثي ، وأجاد الشاعر وهو يصور الماء يطفأ ذلك السراج، وهنا نلحظ قدرة الشاعر على المزاوجة بين الحقيقة والمجاز .

---

(١) التجيبي، **زاد المسافر**، ص١٢١.
(٢) السعيد، محمد ، **الشعر في عهد المرابطين والموحدين بالأندلس**، ص٣٠٣.
(٣) التجيبي، **زاد المسافر**، ص١٢٠.
(٤) ابن سعيد، **اختصار القدح المحلى**، ص٨-٩.

وكذلك نجد لابن سعيد مرثيةً في شاب من أبناء العجم، جميل الصورة، صحب الشاعر في الطريق من حلب إلى بغداد، وكان ظريفاً أديباً، فمات في بغداد، فنظم فيه مقطوعةً تتألف من تسعة أبيات، يظهر فيها الشاعر لهفه وأسفه على ذلك الغصن النضر، الذي يشبه الثمر إذا استوى، ثم يزيد في وصفه، ويشبه بالغصن إذا ارتوى. ونلحظ أن الشاعر يتغزل في جمال ذلك الغلام، وهو يصف محاسنه، وفي ذلك يقول(١):

لَهْفِـــي عَلَـــى غُـــصْنٍ ذَوى	فَفقدتُـــهُ لـــمَّا اســـتَوى
لا تَعْـــذلُوني إن نَطقْـــتُ	الـــدَّهْرَ فيـــهِ مـــا ارْتـــوَى

ثم يعود الشاعر ليبين أنه هام بحب الغلام حياً وميتاً، فهما سواء عنده، وبعدها نرى الشاعر يبالغ في شدة جمال الغلام وكأنه الجنة التي حويت كل المحاسن، ثم يحسن التخلص ويزيد في المبالغة عندما يقرر أن المرثى حوري من الجنة، و قد عاد إليها ، يقول(٢):

إنَّ الهَـــوى حَيّـــاً وَمَيْتـــاً	لا يَـــزالُ بِـــهِ سَـــوى
كَـــمْ قَـــد نَوَيْـــتُ بِـــهِ النَّعـــيمَ	فَقَـــدَّرَ اللهُ الثَّـــوى
دَارَ الـــسَّلامِ حَوَيْـــتِ مِـــنْ	كُـــلِّ المَحاسِـــنِ مـــا حَـــوى
حَـــوريّ حُـــسْنٍ قَـــدْ ثَـــوَى	فِـــي جَنَّـــةِ وَبِهـــا ثَـــوى

ولابن سهل مرثية في غلام اسمه "عثمان" مات غرقاً، فبكاه بقصيدة جاءت في عشرة أبيات، ذكر فيها قائلُها كثرة بكائه ودموعه وحسرته ووجده على خله، الذي كان الروح والراحة والريحان وناظر الإنسان، يقول(٣):

جَـــرى مِـــن جُفـــوني مـــا أَذابَ أَجْفـــاني	وَشَـــبَّتْ بِأَحْـــشائي لَـــواعجُ نـــيراني
عَلـــى فَقْـــدِ خِـــلٍّ كـــانَ رُوحـــي وراحَـــتي	وَرَوحـــي وَريحَـــاني وَنـــاظِرَ إنـــساني

(١) ابن سعيد، **احتضار القدح المحلى**، ص٨-٩.
(٢) المصدر نفسه، ص٩.
(٣) ابن سهل، **الديوان**، ص٣٨٦.

ويصرح الشاعر بحبه للمرثى، متسائلاً عن الصبر والسلوان كيف يتأتى له، ثم يعود لدموعه التي صارت كالطوفان، مذ فارق ذلك الحبيب، يقول[١]:

حَبِيْبٌ مَضى صَبْري عَليهِ وكيفَ لي ... بِصَبْرٍ على ذاكَ الحبِيْبِ وسُلوانِ
كَأَنَّ دُموعَ العَيْنِ مِنِّي لِفَقْدِهِ ... عَلى أَمَدِ الأَيَّامِ تَجْري بِطُوفانِ

ثم يعود الشاعر للذين دفنوا عثمان، قائلاً لهم إنكم مذ دفنتم عثمان، فقد دفنتم معه السرور، وأحييتم الأحزان، ومذ غيبتم قده الجميل، فقد غيبتم البدر المنير والغصن النضير، وفي هذا أشارة لجمال عثمان، ويظهر أنه معتدل القوام، جميل الوجه كالبدر، غصنه كعود البان، يقول[٢]:

فَما دَفنوا عُثمانَ حَتَّى لِدَفنِهِم ... دَفَنْتُ مَسرَّاتِي، وَأَحيَيْتُ أَحزَاني
فَإِنْ غَيَّبُوا في التُّربِ عادِلَ قَدِّهِ ... فَقَد غَيَّبُوا بَدْرَاً وغُصْناً من البانِ

ويصرح الشاعر بموت المرثى غرقاً، ويلتفت إلى معنى طريف لطيف، وهو أنه مذ غرق عثمان في بحر عظيم موجه، والشاعر يموت في بحر من الدمع والأحزان، يقول[٣]:

لَقَد ماتَ في بَحْرٍ تعَاظَمَ مَوجُهُ ... فَمُتُّ بِهِ في بَحْرِ دَمعي وَأَشجاني

ومن المعاني اللطيفة التي جاء بها الشاعر، وكثيراً ما ترد في رثاء الغرقى، تشبيه المرثى بالدرة الفريدة، والمعلوم أن الدر مكانه قاع البحر، فيلتفت الشاعر لتصوير البحر يستعيد درته لنفاستها، وندرتها، يقول في ذلك[٤]:

هُوَ الدُرُّ غارَ الدَّهرُ عَنْهُ فَرَدَّهُ ... لِمَعْدَنِهِ إِذ مالَهُ عِنْدَهُ ثانِ

ويصبِّرُ الشاعرُ نفسَه مستخدماً كلمة "عليه اصطباري"، التي تفيد تكلف الشاعر للصبر، ثم يستخدم كم الخبرية في الشطر الثاني؛ ليبين كثرة المصائب والأحزان التي حلت عليه بعد أن مات عثمان، مشبهاً أحزانه ومصائبه بالفتن والاضطرابات التي وقعت لعلي بن أبي طالب – كرّم الله وجهه – بعد أن استشهد عثمان بن عفان – رضي الله عنه – وهذا البيت يستحق

(١) ابن سهل، **الديوان**، ص٣٨٦.
(٢) المصدر نفسه، ص٣٨٦.
(٣) المصدر نفسه، ص٣٨٧.
(٤) المصدر نفسه، ص٣٨٧.

الوقوف ، فلِمَ يبين الشاعر أن حزنه لغلام من الغلمان، كحزن علي على عثمان؟، لا سيما إن علمنا أن ابن سهل كان يهودياً فأسلم!. يقول(١):

عَلَيـــهِ اصـــطِباري واقِـــعٌ بَعْـــدَ فَقْـــدِهِ وَكَـــمْ لِعَلـــيٍّ وَقْعَـــةٍ بَعْـــدَ عُثمـــانِ

وينهي الشاعر قصيدته طالباً من المولى – عز وجل – أن يرسل سحائب رحمته رائحةً وغاديةً كل يوم بماء ، كثير الجريان على قبر عثمان، يقول(٢):

عَلَيـــهِ مِـــنَ المَـــولى سَـــحائبُ رَحْمَـــةٍ تَـــرُوحُ وَتَغْـــدو كُـــلَّ يَـــومٍ بِهَتَّـــانِ

ومما سبق، نستنتج أن رثاء الغلمان كان موجوداً في الشعر الأندلسي، فكانت المراثي فيه على شكل مقطّعات شعرية، بيّن فيها قائلوها حزنهم على أولئك الغلمان، فخرجت رثائياتهم تمزج الغزل بالرثاء في بعضها ، وتظهر الوجد والرقة في بعضه الآخر.

ويشابه رثاء الغلمان رثاء الجواري، ففي كليهما – كما بيّنا – بكى الشعراء زوال الجمال الحسي، كالقوام الرشيق ، والاعتدال، والتثني، والنضارة، وغيرها مما مرّ معنا.

ويمكن لنا أن نضيف أنه من المعقول أن معظم ما ورد في رثاء الغلمان قد لا يكون رثاءً لغلمانٍ على الحقيقة، فمن الجائز أن يكون رثاء الغلمان في بعض مقطوعاته نوعاً من الدعابة الشعرية، التي غالباً ما يلجأ لها الشعراء لإظهار القدرات الشعرية، والتفوق في فنون القول، وضروب النظم.

---

(١) ابن سهل، **الديوان**، ص٣٨٧.
(٢) المصدر نفسه، ص٣٨٧.

الفــــصــل الخــــامــس

المبحث الأول : رثـــــاء الدول والممـــالك.

المبحث الثاني: رثاء المدن الأندلسية .

المبحث الأول: رثـــــاء الدول والممـــالك

يجد دارس الأدب العربي رثاء المدن من أهم الموضوعات الشعرية الماثلة فـــي ثنايـــاه متضمنا آثار التقلبات السياسية التي اجتاحت عصوره المتباينة . إلا أننا لا نجد أثرا واضـــحاً لهذا النوع من الرثاء عند الجاهليين بالرغم من أهميته ،وذلك أنهم كانوا يعتمدون في حيواتهم على التنقل من مكان لآخر بحثا عن الكلأ والماء ، فالاستقرار كما هو معروف لـــيس مـــن سمات المجتمع العربي الجاهلي ، "فلم يكن للشاعر الجاهلي مدن يبكي عليها ، فهو ينتقل في الصحراء الواسعة من مكان إلى مكان طلباً للمرعى، وسعياً وراء العيش ، وإذا ألـــمّ بـــبعض مدن المناذرة والغساسنة فهو إلمام المسافر المتكسب الذي لا يشغله ما يراه في الحضر عمّـــا خلّفه في البادية من نوقٍ وخيامٍ وأصحاب"(١).

وقد برز رثاء المدن بشكل جلي في الشعر العربي المشرقي عندما حل الخراب بحاضرة الدولة العباسية بغداد ، وبرز الخريمي(٢)راثياً لها ، مصوراً نكبتها وما حل بها إثر الفتنة التي حدثت بين الأمين والمأمون ، ابنيْ هارون الرشيد ، ومما قاله أبو يعقـــوب الخريمـــي فـــي ذلك(٣):

يـــا بؤسَ بَغـــدادَ دار مَملَكَةٍ ... دارَت عَـــلى أَهْلِها دَوائــــــرُهـــا

أَمْـــهَلَـــهَـــا اللهُ ثُمَّ عَـــاقَـــبَها ... لَـــمَّـــا أَحَـــاطَـــتْ بِهَـــا كَـــبَـــائـــرُهَا

رَقَّ بِهَـــا الدِّيـــنُ وَاسْتُخِـــفَّ بذِي الفَـــضْل وَعـــزَّ الرِّجـــالَ فَاجِـــرُها

وبعدها تعرضت مدينة البصرة إلى "ثورة الـــزّنج(٤)"، فأحرقوهـــا ،وقتلـــوا الأطفـــال ، والشيوخ ، والنساء ، ورثاها ابن الرومي مصورا ما حلَّ بها، وبأهلها من الدمار(٥)

ذادَ عـــن مُقْـــلِتي لذيذَ المـــنامِ ... شُغُـــلها عنهُ بالدمـــوع السِّـــجامِ

أيَّ هَـــوْلٍ رَأَوْا بهـــمْ أيّ هَـــوْلٍ ... حُـــقَّ مـــنه تشـــيبُ رأسُ الغـــلامِ

---

(١) البيومي، محمد رجب ، رثاء المدن بين الأندلس والمشارقة ، مجلة الأديب ، الجزء الخامس ، مايو١٩٦٥.
(٢) الخريمي: إسحاق بن حسان، ويكنى أبا يعقوب، من العجم . (انظر ترجمته عند ابن قتيبة الشعر والشعراء ص٥٧٩-٥٨٢).
(٣) ابن قتيبة، أبو محمد ،عبد الله بن مسلم الدينوري،ت٢٧٦هـــ، **الشعر والشعراء** ، تحقيق:مفيد قميحة،بيروت – دار الكتب العلمية ، ص٥٨٠.
(٤) ثورة الزّنج : كانت هذه الثورة في عهد الخليفة العباسي " المهدي" سنة خمس وخمسين ومائتين ، وقائدها رجل اسمه : علي بن محمد بن عبد الرحيم . (تاريخ الدولة العباسية ، وما رافقها من الممالك القسم الثاني، خلاصة تاريخ ابن كثير للقاضي :محمد بن أحمد بن كنعان ، مؤسسة الرسالة- بيروت ، ص٤١٢).
(٥)ابن الرومي ، **الديوان(١٩٩١)**، شرح وتعليق عبد الأمير علي مهنا ، مج٦ ، منشورات دار مملكة الهلال ــ بيروت ط١ ،ص١٣١ــ ١٣٢.

إذ رَمَــوْهُمْ بنارهِــم مِــن يَمِــينٍ وَشِــمَالٍ وَخَــلــفِهِمْ وأمــام

كَــمْ أخ قــد رَأى أخَــاهُ صَــريعاً تَــربَ الخَــدِّ بينَ صَرْعى كرام

ولكن هذا اللون من الرثاء لم يزدهر في المشرق ازدهاره في الأندلس، ويعزى ذلك إلى أن طبيعة التقلبات السياسية في الأندلس كانت أشد حدة وأسرع إيقاعا، وأنها اتخــذت شــكل المواجهة بين النصارى والمسلمين حين أراد الصليبيون طرد المسلمين وإخراجـــهم مــن الأندلس. يضاف إلى ذلك أن الشعر الأندلسي تميز بنضوج التجربة الفنيــة للمـــعاناة التــي استمرت عند الأندلسيين في حين نجد أن شعراء المشرق يعرضون لهذا الغرض ــ أي رثاء المدن ــ لماماً فالتفوق حاصل كماً وكيفا ، فالأندلسيون استطاعوا أن يجعلوه اتجاهــا قائمــا بنفسه، وبابا من أبواب الشعر أبدعوا فيه القول ، وأجادوا فيه الصياغة [١].

وللبيئة الأندلسية ــ أيضاً ــ كبير دورٍ في ارتباط الأندلسي ، في بيئته الخلابة التي تمتاز بجمال الطبيعة ، والظلال الوارفة ، والينابيع المتدفقة والخضرة الدائمة، فلم يكــن أمام الشاعر ، وهو يراها تنأى عنه إلا أن تجود قريحته الشعرية بما يعكس صدق انتمائه إلى بلده ، وحبه لها وما أصدق الرصافي البلنسي ، وهو يعلل حبه لبلاده بقوله[٢]:

بِلادي الَّتي ريشَــت قُوَيــدمــتي بِــها فُــرَيخاً وَآوَتــني قَــرارَتُها وَكْــرا

مَــبادئُ لــينِ العَيــشِ في رَيِّــقِ الصِّــبا أَبى اللَهُ أَن أَنســى لَها أَبَداً ذِكــرا

وقد تعرضت الأندلس أثناء فترتي المرابطين والموحدين إلى سقوط ممالك ومدن ،وما كان أمام الشاعر الأندلسي ، وهو يرى مدنه تتهاوى سقوطاً إلا أن تجود قريحتــه بمــا يتطلبــه الواجب من الشاعر الذي يكون لزاما عليه أن يرتبط شعره بقضايا أمته ، ودولته فراح شعراء الأندلس ينظمون أجمل الرثائيات التي تصور ضياع الوطن ، وغروب شمس طالما أشــرقت عليهم .

---

(١) سطاني ، الجيلاني : (**اتجاهات الشعر في عصر المرابطين بالمغرب والاندلس ١٩٨٧**)جامعة دمشق، كلية الآداب ، رسالة ماجستير غير منشورة ، إشراف محمد رضوان الداية ــ دمشق ، ص١٢١

(٢)الرصافي البلنسي ، **الديوان** ، ص٦٩.

أولاً: رثاء دولة بني عباد

ومن أهم الممالك التي سقطت ، ونالت تعاطفا كبيرا من الشعراء دولة بني عباد ، وقد زالت على يد يوسف بن تاشفين سنة ثلاث وثمانين وأربعمائة ، فرثاها غير واحد من الشعراء ، ومن أهمهم المعتمد نفسه الذي اندثرت سلطته وزال عرشه ، ولكنه ظل في أذهان محبيه، والشعراء الذين درجوا في بلاطه ملكاً ، فكأن ملكه قد تحول من العرش والسلطة إلى ملك وجداني؛ فقد ظل في أذهان هؤلاء الشعراء ملكا حتى بعد عزله، ومن الأسباب التي أفضت إلى ذلك "أن المعتمد من أسرة معظمها من الشعراء ، وكان أشعرهم ، وكان بلاطه مجمعا للشعراء والعلماء "[١]. ولا شك "أن القصائد التي تفجرت بها قريحة المعتمد نفسه ، وتجاوب معه فيها بعض من زاره من شعرائه أثناء محنته ، أو بعد موته كانت من أهم العوامل التي خلّدت هذا الأمير الشاعر[٢]".

ولنا أن نقف بداية مع ما أورده ابن الأبار من خبر ذلك الهاتف الذي كان يأتي ليلاً ، وينشد بعض بني عباد شعرا ينعى عليهم عزهم ومجدهم ،وينذرهم بقرب نهايتهم وانتهاء دولتهم ، فقد سُمِعَ الهاتف ينشد على منبر جامع قرطبة ناعياً أو منذراً بقرب نهاية الدولة العبادية[٣]:

رُبَّ رَكْبٍ قَدْ أَنَاخُوا عِيسَهُم فِي ذُرَى مَجْدِهِمُ حِينَ بَسَقْ

سَكَتْ الدَّهْرُ زَمَاناً عَنْهُمُ ثُمَّ أَبْكَاهُم دَمَاً حِينَ نَطَقْ

فلما سمع المعتمد ذلك أيقن أنه نعي لملكه، وإعلام بما انتثر من سلكه، فقال رداً على ذلك الناعي ، مستسلما لتلك القوة التي لا مجال لردها أو دفعها . وهو استسلام أقرب ما يكون إلى الرضوخ ــ وقد خارت العزائم ــ إلى تيار الأحداث الجارفة[٤]:

مَنْ عزا المجدَ إلينا قد صَدق لم يُلَمْ مَنْ قال – مَهْمَا قال – حقّ

---

(١) الطريفي ، يوسف عطا(**شعراء العرب المغرب والأندلس ٢٠٠٧**) عمان ـــ الأهلية للنشر والتوزيع ط١ ص٣١٣.

(٢) شيخه، جمعه (**الفتن والحروب وأثرها في الشعر الأندلسي ١٩٩٤**) ط١ ، تونس ــ المطبعة المغاربية للطباعة والنشر ج١ ، ص١٤٤.

(٣)ابن الأبار :(**الحلة السيراء١٩٨٥**) تحقيق حسين مؤنس ، دار المعارف ط٢،ج٢ ،ص٦٤ .

(٤) شيخة ، جمعة :**الفتن والحروب وأثرها في الشعر الأندلسي** ج١، ١٤٥.

أَيُّــها النَّاعِي إلَيْــنا مَجْــدَنــا هَــلْ يَضُرُّ المَــجْــدَ أنْ خَــطْبٌ طَــرَقْ؟

وَقَــدِيماً كَــــلِــفَ المــلكُ بِنَــا وَرَأَى مِــنَّا شُــمُوسَــاً فَــعَــشِــق

قَــدْ مَضَــى مِــنَّا مُــلُوكٌ شُــهِرُوا شُــهْرَةَ الشَّــمْسِ تَجَلّتْ فِي الأُفُقْ[١]

ونلحظ في الأبيات السابقة أن المعتمد يفتخر بنفسه ، وبآبائه ، فكأنه يريد أن يظهر عدم اكتراثه بالناعي فهو من عائلة عريقة ، كلف بها المُلك ، مشبهاً ملوك بني عباد بالشموس التي هي سر الحياة ، وباعثة البقاء ولذا فهي تُعشَق ، ثم يبرهن على صدق مقولته ، أن ملوك بني عباد الذين تولوا كانوا مشهورين قد امتازوا عن غيرهم ، وتفردوا عن سواهم تفرد الشمس عن غيرها من النجوم والكواكب .

ولكن هذا الفخر لم يدم للمعتمد فسرعان ما حاصرت جيوش يوسف بن تاشفين إشبيلية وشددت الخناق عليه وكان مصيره السجن . وعندئذ ، لم يبق أمام المعتمد إلا الرضوخ والاستسلام ، ولكن نفسه أبت ذلك رغم السجن والأسر، يقول في ذلك[٢]:

قــالــوا الخُــضوعُ ســياسَــةٌ فَلــيَبْدُ مِنكَ لَــهُم خُــضُــوع

وَأَلَــذُّ مِــنْ طَــعْمِ الخُــضُــو عِ عَــلى فَــمِي السَــمُّ النَقيع

ويصف المعتمد اليوم الذي أُسِرَ فيه ، فقد برز يوم النزال أعزل من الترس ، ولم يرتدِ يومها إلا القميص، متمنيا أن تلقى نفسُه منيَّتها ، فهو لا يحب العيش ليرى نفسه محكوما مجرداً من كل شيء، لذلك يرفض المعتمد الرضوخ والاستسلام، فلم يكن له إلّا مواجهة الموت الشريف الذي يكون بين طعن القنا وضرب السيوف؛ وهو ما يتمناه فبرز مقاتلاً شجاعاً في ساحة القتال مدافعا عن ملكه ، وهذه النهاية الطبيعية التي يتمناها الأبطال والعظماء عندما يفقدون العز والمجد والملك، ولكن الأجل لا يكون إلا بمشيئة الله ، لا حسب ما يتمنى المرء ، وكأن القدر أراد للمعتمد أن يبقى حياً ليرى ملكه مسلوباً ونفسه مكبلا ولإشبيلية مفارقا يقول في ذلك[٣]:

---

(١)المعتمد، **الديوان**، ص١٤٧.

(٢)المصدر نفسه ، ص١٥٠.

(٣)المعتمد، **الديوان** ، ص١٥٠وص١٥١.

إنْ يَسْلَبِ القَومُ العِدَى مُلكِي وَتُسْلِمنِي الْجُمُوع
قَدْ رُمْتُ يَومَ نِزَالِهِم أَلا تُحَصّنَني الدُرُوعُ
وَبَرَزتُ لَيسَ سِوى القَميص عَن الحَشى شَيْءٌ دَفُوعُ
وَبَذَلتُ نَفْسِي كَي تَسِيل إذا يَسِيل بِهَا النَّجِيعُ
أَجَلِي تَأَخَّرَ لَم يَكُن بِهَوايَ ذُلِّيَ وَالخُشُوع
ما سِرتُ قَطٌّ إلى القِتَال وَكَان مِن أَمَلِي الرُّجُوعُ

وبعد أن نُقِلَ المعتمد إلى سجنه في أغمات ، وجد نفسه أمام الحقيقة المرة ليختتم حياته الغارقة في غمرة البؤس والحزن وظلام السجن[١]، وقد "أعري من طارفه وتلاده وأحل في العدوة محل الدفين، تندبه منابره وأعواده، ولا يدنو منه زواره ولا عواده، بقي آسفا تتصعد زفراته، وتطّرد اطّراد المذانب عبراته، لا يخلو بمؤانس، ولا يرى إلا عريناً بدل تلك المكانس، ولمّا لم يجد سلوّاً، ولم يؤمّل دنوّاً، ولم يَرَ وجه مسرة مجلواً، تذكر منازله فشاقته، وتصور بهجتها فراقته، وتخيل استيحاش أوطانه، وإجهاش قصره إلى قطانه، وإظلام جوه من أقماره ، وخلوّه من حراسه وسماره[٢]فقال في ذلك[٣]:

بَكَى المُبَارَكُ في إثْرِ ابْنِ عَبَّادِ بَكَى عَلَى أَثْرِ غِزْلانٍ وَآسَادِ
بَكَتْ ثُرَيَّاهُ لا غُمَّتْ كَوَاكِبُهَا بِمِثْلِ نَوْءِ الثُّرَيّا الرَّائح الغَادِي
بَكَى الوَحِيدُ، بَكَى الزَّاهِي وَقُبَّتُهُ وَالنَّهْرُ والتَّاجُ، كُلٌّ ذُلُّهُ بَادِي
مَاءُ السَّماءِ عَلَى أَبْنائِهِ دُرَرٌ يا لُجَّةَ البَحْرِ دُومِي ذَاتَ إزْبَادِ

---

(١)أشباخ، يوسف **(تاريخ الأندلس في عهد المرابطين والموحدين)** ، ص٩٧.

(٢)الفتح ،**(قلائد العقيان، ومحاسن الزمان ١٩٨٩)** أبو نصر بن محمد بن عبيد الله الأشبيلي ت ٥٢٩هـ ، تحقيق : حسين توسف خريوش ج١ـ٢ ، مكتبة المنار ـ الزرقاء ، ص٩٣.

(٣)المعتمد، **الديوان** ص١٦١.

فألم المعتمد ألمٌ نفسيٌّ روحي مبعثه التباين بين حياته الماضية ، وحياته في المنفى وأساسه الاختلاف الواضح بين الحضارة التي كان يعيش في ظلّها بين عز الملك ورفاهيته ، وضيق السجن ومذلة القيد وإهانته ، لذلك يعيش الشاعر ما بقي له من حياة متحسرا على ملكه ، متذكرا حصن الزاهر الذي كان "من أجمل المواضع لديه وأبهاها، وأحبها إليه وأشهاها، لإطلاله على النهر، وإشرافه على القصر، وجماله في العيون، واشتماله بالشجر والزيتون[١]" . فلا نعجب إن رأينا المعتمد يتفطر ألما، ويذوب أسى ، وتتفجر قريحته شعرا خلّد مآثره، وأبقى ذكره وهو يصف نفسه غريبا أسيرا ،لا بواكي له إلا السيوف القواطع ، مصورا تلك السيوف نادبة له ، تنهل دموعها كلما تذكرت ، أفول نجمه ، وغياب شمسه، ثم يتمنى عودة أيامه الخوالي لينام بين الروضة والغدير، في ظل الأشجار الوارفة والينابيع المتدفقة، يقول متمنيا ذلك[٢]:

غَريبٌ بِأَرْضِ المَغْرِبَينِ أَسِيرُ ... سَيَبْكِي عَلَيهِ مِنْبَرٌ وَسَرِيرُ

وَتَنْدبُهُ البِيضُ الصَّوارِمُ وَالقَنَا ... وَيَنْهَلُّ دَمْعٌ بَيْنَهُن غَزِيرُ

فَيا لَيتَ شِعري هَلْ أَبيتَنّ لَيلَةً ... أَمامي وَخَلْفِي رَوضَةٌ وَغَديرُ

ومن الشعراء الذين أجادوا في رثاء الدولة العبادية، وأحسنوا القول في وصف الألم الذي نتج عن غياب المعتمد وأسرته الشاعر "ابن اللبانة"، وقد تبين من خلاله النفسية الأندلسية التي تخلصت من كل أدرانها ، مظهراً هول المصاب الإنساني، متجاوبا تجاوبا كليا مع المشهد الذي خلّفه رحيل المعتمد وأسرته ، رافعا صوته ليصف تلك اللحظات الحرجة التي يمر بها السيد الحامي رمز المروءة بكل معانيها [٣].

فابن اللبانة من أكثر الشعراء وفاءً للمعتمد بعد نكبته وسجنه، وقد بكى على أفول الدولة العبادية بعد أن شبهها بالجبال التي هُدّت قواعدها، وشبههم أيضاً بالكعبة التي أفلت من طوّافها، ويعد هذا النوع من الشعر "من أصدق الشعر المعبر عن خوالج النفس الإنسانية ، وقد عمها الأسى، فأصبحت ترى في كل شيء ألما ، فالغيث مثلا ما هو إلا مشاركة من السماء في نكبة

(١)الفتح ، قلائد العقيان ، ج ١ـ٢ ص٩٤.
(٢)المعتمد، **الديوان** ص١٧١.

(٣) شيخة ، جمعة : **الفتن والحروب وأثرها في الشعر الأندلسي** ، ج١ ، ص١٤٧و ١٤٨.

بني عباد فهؤلاء كجبال الأرض ثباتا وشموخا ، وهم كأوتاد خيمة الوجود عزما ورسوخا؛ فلما هدّت تلك واقتلعت هذه مادت الأرض بمن عليها(١)"

يقول ابن اللبانة باكيا الدولة العبادية (٢):

تَبْكِي السَّمَاءُ بِدَمعٍ رائِحٍ عَادِي ... عَلَى البَهالِيلِ مِن أَبْنَاءِ عَبَّادِ
عَلَى الجِبَالِ الَّتِي هُدَّت قَواعِدُهَا ... وَكَانَت الأَرْضُ مِنْهُمْ ذَات أَوتَادِ
وَكَعْبَةٍ كَانَتْ الآمَالُ تَخْدُمُهَا ... فَاليَومَ لا عَاكِفٌ فِيهَا وَلا بَادِ

ثم يصوّر ابن اللبانة كيف نقل بنو عبّاد، وكيف كان وداعهم، راسماً صورةً حزينةً لذلك الملك الذي ودّعه قومه ، بالدموع والنواح، فكأن الناس يودّعون قطعاً من أكبادهم، يقول(٣):

حَانَ الوَداعُ فَضَجَّتْ كُلُّ صَارِخَةٍ ... وَصَارِخٍ مِن مُفْدَّاةٍ وَمِن فَادِي
سَارَتْ سَفَائنهُم وَالنَّوحُ يَصْحَبُها ... كَأَنَّهَا إِبِلٌ يُحَدو بِهَا حَادِي
كَم سالَ فِي المَاءِ مِن دَمْعٍ وَكَم حَمَلَتْ ... تِلْكَ القَطَائِعُ مِن قِطعانِ أَكْبَادِ

فابن اللبانة كما يقول شوقي ضيف "كأنما غسل بدموعه عليه ــ أي المعتمد ــ سيئات حكمه من آدائه الجزية للملك النصراني في الشمال ومحاربته لجيرانه من الأمراء المسلمين من أبناء دينه وإنفاقه الأموال بسخاء على مجونه وملذاته، كأنه كان يملك خزائن قارون ثم موقفه بأخرة من ابن تاشفين بطل الزلاقة منذ سنوات، إذ استنجد ضده ألفونسو السادس عدو الإسلام والمسلمين . كل هذه السيئات استطاع ابن اللبانة أن يمحو دنسها عن المعتمد بعويله وتفجعه الملتاع على دولته"(٤).

(١) شيخة ، جمعة : **الفتن والحروب وأثرها في الشعر الأندلسي** ، ج١، ص١٤٨.

(٢) ابن اللبانة، أبو بكر محمد بن عيسى (ت: ٥٠٧)، **الديوان**. تحقيق: منجد مصطفى بهجت، ماليزيا: الجامعة الإسلامية، ص١٣٨.

(٣) ابن اللبانة، **الديوان**، ص١٤١.

(٤) ضيف، شوقي، **تاريخ الأدب العربي عصر الدول والإمارات الأندلس** ، الطبعة الثالثة ، دار المعارف ــ القاهرة

ثانيا : رثاء دولة بني الأفطس :

ومن المراثي المشهورة التي عُنِيَ بها، واتصلت أسباب الشارحين بسببها، المرثية العبدونية التي نظمها الوزير الكاتب أبو محمد عبد المجيد بن عبدون[١]يرثي بها بني مسلمة المعروفين ببني الأفطس، وهي من أمهات القصائد ووسائط القلائد، فإنه ذكر فيها عدةً من مشاهير الملوك والخلفاء والأكابر ممن أبادهم الدهر بحوادثه ونكباته، ووثب عليهم الزمن فما وجدوا جنة تقيهم من وثباته، ودبت عليهم الأيام بصروفها، وسقتهم المنية بكأس حتوفها[٢].
يقول ابن عبدون في رثاء بني الافطس[٣]:

الدّهْرُ يُفْجِعُ بَعْدَ العَيْنِ بِالأَثَرِ فَمَا البُكَاءُ عَلَى الأشْبَاحِ وَالصُّوَرِ

أَنْهَاكَ أَنْهَاكَ لا أفالك واحدة عَن نَومَةٍ بَيْنَ نَابِ اللَّيثِ والظُّفُرِ

فالدَّهْرُ حَرْبٌ وَإنْ أَبْدَى مُسَالمَةً فَالبِيضُ وَالسُّمْرُ مِثْلُ البِيض والسُّمُرِ

فَلا يَغُرّنْكَ مِنْ دُنْياكَ نَوْمَتُهَا فَمَا صَنَاعَةُ عَيْنِيهَا سِوَى السَّهَرِ

فالشاعر في مرثيته " البسَّامة" يسلم كل ما يجري على هذه المعمورة للقدر الذي يلعب بالإنسان ويسخر منه إذ يسمو به حينا ويحطه حينا آخر[٤]، لذلك يحذر من الركون إلى هذه الدار وإلى مهادنة الأيام؛ فأنها عدو في ثياب صديق ، و الراكن إليها كالنائم بين أنياب الليث ومخالبه ، ثم يعلل ذلك التحذير والنهي البليغ؛ بأن الدهر يحارب الإنسان في صورة مسالم وأن البيض من لياليه مثل السيوف والسمر مثل الرماح والكل حرب له ، وخصم ألد[٥].

---

(١)ابن عبدون:من أكبر شخصيات الدويلة الأفطسية ، التي طويت صفحتها في ٤٨٧هـ / ١٠٩٤ بوفاة المتوكل .قيل عنه " أديب الأندلس ، وإمامها وسيدها في علم الأدب ، كان ذا فهم دقيق ، ومزاج مرهف، ومواهب ممتازة . (تاريخ الفكر الأندلسي، بالنثيا آنجل ، ترجمة حسين مؤنس ، مكتبة الثقافة الدينية ، ص١١٨).

(٢) النويري ، **(نهاية الأرب٢٠٠٤)**، مجلد ٣، ج٥ ، ص١٨٨.

(٣)البستي ، عبد الملك بن عبد الله بن بدرون الحضرمي : **شرح قصيدة أبن عبدون (البسامة)** ط١ ١٣٤٠ هـ ـ مطبعة السعادة ، ص ٩ ـــ ١١.

(٤)عيد ، يوسف: **الشعر الأندلسي وصدى النكبات** ، دار الفكر العربي ـــ بيروت ط١/ ٢٠٠٢ ، ص١٠٠.

(٥)البستي ، عبد الملك بن عبد الله بن بدرون الحضرمي : **شرح قصيدة ابن عبدون (البسامة)** ، ص١٠.

ثم يطلب الشاعر من سامعه ألا يغتر بالدنيا، فتلك هدنة على دخـــن ، والدنيا لا تعـــطي إلا لتمنع وما تهب إلا لتسترد.

وتستمر القصيدة وفق هذه النبرة الحزينة الزاهدة، ضاربة أروع الأمثلة من أولئك الذين تنكرت لهم الدنيا وقلبت لهم ظهر المجن . وقد كان الشاعر بارعا في التقاط بعض الصور التي تبين غدر الدنيا بأهلها وخلانها، ومن ذاك قوله[١]:

هَــوَت بِــدارا وَفَلَّــت غَــربَ قــاتِله　　وَكانَ عَــضباً عَــلى الأَمــلاكِ ذا أثــــرِ

وَاستَــرجَــعَت مِــن بَــني ســاسانَ مــا وَهَبَت　　وَلَم تَــدَع لِبَني يونــانَ مِــن أَثر

وَمَــــزَّقَت سَــبَأً[٢] فــي كُــلِّ قــاصِيَــةٍ　　فَــما اِلتَقــى رائِــحٌ مِنهُم بِمُبتَــكِــرِ

وَأَنفَــذَت فــي كُــلَيبٍ[٣]حُكــمَها وَرَمَــت　　مُهَلهلاً[٤] بَينَ سَمعِ الأَرضِ وَالبَصَرِ

وَلَم تَرُدَّ عَــلى الضَــليلِ[٥]صِــحَّتَهُ　　وَلا ثَنَت أَسَــداً عَن رَبِّها حُــجــرِ

فالشاعر جمع ما جمع ، وحشد ما حشد من الأدلة والبراهين على أن دوام الحال مـــن المحال ، وإن لبني الأفطس فيمن سبقهم عبرة وعظة ، وعليهم أن يتعزوا بمن سُلِبَ ملكهم وتبدلت أحوالهم مثل؛ "دارا" آخر ملوك الفرس الذي قتله الاسكندر وأهلك ملكه[٦]، وبنـــي ساسان وهم الفرس الأواخر من دولة الأكاسرة الذين استردت منهم الليالي ما آتتهم من ملك وسلطة ، وانتزعت تاجهم ، وكذلك من درج على هذا المنهاج من ملوك اليونان[٧]وبني سبأ ،

(١)البستي ، عبد الملك بن عبد الله بن بدرون الحضرمي : **شرح قصيدة ابن عبدون (البسامة)** ، ص١٢ ،٣١ ، ١٠٢ ، ١١٩ ، ١٠٨.

(٢)هو سبأ بن يشجب بن يعرب بن قحطان ، وسمي سبأ لأنه أول من أدخل السبى بلاد اليمن واسمه عبد شمس.(المصدر السابق، ص١٠٢)

(٣)كليب : هو كليب بن ربيعة بن الحارث بن زهير بن اجشم الذي يقال فيه : أعز من كليب بن وائل، وبلغ من عزه في قومه أنه كان لا يوقد نار مع ناره ـــ ولا يورد أحد إبله مع إبله.(المصدر السابق، ص١٠٩).

(٤)مهلهل : أخو كليب وسمي مهلهل ؛ لأنه أول من هلهل الشعر ؛ أي رققه وهو خال امرئ القيس ، وهو أول من قصد القصائد، قيل: إنه قتل بموضع لم يطلع عليه أحد .(المصدر السابق، ص١١٢)..

(٥)الضليل: هو امرؤ القيس بن حجر بن الحارث بن عمرو ، وسمي بالضليل : لأنه ترك ملكه وخرج يطلب من قيصر جيشا يأخذ به ثار أبيه.(البستي: شرح قصيدة ابن عبدون، **البسامة**، ص١١٩)

(٦) البستي: شرح قصيدة ابن عبدون (البسامة)، ص١٢.

(٧)المصدر نفسه، ٣٢،٣١.

وكليب ومهلهل ، والضليل ، ليعتذر لبني المظفر، ويبين لهم أن الأيام مراحل ،والخلق على سفر ولا بد لهم من اجتياز هذه المراحل بحلوها ومرها ، يقول في ذلك(١):

بَــي الْمُظَــفَّرِ وَالأَيّــامُ لا نَــزَلَــت　　مَــراحِل وَالــوَرى منها عَــلى سَــفَــرِ

ثم يتساءل الشاعر بلسان المنكسر الحزين من بقي للمجد والشجاعة ، والسيوف ، ودفع الكوارث والسماحة والدين؟! (٢):

مَــن لِلأَســرَّةِ أَو مَــن لِلأَعِــنَّةِ أَو　　مَــن لِلأَسِنَّــةِ يُهديــها إِلــى الثــغــرِ

مَــن للظُّــبى وَعَلوالي الخَطِّ قَــد عُقِدَت　　أَطــرافُ أَلسنِها بالعــيِّ وَالحَــصَرِ

مَــن لِليَــراعَــةِ أَو مــَن لِلبَراعَــةِ أَو　　مَــن لِلسَــماحَةِ أَو لِلنــفــعِ وَالضَرَرِ

أو دَفْــعِ كَــارِثَــةٍ أَو رَدْعِ آزِفَــةٍ　　أَو قَــمْعِ حــادِثَةٍ تُعْــيي عَلَى القَــدَرِ

ويظهر لنا في الأبيات السابقة أن الشاعر استطاع أن يصور بني الأفطس هم من يسرجون الخيول ، ويقودون الفرسان ، ويعملون السيوف في رقاب الأعداء ، وما إلى ذلك من الصفات التي جاءت في الأبيات السابقة، وهو في ذلك كله يسأل من بقي للمجد، والحلم والعلم ، ودفع الكوارث وردع الآزفات ، وقمع الحوادث .

فقد استطاع ابن عبدون أن يخلد مآثر بني الأفطس في هذه المرثية التي كان وفيا الوفاء كله لأولئك الذين أحسنوا له فأطلق لسانه فيهم مادحاً ولآثارهم مخلداً .

و يتبين لنا من هذين النموذجين اللذين يمثلان رثاء الممالك الزائلة أن شعراء الأندلس قد أحسنوا القول في هذا الفن، الذي يظهر فيه إخلاص أولئك الشعراء ووفائهم لمن أحسن إليهم .

وقد كان لسقوط الأسر الحاكمة أثرٌ في نفوسهم، و يمثل ذلك منعطفا قــويا ، ترك آثــاره الواضحة فــي نفــوس أهــل المــدينة ، لا سيما الشعراء الذين ارتبطوا بتلك الأســـــر فجاشت عواطفهم ، أمام الحادث الجلل وتدفقت العبرات من قصائدهم التي تسجل مصابهم العظيم . ومثل هذا الرثاء يحمل بعدا فكريا وعاطفيا يتبين منه أن أولئك الشعراء قد وصلوا

---

(١)البستي، شرح قصيدة ابن عبدون، **البسامة**، ص٢٩٧.

(٢)المصدر نفسه ، ص٢٩٧.

إلى أعلى درجات الانتماء والارتباط بالحاكم ودولته فالشعراء قد تجاوزوا في هذا النوع من الرثاء الحاكم المسيطر ، ولم يتقصدوا إرضاءه[١].

(١) انظر النجار:محمد، انتصار خليل : **المدن الأندلسية في شعر عصر ملوك الطوائف " القرن الخامس الهجري** "(٢٠٠٠) رسالة ماجستير غير منشورة ، الجامعة الأردنية ، المشرف محمد علي أبو حمدة ، ص١١٥.

المبحث الثاني: رثـــــــــاء المـــــــدن :

ارتبط الشاعر الأندلسي بمدينته ارتباطا جعله يحب وطنه، ويدافـــع عنه بلسانٍ عضبٍ ، وبيانٍ قويٍّ، ومنطقٍ سهلٍ؛ يصور فيه الانتصارات ، ويندب فيه الانكسارات إذا ما فقدت الأمة أدوات الدفاع عن نفسها؛ كالوحدة، والدين والتعاضد وغيرها مما تحتاج إليه لتكون حصينة منيعة، مهابة الجانب لا تطلب الرحمة من المتجبر، ولا تحتكم إلـــى العـــدو الظالم، ولا تتقاعس عن الجهاد إذا نادى مناديه .

وكما بيّنتُ سابقاً أن شعر "رثاء المدن والممالك" تطور في الأندلس ، تطوّرا ملحوظا وظهر بحلةٍ جديدة جعلتنا نحكم على أن أولئك الشعراء شديدو الارتباط بمدنهم ، محبون لها ، غير راضين عن السياسات التي كانت وراء ضياع كثير من مدن الأندلس.

لذلك صور الشعراء التدمير والتخريب الذي ألحقه الأعداء بالحواضر الإسلامية فـــي الأندلس . وغالبا ما كان ذلك في موقف الاستنجاد والرثاء ، لعلـــهم بذلك يثيرون الهمـــم يحركون العزائم ، ويلهبون المشاعر[١].

وتعد بلنسية[٢]من أهـــم المدن الأندلسية التي تغلب عليها الروم ، وعاثـــوا فيها فســـادا ، وأحرقوهـــا، عند خروجهم منها ، سنة خمـــس وتسعين وأربعمائة[٣]، فكان لذلك أثـــر في نفس الشاعـــر الأندلسي أبي إسحاق إبراهيم بن خفاجة فقال في ذلك[٤]:

عَاثَتْ بِسَـــاحَـــتِكِ العِـــدَا يَـــا دَارُ وَمَحَـــا مَـــحَاسِنَكِ البِلَـــى وَالنَّارُ

وإذَا تَـــرَدَّدَ فِـــي جَـــنَابِكِ نَـــاظِـــرٌ طَـــالَ اعْـــتِبَارٌ فِـــيكِ وَاستِعْـــبَارُ

أَرْضٌ تَقَـــاذَفَـــتِ الخُـــطُوبُ بِأَهْـــلِهَا وَتَمَخَّـــضَتْ بِخَـــرابِهَا الأَقْـــدَارُ

كَـــتَبَتْ يَـــدُ الحَـــدَثَانِ فِي عَـــرَصَـــاتِهَا "لا أَنْتِ أَنْتِ وَلا الدِّيَـــارُ دِيَارُ"[٥]

---

(١)الرقب ، شفيق محمد، **شعر الجهاد في عصر الموحدين** (١٩٨٤) مكتبة الأقصى : عمان ، ص١٤٤.

(٢)بلنسية : تقع في شرق الأندلس ، وهي مدينة سهلية ، وقاعدة من قواعد الأندلس في مستو من الأرض عامرة القطر ، كثيرة التجارات ، وهي على نهر جار ينتفع به الناس ، ولها بساتين وجنات، وعمارات . (الحميري: صفة جزيرة الأندلس ، ص٤٧).

(٣)الحميري ، **صفة جزيرة الأندلس** ، ص٤٨

(٤)ابن خفاجة ، **الديوان** ، ص ٣٥٤.

(٥) أبو تمام الديوان ، ص١٤٤.

فالشاعر في المقطوعة السابقة يصف ما آلت إليه مدينته بصوت شعري مهزوم مظهرا العبرة والعظة ، معبراً عن الخراب والدمار الذي حل بمدينته بعد أن أحرقها النصارى ، وعاثوا فيها فسادا، ثم يلتفت ابن خفاجة لأهل بلنسية الذين حل بهم الدمار والخراب ، ويبين أن القدر هو السبب لما حصل لهم ، ثم ينهي ابن خفاجة مقطوعته مبينا أن معالم مدينته قد طمست وآثارها قد محيت .

وممن رثاها أيضا الأستاذ أبو عبد الله محمد بن عبد الرحمن بن خلصة البلنسي وذلك قوله[١]:

وروضةٌ زُرْتُهَا لِلأُنْسِ مُبْتَغِياً فَأَوْحَشَتْنِي لِذِكْرى سَادَةٍ هَلَكُوا

تَغَيَّرَتْ بَعْدَهَم حُزْنَاً وَحُقَّ لَهَا مَكَانَ نُوارِهَا أنْ يَنْبُتَ الحَسَكُ[٢]

لَوْ أَنَّهَا نَطَقَتْ قَالَتْ لِفَقْدِهُمُ "بَانَ الخَلِيطُ وَلَمْ يَأوَوا لِمَن تَرَكُوا"[٣]

فالشاعر في الأبيات السابقة ، يُذهَلُ لما حل "ببلنسية" من توحش الذكرى ، وهلاك السادة ، والدمار والحريق ، والتغير السلبي ،والمآل الذي آلت إليه؛ وتبدل الحال، لمّا خلت من قادتها وسادتها ورجالاتها الذين كانوا يحسنون الدفاع عنها ، والذب عن حياضها ، فكانت أيامهم بهيجة كالحديقة الغناء رفاهية وسروراً، أما وقد زالوا فقد تغيّرت الحال وساءت الأوضاع وفي خضم ذلك كله لا يغفل الشاعر عن إشراك الطبيعة له ، ففي الحالة الأولى كانت الرياض الزاهية ، وفي الثانية شوك الحسك الذي يحمل دلالة الجفاء والتبدل السلبي.

وكذلك رثى ابن عميرة المخزومي[٤] مدينته بلنسية عندما تغلب الروم عليها، فجاءت رثائيته للمدينة تحمل أسلوب الاستفهام مخاطبا دمعه الذي صار مدرارا ، وقلبه الذي لا ينفك خفاقا ، ولوعته التي استقرت بين جنبيه ، على من ظعن وتركها تقاسي مرارة البعد،

---

(١)الحميري، **صفة جزيرة الأندلس** ، ص٤٨.

(٢)الحسك : نبات له ثمرة خشنة تَعْلَقُ بأصواف الغنم، ، وواحدته حَسَكة؛ وقال أبو حنيفة: هي عُشْبة تضرب على الصفرة ولها شوك يسمى الحَسَك أيضاً مُدَحْرَجٌ، لا يكاد أحد يمشي عليه إذا يبس إلاَّ مَنْ في رجليه خُفّ أو نعل (لسان العرب: مادة حسك).

(٣) زهر بن أبي سلمى، الديوان ، ص٦٠.

(٤) المخزومي : أبو المطرف أحمد بن عبد الله بن عَميرة المخزومي القاضي: من أهل جزيرة شُقر ،سكن بلنسية واعترف بأمجاده الجميع، واتصف بالإبداع .(ابن الابار :تحفة القادم، ص٢١٣).

وألـــم الـــفراق ، ثم تساءل عن الأوطان التي فُقِدَت ودمِّرَت واستُبيحت واستُحِلَّت، و تقاذفت وطارت، ويبين أنه في بحر دائم مـــن الأحزان ، وفي هذا يقول[١]:

ما بَالُ دَمْعِـــكَ لا يَنِـــي مِـــدْرَارُهُ أَمْ مَـــا لِقَـــلْبِكَ لا يَقُـــرُّ قَـــرَارُهُ

أَلِلَـــوْعَةِ بَينَ الضُّـــلوُعِ لِظَاعِـــنٍ سَـــارَتْ رَكَـــائبُهُ وَشَطّـــت دارُهُ

أَمْ لِلـــشَّبابِ تَـــقَاذفَـــتْ أَوْطَانُهُ بَعْـــدَ الدنـــوّ وأخـــفقتْ أوطـــارهُ

أمْ للـــزَّمـــانِ أَتَـــى بِخَـــطبٍ فادحٍ مِـــنْ مِـــثْلِ حَادِثَةٍ خَلَتْ أعْصَارهُ

بَحْـــرٌ مـــن الأَحْـــزانِ عَبَّ عُبابُهُ وَارْتَـــجَّ ما بَيـــْنَ الحَـــشَا زخَّـــارهُ

فالأبيات تصور إنسانا يعيش في "بحر من الأحزان" مضطربا ، كثير البكاء ، شديد الوجد والصبابة ، ويبحث عن الخلاص من هذه الحالة ، إلا إنه لا يعرف لها علة أو سببا[٢].

ثم يبين الشاعر أن بلنسية قد انتقلت من الإسلام إلى الكفر ، وفي هذا إشارة إلى أن الأعداء قد حولوا المدينة وغيروا ملامحها الإسلامية ، ولاشك أن قضية التحول مـــن الإيمان إلـــى الكفر تبرز بوضوح في شعر رثاء المدن الأندلسية ، ومن ذلك قول شاعر مجهول في رثاء طليطلة التي استولى عليها النصارى سنة ٤٧٨هـــ[٣] :

فـــعادت دارَ كُـــفْرٍ مُـــصْطَفَاةٍ قَـــد اضْـــطَرَبَتْ بِأَهْلِـــيها الأمُـــورُ

ويقول ابن عميرة في ذلك[٤]:

أمَّا بلَنْســـيةٌ فـــمَثْـــوى كـــافـــرٍ حَـــفَّت به في عُـــقرها كُـــفَّـــارهُ

زرعٌ مـــن المَكـــروهِ حـــلَّ حصادُهُ بيدِ العـــدوِّ غداةَ لجَّ حِـــصارهُ

وعـــزيمةٌ للشِّـــرك جَعْجَع بالهُـــدى أنصارُها إذ خـــانه أنـــصـــارهُ

---

(١)الحميري، **صفة جزيرة الأندلس** ، ص٥١ – ٥٢، وابن الأبار ، تحفة القادم ، ص٢١٤.

(٢)الرقب ، شفيق ، **شعر الجهاد في عصر الموحدين**، ص٢٠٩.

(٣)المقري: **نفح الطيب** : ج٦/ ٢٢٨.

(٤)ابن الأبار : **تحفة القادم** ، ص٢١٤.

قــلْ كــيف تثبتُ بعد تمــزيق العِدا آثارُهُ أو كــيف يُــدرَك ثارهُ

وينهي رثائيته متحسرا لهذه النهاية المأساوية؛ فقد حل الظلام مكان الإشراق، والضلال مكان الهداية ، والليل مكان الإصباح ، وفي هذا إشارة للتحول السلبي، والظلم والطغيان اللذين أحدثهما النصارى في بلاد الأندلس ،ويصف ذلك قائلا[١]:

قــد كــانَ يُشــرقُ بالهِــدايــة ليلُــهُ فــالآن أظلــم بالضَّــلال نهــارُهُ

ودَجــا بــه لــيلُ الخُــطوبِ فصُــبْحه أعيا عــلى أبصــارنا إســفــارُهُ

ويستشف من هذه الأبيات ، يأس الشاعر مــن إصلاح حــال المسلمين فــي الأندلس ومدى التخريب الذي ألحقه الصليبيون بمدينة بلنسية الإسلامية : فقد مزقوا آثارها ، وبدلوا معالمها ، وعفَّوا ربوعها ، بعدما كانت جنة آمنة وادعة ، ومرتعا للحسن والجمال[٢].

وكذلك عزَّى ابن عُمَيْرَة أيضا أهل "بطليوس[٣]"، عقب سقوطها عام (٦٢٧هـ/١٢٢٩) بقصيدة بيّن فيها أن طريق الحق آمن وجار الحق عزيز ، وعلى المرء أن يلجأ إليه[٤]:

ولم أرَ مــثــل الحــقِّ أمّــا طــريقُهُ فــأَمْنٌ وأمَّــا جــارُهُ فعــزيزُ

إذا مــا امــرؤٌ آوى إليه فــحــصنُهُ حــصينٌ ومــأواه المُباحُ حَــريزُ

فكُــن معــه تظفرْ بما شــئتَ من مُنىً مُــصادفُها بالصــالحاتِ يفوزُ

ومــن خــير ما حــازَ الفــتَى الصبرُ إنَّه أداةٌ لمــَوْفور الثَّوابِ تَحــوزُ

رأيــنا التُّقــى كنــزاً يــدومُ الغِــنى به إذا فــنيتْ للمُوسرين كُنوزُ

وكــائن رأينا مــن حوادثَ أقبلتْ فللــخلقِ تصريحٌ بها ورمــوزُ

---

(١)ابن الأبار : **تحفة القادم** ، ص٢١٤، ص٢١٥.

(٢)الرقب ، **شفيق** ، **شعر الجهاد في عصر الموحدين** ، ص١٤٥.

(٣)بطليوس : من إقليم ماردة بينهما أربعون ميلا ؛ وهي مدينة حديثة الاتخاذ بناها عبد الرحمن بن مروان المعروف بالجليقي .(الحميري صفة جزيرة الأندلس ص٤٦).

(٤)ابن الأبار :**تحفة القادم**، ص٢١٤.

تُقــابَل بالتَّسليــمِ للهِ وحــدَهُ فتَمضــي ولم يُشــعَرْ بها وتجــوزُ

ويظهر في الأبيات السابق الروح المتدنية التي بدت واضحة في القصيدة، فقد دعا الشاعر أهل بطليوس إلى التمسك بالحق ، فهو طريق آمن لمن أراد النجــاة في الــدارين: الدنــيــا والآخــرة ، وظهر كذلك تأثرالشاعر بالقرآن الكريم ، بعد ذلك طلب مــن أهــل بطليوس أن يتسلحوا بالصبر الذي هو طريق الثواب ، والتقى الذي هو الكنز الحــقيقي لمن أراد النجاة في الدنيا والآخرة .

فابن عــميرة في الأبيات السابقة أراد أن يوصل رســالة لأهل بطليوس مــفادها : أنهم ضيعوا حقوق الله ، وابتعدوا عن الدين ، لذلك عاقبهم الله، وعليهم أن يعودوا للدين ، ويلتزموا به حتى يفوزوا برضى الله، فالله لايغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم .

أما هارون بن موسى الإشبيلي فقد حَّمل الدهر مسؤولية ضياع إشبيلية وخرابها، ووصف ما نالته من الشدائد، في مقطوعته التي يقول فيها[١]:

يا حِمْــصُ أقْــصَدَكِ الَمقْــدُورُ حِينَ رَمَــى لَمْ يَرْعَ فِيكِ الــرَّدَى إلا وَلا ذِمَــمَا

جَــرَتْ عَلَيْكِ يَــدٌ للدَهْرِ ظَالِــمةٌ لا يَعْدِلُ الــدَّهْــرُ فِي شَــيءٍ إذَا حَــكَــمَا

مَــا كُنْتُ أَحْــسبُ أَنَّ الحَادِثَــاتِ إذَا هَمَّــتْ بِكِ السَّــوءَ لا تُلقِي لَكِ السَّلَمَا

ولا تَوَهَّــمْــتُ ذَاكِ الحُــسْنِ يَطْمِسُهُ رَيبُ الــزَّمَانِ وَيَكْــسُو نُورُهُ الظُّلُمَا

فالشاعر حزينٌ ، لما حل بمدينته من الخراب ، والظلم ، وجور الدهر وتبدل النعيم ،وهو في هذا كله ناقم على الأيام التي كانت سببا في ضياع مدينته .

ثم يبين السبب الذي كان وراء ضياع مدن الأندلس عامة وحمص خاصة، وهو كــثرة الذنوب والبعد عن الدين ، وتفرق الأهواء والتناحر والتقاتل والتنازع على السلطة ، وتولي الأمر من ليس أهلا له ، يقول في ذلك[٢]:

يــا جَــنَّةً زَحْــزَحَتْنَا عَــنْ زَخَارِفِــهَا ذُنُــوبُنَا فَلَــزِمْنا الــبَثَّ وَالنَّدَمَــا

لَــمّــا تَــفَــرَّقَتِ الأهــواءُ وَاضْطَرَمَــتْ نَارُ البُغَاةِ فَقَامَــتْ للــرَّدَى عَلَمَا

---

(١)البيان المغرب ، ج٣ / ٣٨٢ . .

(٢)المصدر نفسه ، ج٣ / ٣٨٢ . .

وَنُــوزِعَ الأمْــرَ أَهْلُــوهُ وَقَــامَ بِهِ مَنْ لَــمْ يَجِدْ قِــدَماً فِيهِ وَلا قَــدَمَــا

ولم يكن أمام النصارى وهم يرون ما يرون من الفرقة والتشرذم، إلا أن يتوحدوا ويحيوا أحقادهم الدفينة ويقصدوا حمص ، في جيش ضخم ،فيقتّلون المسلمين، ويشردونهم وما هذا إلا لحقدهم وضعف المسلمين، يقول في ذلك[١]:

ثَارَتْ حَــفَائظُ للتــثليثِ فَــابْتَدَرُوا وَأَيْقَــظُوا مِــن سِنَاتِ الغَفْلَــةِ الهِــمَمَا

وَأَنْشَــرُوا مــيِّتَ الأحْقَــادِ بَيْنَهُمُ وَلَــو أَطَاقُــوا لَعَمْرِي أَنْشَــرُوا الرِّمَمَا

وَيَمَّمُــوا حِمْصَ فِي جَــمْعٍ يَضِيقُ بِهِ ذَرْعُ الفَــضَاءِ فَسَــوَّى الوَهْد وَالأكَمَا

ويشير إلى محاصرة الصليبيين إشبيلية ، وتشديدهم عليها ، وإحاطتهم بها من كل الجهات. وقد أشار إلى عنف هذا الحصار قائلا[٢]:

وَقَــدْ أَحَــاطَتْ بِنَا الأعْــدَاءُ فَاغِــرَةً أَفْــوَاهَهَا تَبْتَغِي أَرْوَاحَــنا طُعْمَا

ثم يصف الشاعر سوء أحوال الأندلس وترديها وتخاذل المسلمين وتقاعسهم ، وهم يرون أعداءهم ينكلون بإخوانهم ، وقد صاروا في حالٍ يُرثى لها، فهم " في وجود يشبه العدمــا" .

والشاعر في ذلك لم يترك للمسلمين عذرا في التأخر عن إنقاذ الأندلس وإبقائها مسلمة للكفر[٣]:

مَــاذَا يُبَطِّئُكُمْ عــنَّا وَحَــوْلَــكُــم إنْ تُبْصِــرُوا ، دَارَ قَــوْمٍ أَصْبَحَتْ رِمَمَــا

لا عُــذْرَ فِي تَــرْكِــهَا لِلْكُــفْرِ مُسْلَمَةً إنَّ الــزَّمَــانَ وَأَنْتُم فِــيهِ مَــا عَقَمَــا

لَمْ يَبــْقَ فِيْنَا ســوَى الأنْفَــاسِ خَافِتَةً فَكُــلُّنَا فِــي وُجُــودٍ يُشْبِهُ العَــدَمَا[٤]

---

(١)البيان المغرب ، ج٣ / ٣٨٢.

(٢) المصدر نفسه ، ج٣ / ٣٨٢ .

(٣) الرقب ، شفيق ، شعر الجهاد في عصر الموحدين،ص٢١٤ .

(٤) البيان المغرب، ج٣/ ٣٨٥.

ويصور الشاعر موقف العالم الإسلامي في المغرب من الأندلس آنذاك ، فهم يستغيثون ، ولكن لا مجيب لهم[١]:

كَــمْ نَسْتَغــيثُ وَلا أَنْصَــارَ يُصْــرِخُنَا وَنَسْتَطِبُّ لِــدَاءٍ طَالَمَا حــسمَا

وقصيدة أبي موسى بن هرون ، في جملتها انفعالات متأججة صادرة عن نفس متحرقة ، تعتب على الضياع وتدعو إلى دفع الأخطار ، وتعبر عن مشاعر أمة أضعفتها الخلافات ، وأوهنها التمزق ؛ ولذا جاءت القصيدة قوية التأثير ، بعيدة الغور في نفس السامع ، بحيث تنقله إلى أجواء الحدث ، وبهذا يكون أبو موسى بن هرون نقل محنة إشبيلية في زخمها التاريخي[٢].

ويأتي الوطن في شعر الهزيمة في بعض الأحيان على صورة امرأة غادرة تظــهــر الحقد والكره للمغلوب ،حتى لنرى ابن عميرة المخزومي يستمطر الخراب والجدب لمدينته بلنسية بعد أن لانت من أعطافها لأعداء أهلها[٣]:

ألا سقــتْ غُــر الغــوادِي منــازلا طــعمنا جناها وارتعينا جــنابها

ومــالي أستــســقي الغمام لتــربة أغضت لحياة الصليب لــصــابها

وشــرَّدت التوحيد تشريد ساخــر به ، على التثليث أرخــتْ حجابها[٤]

فالواضح أن الأبيات السابقة تبث في ثناياها قلق ابن عميرة وتردده ، فهو يطلب السقيا لمنازله التي تنكرت له، ثم يتراجع عن طلبه ، لأن بلاده لانت للأعداء ، وكأن الشاعر يقول : إن الأرض تقاتل مع أهلها فما بالُ أرضه لا تفعل ذلك ، فقد شردت التوحيد ، واستجابت للتثليث.

---

(١)البيان المغرب، ج٣/ ٣٨٥.

(٢)الرقب ، شفيق ، شعر الجهاد في عصر الموحدين، ص٢١٤.

(٣)عيد ، يوسف، أصوات الهزيمة في الشعر الأندلسي ، ص٢٩ .

(٤)المصدر نفسه، ص٢٩.

وقد أغار الصليبيون على بلدة سُهَيْل[١] وخربوها ، ودمروا معالمها ، وعاثــوا فيها فــسادا وشردوا وقتلوا كثيرا من أهلها . فصور ذلك أبو القاسم عبد الرحمن بن عبد الله السهيلي الأعمى [٢]في مقطوعة قالها بعد أن رأى ما حلّ ببلدته من الخراب والدمار[٣]:

يــا دَارُ أَيْــنَ البِيضُ والآرَامُ أَمْ أَيْنَ جِيرانٌ عَليَّ كِــــرَامُ

رَابَ الُمــحِبُّ مِن المَنَازِلِ أَنَّهُ حَيّا فَلَمْ يَرْجِعْ إلَيه سَــــلامُ

دَمْعِي شَهِيدي أَنَّني لَمْ أَنْسَهمْ إنَّ السلوَّ عَلَى الُمحِبِ حَرَامُ

لَمَّا أَجَابَنِيَ الصَّدَى عَنْهُم وَلَم يَلِجِ المسَامِعَ لِلــحَبِيبِ كَلامُ

طَارَحْتُ وُرْقَ حَمَامِها مُتَرَنّماً بِمَقَالِ صَبٍّ والدُّمُوعُ سِجَامُ

"يــا دارُ ما فَــعلتْ بِكِ الأَيَّامُ ضامتْكِ والأيامُ لَيسَ تُضامُ"

فالشاعر في مقطوعته السابقة ، يقف على أطلال بلدته التي دمرت ، وشرد أهلـــــها صارت إلى خراب ، ومن ملامح الخراب، رحيل الأهل والأحباب، والجيران والأصحاب حتى أن الشاعر ينادي بصوت مهزوم مكلوم يظهر فيه مدى الجرح ، والألــم النفسي اللذين تمخضا عمَّا حل بسهيل من الخراب والدمار، فصدى الصوت يدل على أن المدينة اقفرت من ساكنيها، لذلك بكى الشاعر بدموع صادقة بلدته التي ضامتها الأيام.

وفي سنة ٦٣٥هـــ هاجم ملك أراغون مدينة بلنسية، وكان معه كثير من الجند الوافدين منهم حشود المتطوعة الفرنسيين ، وآخرون من جنوة[٤].

فضربت القوات الغازية حصارا عنيفا حول تلك المدينة ، وما زال المسلمون تحت ذلك الحصار " تنقص أعدادهم ... إلى أن نفدت الأقوات ، واستولى الجوع ، وضعفت القــوى ،

---

(١) سهيل : من أعمال مالقة. الصفدي ، صلاح الدين خليل بن أيبك، ت٧٦٤هـــ، **الوافي بالوفيات ٢٠٠٠** تحقيق: أحمد الأرناؤوط ، تركي مصطفى ، دار إحياء التراث العربي – بيروت ، ج١٨،ط١،ص١٠١)

(٢)السهيلي الأعمى: عبد الرحمن بن عبد الله بن أحمد الإمام الخير أبو القاسم وأبو زيد ويقال أبو الحسن الخثعمي السهيلي الأندلسي المالقي الحافظ صاحب المصنفات. توفي سنة إحدى وثمانين وخمس مائة.وكف بصره وهو ابن سبع عشرة سنة، وكان عالماً بالعربية واللغة والقراءات، بارعاً في ذلك .انظر الوافي بالوفيات للصفدي،ج١٨، ١٠١)

(٣)المقري: نفح الطيب ج٢ ص٤٤٨، والمغرب ج٢، ص٤٠٠، الصفدي، الوافي بالوفيات ج١٨،ص١٠١.

(٤)انظر : تاريخ ابن خلدون : ج٦ ص٦٠١.

وأكلت الجلود ... وبلغ الكتاب أجله"[١] فكانت المراوضة على تسليم المدينة يوم الثلاثاء سابع عشر صفر سنة ٦٣٦هـ [٢]

وقد كان لسقوط هذه المدينة أصداء واضحة في الشعر الأندلسي ، ومن أصداء ذلك ما نظمه شاعر مجهول يخاطب أمير إفريقية أبا زكريا ابن عبد الواحد بن أبي حفص، حاثه على نصرة هذه المدينة، ومن الجدير ذكره أن كثيرا مما ورد في رثاء المدن الأندلسية، كان لشعراء مجهولين ، وفي هذا دلالة على أن أولئك الشعراء كانوا حريصين على وصول أصواتهم لمن ينقذ الأندلس ، ويطهرها من أدران النصارى ، ولم يأبهوا بالشهرة، فحبهم للأندلس أنساهم ذواتهم وكان البحث عمّن يستجيب لدعوتهم ، ويسمع صرختهم ويعطف على بلادهم ، يقول شاعر مجهول [٣]:

نَادَتْكَ أَنْدُلُسٌ فَلَبِّ نِدَاءَهَا وَاجْعَلْ طَوَاغِيتَ الصَّلِيبِ فِدَاءَهَا

صَرَخَتْ بِدَعْوَتِكَ العَلِيةِ فاحْبُهَا مِنْ عاطِفاتِكَ[٤] ما يَقِي حَوباءَها

واشْدُدْ بِجَلبِكَ جُرْدَ خَيْلِكَ أَزْرَها تَرْدُدْ عَلَى أَعْقَابِهَا أَرْزَاءَهَا

هِيَ دَارُكَ القُصْوَى أَوَتْ لإيالَةٍ ضَمَنَتْ لَهَا مَعَ نَصْرِهَا إِيواءَهَا

فالقصيدة تبين محنة أهل الأندلس الذين بلغت بهم الشدة مبلغها ،واشتد الخطب، ولا ناصر لهم ولا معين إلا الله . لذلك لم يألُ الشاعر جهدا في اصطناع أيَّة وسيلة لإثارة الأمير الحفصي ، وحثه على إنقاذ البلاد ودفع طواغيت الصليب عنها . ونستشف من الأبيات تحوّل الأندلس عن الدولة الموحدية إلى الدولة الحفصية ، واعترافها بدعوتها[٥].

---

(١)أعمال الأعلام : ق٣، ص٢٧٣.

(٢)الرقب ، شفيق ، **شعر الجهاد في عصر الموحدين**، ص٢٠٤.

(٣)المقري، نفح الطيب ،ج٤،ص٤٧٩ . وقد نسب محقق ديوان ابن الأبار عبد السلام الهراس هذه القصيدة لابن الأبار، وذلك في صفحة ٣٥ وما بعدها ، وقال : إنه قدمها إلى أبي زكريا الحفصي، سنة ٦٣٠هـ، بعد ضياع بلنسية يستنهض فيها همّته لاستنقاذ الأندلس ، على أن المقري لم يسم صاحبها، وكذلك فعل المحدثون.

(٤)عاطفاتك : الدوافع من رحم ، وقرابه، ودين .

(٥)الرقب ، شفيق محمد، **شعر الجهاد في عصر الموحدين**،ص٢٠٥ .

ثم يوجه الشاعر الأمير الحفصي إلى ما يعانيه المسلمون في الأندلس من الضيق، مستخدما كلمة " عبيدك " ليحثه على نصرتهم [١]:

وَبِهـَا عَبِيدُكَ لا بَقَاءَ لَهُم سِوَى ... سُبُل الضَّرَاعَةِ يَسْلُكُونَ سَوَاءَها

خَلَعَتْ قُلُوبُهُمُ هُنَاكَ عَزاءَها ... لَمَّا رَأتْ أَبْصارُهُمْ مَا سَاءَها

دُفِعُوا لأبْكَارِ الخُطُوبِ وَعونِها ... فَهُمُ الغَدَاةَ يُصَابِرُون عَنَاءَها

وَتَنَكَّرَتْ لَهُمُ اللَّيَالِي فَاقْتَضَتْ ... سَرَّاءَها وَقَضَتْهُمُ ضَرَّاءَها

فالشاعر يدفع الأمير الحفصي إلى نصرة الأندلس دفعا ، وذلك عندما يخبره بضياع الجزيرة ، إن لم يشكل قوّةً عسكرية ، ويوجه الجيوش لنصرتها ،وإنقاذ ما بقي منها، فلجأ الشاعر إلى عبارات تبين صدق انتمائه ، وحبه ، وعظيم مصابه لما حل بمدينته ، وقد حشد ما حشد وجمع ما جمع، ليستثير العزائم، ويرفع الهمم، ويوجه الأنظار لاسترداد مدينته خاصة ، وإنقاذ جزيرة الأندلس عامة من خطر النصارى الذي بات همّا يؤرق الشعراء الأوفياء في ذلك العصر، يقول [٢] :

تِلْكَ الجَزِيرةُ لا بَقَاءَ لَهَا إذَا ... لَمْ يَضْمَنِ الفَتْحُ القَرِيبُ بَقَاءَهَا

رِشْ أَيُّهَا المَولَى الرَّحيمُ جَنَاحَهَا ... وَاعْقُدْ بِأَرْشِيَةِ النَّجَاةِ رِشاءَها

أَشْفَى عَلَى طَرَفِ الحَيَاةِ ذَمَاؤهَا ... فَاسْتَبْقِ للدِّينِ الحَنِيفِ ذَماءَها

حَاشَاكَ أنْ تَفْنَى حُشَاشَتُهَا وَقَد ... قَصَرَتْ عَلَيْكَ نِدَاءَها وَرَجاءَها

ثم يلتفت الشاعر إلى مدينة بلنسية ، متأوها لما حل بها من الدمار والاحتلال، متسائلا عن سبيل نجاتها من أعدائها ، وقد جاءت هذه المرثية في معرض ذكريات الشاعر وعهوده وأيامه

---

(١)المقري، نفح الطيب، ج٤،ص٤٧٩. . وابن الأبار ، **الديوان**، ص٣٥.

(٢)المقري، نفح الطيب، ج٤، ٤٧٩و ٤٨٠. . وابن الأبار ، ص٣٥.

التي قضاها في مدينته ، التي صارت تحت وطأة الاحتلال ، فلم يعد لهذا الشاعر من مدينته إلا الذكريات التي يستعطف من خلالها الأمير الحفصي[١] :

إيـــهِ بَلَنْـــسيـــةٌ وَفِـــي ذِكْـــــرَاكِ مَـــا   يَـــمْرِي الشُّـــؤونَ دِمـــاءَهـــا لا مَـــاءَهـــا
كــَيْـــفَ السَّـــبيلُ إِلَـــى احْـــتِلالِ مَـــعَاهِـــدٍ   شَـــبَّ الأعَـــاجِمُ دُونَـــهَا هَيْـــجَاءَهـــا
وإلَـــى رُبـــىً وَأَباطِـــحٍ لَـــمْ تَـــعْـــرُ مِـــنْ   حُلَلِ الـــرَّبِـــيـــعِ مَـــصيفَـــهَا وَشِـــتَاءَهَـــا
طَـــابَ الـــمُعَـــرَّسُ وَالَمـــقِيـــلُ خِـــلالَـــها   وَتَـــطَـــلَّعَـــتْ غُـــرَرُ الـــمُنَى أثْـــنَـــاءَها

ثم يسترسل الشاعر في وصف الخراب الذي أحدثه الفرنجة ، كـــتدمـــير المـــدارس ، وصبغها بالصبغة النصرانية ، وحرق المصانع، وإجلاء أهلها حتى غدت خالية من سكانها ليس فيها إلا الورقاء باكية نائحة لما حلّ بها[٢]:

بِـــأَبِـــي مَـــدَارِسُ كـــالطلـــولِ دُوارِسٌ   نَـــسَـــخَـــتْ نَـــواقِـــيسُ الصَّـــليبِ نِـــداءَها
وَمَـــصـــانِـــعٌ كَـــسَـــفَ الضَّـــلالُ صَـــباحَـــهَا   فَـــيَخَـــالُـــهُ الـــرَّائـــي إلَيهِ مَـــساءَهَا
رَاحَـــتْ بِـــهَا الـــوَرْقـــاءُ تَسْـــمَعُ شَـــدْوَهَـــا   وَغَـــدَتْ تُـــرَجِّـــعُ نَوْحُـــهَا وَبُكَـــاءَها

ويصل اضطراب الشاعر وانفعاله مداه حين عجز عقله عن إدراك حقيقة دخول الكفار بلنسية مع أنها "جنة"[٣]:

عَـــــجَبَاً لأهْـــلِ الـــنَّـــارِ حُـــلُّوا جَـــنَّـــةً   مِـــنْهَـــا تُـــمَدُّ عَلَـــيهِـــمُ أفْـــياءَهَـــا

ويصور الشاعر فظائع العلوج ،وفواجعهم ، وحقدهم على المسلمين[٤]:

أمّا العُـــلُـــوجُ فَـــقَـــدْ أَحـــالوا حـــالَـــها   فـــمن المُـــطِـــيقُ عِـــلاجَـــهَا وشِـــفاءَها
أهـــوى إلـــيهـــا بالمـــكـــارِهِ جَـــارِحٌ   لِلْكُـــفـــرِ كـــرَّه مـــــاءها وهـــواءَهـــــا

---

(١)المقري، نفح الطيب ج٤، ٤٨٠. وابن الأبار ، ص٣٥.

(٢)المقري، نفح الطيب،ج٤، ص٤٨٠. . وابن الأبار ، ص٣٦.

(٣)المقري، نفح الطيب ج٤، ص٤٨٠ . وابن الأبار ، ص٣٦.

(٤)المقري، نفح الطيب ج ٤، ص٤٨٠ . وابن الأبار ، ص٣٥.

وكـــفـــى أســـى أن الفـــواجِـــعَ جَـــمَّـــةٌ فَـــمَـــتَى يقـــاوم أســـوهَا أَسْـــواءَها

وتمضي القصيدة على هذا النحو من الحث ، والبكاء وتصوير المحنة . وهي سهلة سائغة ، خالية من الافتعال والتكلف ، تقوم على المراوحة بين الإثارة والتفجع والسرد القصصـــي ، لذلك قدّمت محنة بلنسية خاصة ، والأندلس عامة في حرارتها التاريخية(١).

ولما زحف ملك أراغون إلى بلنسية بعد هزيمة الأندلسيين في معركة "العقاب" التي كان من أسوأ نتاجها ضعف قوة الموحدين ، وتعجيل سقوط الأندلس في يـــد أعدائـــها ، لجـــأ البلنسيون وعلى رأسهم أميرهم إلى صاحب أفريقيا يطلبون منه العون والحماية. وقصده وفد على رأسه ابن الأبار ، وهناك أنشد قصيدته السينية التي "فعلت في النفوس ما تفعل المياه في الأرض العطشى فحميت الحماسة في نفس أبي زكريا الحفصي ، وأرسل سفنا مشحونة بالمال والعتاد . ولكن ذلك لم يجد بلنسية نفعا ، إذ كانت الأندلس قد سقطت وعاد الأسطول ورسى في دانية جنوبي بلنسية"(٢).

يقول ابن الأبار في سينيته(٣):

أَدْرِكْ بِخَـــيْلِكَ خَـــيْـــلِ اللهِ أنـــدلـــُسَـــا إنَّ السَّبِيـــلَ إلَـــى مَنْـــجـــاتِها دَرَسَـــا

وَهَـــبْ لَهَـــا مـــنْ عَزيزِ النَّصْـــرِ مـــَا الْتَمَسَتْ فَلَـــمْ يَزَلْ مِنْكَ عـــزُّ النَّصْرِ مُلْتَمَسا

وَحـــاش مِـــمَّا تُعـــانِيهِ حُـــشَاشَتَهَا فَـــطَـــالَما ذَاقَـــتِ البَلـــوَى صَـــبَاحَ مَـــسَا

فالشاعر في الأبيات السابقة يطلب النجدة للأندلس، دون مقدمات ، وما هذا إلا لخطورة الأمر وهول الصاعقة التي حلت بأهل بلنسية ، مما دفـــع ابن الأبار ليبدأ بهـــذا المطلع القوي المعبر،عن عظم المصيبة ، وهول الخطب ؛ ليخدم الفكرة والغرض المطلوب وهو نصرة الأندلس.

وجاء طلب النصرة للجزيرة عالي الصوت ، معبرا عن معاناة الأندلسيين الذين أضحوا في حال يرثى لها؛ فقد تقاسمت الروم مدنهم وغنائـــمهم ودورهم ، وأحـــلوا الشـــرك محـــل الإيمان ، وقد أبدع الشاعر في التشخيص عندما صور الشرك مبتسما ، والإيمان مرتحلا بائسا

---

(١)الرقب ، شفيق محمد، شعر الجهاد في عصر الموحدين، ص٢٠٧.

(٢)انظر الشعر الأندلسي ، وصدى النكبات ، يوسف عيد ، ص٦٦.

(٣)ابن الأبار ، الديوان، ص٤٠٨.

ثم بين أن المساجد صارت بيعا ، ونداء الآذان تحول إلى أجراس نواقيس، وهو في هذا كله معني بتحريك مشاعر الأمير ليجهز الجيوش ، ويعد العدة ، وينصر الجزيرة[١]:

يَــا للجَــزيرَةِ أَضْــحَــى أَهلُها جَــزَراً لِلحَــادِثَاتِ وأَمْسَى جَــدُّهَا تَعِــسَا

تَقَاسَــمَ الــرومُ لا نَالــَتْ مَقَاسِــمُهُم إِلا عَــقَائِلــَها المَــحْجــوبَةَ الأُنُسَا

وَفِــي بَلَنْسِــيةٍ مِنْها وَقُــرْطُبَةٍ ما يَنْسِــفُ النَّفــسَ أَو ما يَنــزِفُ النَّفَــسا

مَدائــنٌ حَــلَّها الإِشْــرَاكُ مُبْتَسِــماً جَــذْلانَ وارتَحَــلَ الإِيمانُ مُبْتَئِــسا

يَــا لِلْمَســاجِــدِ عَــادَتْ لِلعِــدَى بِيَعاً وِلِلنّــداءِ غَــدَا أَثْناءَها جَــرَسا

وقد وُفِّق ابن الأبار في سينيته في استنهاض عزائم الأمير الحفصي ، وهو يمدحه ،معلقا آماله عليه في تحرير الأندلس من النصارى ، وقد أحسن الوصف عندما شبَّــــه الجزيرة بالثوب النجس ، وطلب من ممدوحه أن يطهره ممن نجسه ،ويظهر في هذا التشبيه كم كان ابن الأبار كارها للنصارى ، وفي هذا يقول[٢]:

يــا أَيّــُها المَلِك المَنْصُــور أَنْتَ لــَهَا عَلْــياء تُوسِــعُ أَعْداءَ الهُــدَى تَعِــسا

وَقَــدْ تَوَاتَــرَتِ الأَنْــبَاءُ أَنَّكَ مَــنْ يُحْــيِي بِقَتْلِ مُــلُوكِ الصُــفْرِ أَنْدُلــُسَا

طَهِّــر بِــلادَكَ مِــنْهُم إِنَّــهم نَجَــسٌ ولا طَــهَارة مَــا لَــمْ تَغسِــلْ النَّجَسَا

والقصيدة طويلة تمتد في نحو سبعةٍ وستين بيتا تشهد لابن الأبار بالشاعرية العالية؛ ولو لم يصلنا من رثاء المدن إلا هي لكفتنا، وقد قال عنها صاحب التكملة : فضحت هذه القصيدة من باراها ، وكبا دونها من جاراها . وهو فيها شاعر مملوء النفس بالعاطفة مغمور الفؤاد بالأسى بين وطن مغلوب وملك بالرجاء مطلوب ، فالمعاني متوفرة ومجال القوة ذو سعة ، من أجل ذلك أطال وأجاد ووجد وجوه الكلام مختلفة فصال وجال[٣]".

ومن الشعراء الذين طلبوا النصرة ، والاستغاثة للأندلس الشاعر والناقد حازم القرطاجني في مقصورته، التي نظمها لغرض رئيس هو مدح الخليفة المستنصر بالله الحفصي عــلى

---

(١) ابن الأبار ، الديوان، ص٤٠٨و ٤٠٩.

(٢) المصدر نفسه ، ص٤١٢.

(٣) التكملة لكتاب الصلة ، ص١٣.

تجديده الحنايا ، وإيصاله الماء من زغوان إلى تونس ، ثم استصراخه والاستنجاد به لغزو النصارى ، وتطهير بلاد الأندلس منهم(١).

وقد جاءت المقصورة(٢) الحازمية في نحو ألف وستة أبيات وهي كما وصفها صاحبها: "وغاص لها الخاطر في بحار الأغراض ، على درر أصدافها جواهرُ ، وجواهرُها أعراض ، فانتظم عقدُها من اللؤلؤ المكنون ، وانقسم ما اشتملت عليه من الأغراض والفنون إلى: مديح وغزل وحكمة ومثل ، ووصف معالم ومجاهل ، ومنازل ومناهل ، ورياض وأزهار ، وحياض وأنهار ، وأزمان وأعصار ، ومدن وأمصار ، وجواز في قِفار ، وجوارٍ في بحار ، وصَيْدٍ وقَنَص ، ووَعْظٍ وقَصَص ، ومواقف تعجُّبٍ واعتبار ، وخواطر تبسم واستعبار ، إلى غير ذلك من ضروب المقاصد ، التي أراغ الخاطر اقتناصها من خفي المراصد ، واهتدى إليها رائد الفكر ، وهدى منها على العقول كل عقيلة بكر.. (٣)."

وقد بدأ القرطاجني مقصورته بمقدمة غزلية، وفيها يقول (٤):

لله مـــا هَيَّجْـــتَ يـــا يَـــوْمَ النَّـــوَى ... عَلَى فُـــؤادِي مِـــنْ تَباريحِ الجـــــوَى

لَـــقَدْ جَـــمَعْتَ الظُّـــلْمَ وَالإظْـــلامَ إذْ ... وَارَيْـــتَ شَمْسَ الحُسْنِ فِي وَقْتِ الضُّحَى

وتمتد المقدمة الغزلية في نحو اثنين وخمسين بيتا فيصف النوى ويذكر الرقباء والوشاة ويوم الرحيل .

(١)القرطاجني (أبو الحسن حازم ت ٦٨٤هـ) قصائد ومقطعات١٩٧٢ ، تقديم وتحقيق: محمد الحبيب بن الخوجة ، الدار التونسية للنشر،ص ٤١.

(٢)المقصورة في الأدب العربي : كل قصيدة من الرجز أو المتقارب أو الطويـل ، أو الكامل ، أو غيرها من البحور كان رويها ألفا لينة ، وهي موجودة في كل العصور ، وفي غالب الدواوين وعند كثير من الشعراء. (القرطاجني : قصائد ومقطعات، ص٣٥).

(٣) القرطاجني : قصائد ومقطعات ، ص٤٠

(٤) المصدر نفسه، ص١٧.

وبعد المقدمة الطللية ، يخلص الشاعر إلى مدح المستنصر بالله الحفصي ، وفيه يقول[١]:

فَــلَوْ تَجُــودُ قَــدْرَ مَا ضَــنَّتْ حَكَــت   جُــودَ أَميرِ المُؤمنينَ المُرْتَجَــى

ثم يذكر ما لهذا الأمير من عراقة النسب ، وكرم الحسب ، ويجعل ذلك موفورا ومجتمعا[٢]:

محــمدٌ سَليلُ يحـــيى ابن أبـــي   مُحــمَّدٍ نَجــلِ أبي حَفْص الرِّضا

مستنصـــر بـــالله ، منصـــور بـــه   مؤيَّـــد بعـــونـــه عـــلى العــدى

فـــرعٌ كـــريمٌ مِـــن أُصـــولٍ كـــرُمت   قَد اصْطَفَاهُ مِنْهمُ مَـــن اصْطَفَى

ويقدم القرطاجني في أكبر جزءٍ من مقصورته ١٧٦ــ٥٥٣ صورًا وألواناً من حياته في وطنه المسلوب ، وألواناً من حياته التي قضاها بين أهله وأصدقائه في مراتع لهوه، ومرابع صباه .

ثم يركز في الأذهان أن ما حاق بأهل الأندلس كان بسبب سوء سلوك أهله، وفساد أوضاعهم ، وانتشار مدى الظلم بينهم ، وتفشي الفتن فيهم ، نحو قوله[٣]:

وقــلّما مُــدّ المــَدى لمن غدا   في الظُّلــم والعُدوانِ مَمــدُودَ المــَدى

وكـــيف لا يخــاف عُقبى البَغـــي من   رَأى عِـــقَابَ الله فِيمَن قَـــدْ بَغَى

ثم يبحث عن الحل ، طالبا العلاج لأوضاع الأمة ، مفتشا عن المصلح الذي يستطيع أن يعيد للإسلام ما سلب منه ٨٧٥ ــ ٩٤٧ . وهو أثناء ذلك يعود إلى مـــدح الأمير الحفصي ويذكر جدوده وبأسهم ، وما كان لهم من آثار الفتح وغزو لساحل الزُقاق من أرض الأندلس ، وما كان من انتصارات للملك يعقوب الموحدي بواقعة الأراك ، واليوم وقــد ذهبوا جــميعا وصوّحت البلاد منهم [٤]:

وأَصْبَحَتْ مـــنْ بَعْـــدِهِمْ فَـــرِيسَةً   لِـــمَـــنْ بَغَـــى، وَفُرصَةً لِمَن بَعَا[٥]

---

(١)القرطاجني : قصائد ومقطعات، ص٢٠

(٢)المصدر نفسه، ص٢١

(٣)القرطاجني: قصائد ومقطعات،ص٦٤.

(٤)المصدر نفسه ، ص٦٦.

(٥)البعو : الجناية والجرم . انظر لسان العرب مادة بعو.

وَآضَ مـــا قَــد كــانَ منها خافِــياً بَعْــدَ الظُّــهُــورِ ظــاهِراً بَعــدَ الخَــفَا

ثم يفصل في الخراب الذي حل بمدن الأندلس ، فقد دمِّرت "تدمير" ، ومحقت "قرطبة" وخلت "حمص" ، وأنَّ "وادي أنَّة" ، وشكا "الثغر" ، ولم يبق من أمل لها سوى أمير المؤمنين ويمتد وصف الخراب الذي حل بمدن الأندلس من ٩٢٣ ــ ٩٤٧ ومن ذلك قوله[١]:

فَأَشــرَقَ الشَــرقُ بما أَشجــى الــملا وَما أَغَــصَّ كُــلَّ جَــوٍّ وَمَــلا

فَــصَيَّرَ البَيضاءَ بَــرق بِيضِها وَزُرقِــهــا تَشــكُــو الخَــلاءَ وَالجَــلا

وَدَمَّــرَت تُدمــيرَ سُــحــبُ فِــتنَةٍ وَبارِقٌ مِــن مَطلَــعِ البَغي بَغَــى

وَمــحَــقَــت قُــرطُبَةً كَــمِثلِ ما قَــد مَحَقَ البَدرَ السِرَارُ وَمَــحا

ثم يتحول من المدح وشكوى الأحوال إلى الاستصراخ والاستنجاد بأمير المؤمنين٩٤٨ ــ ٩٧٤ ، يبدأ ذلك بقوله[٢]:

وَلَــو سَــما خَــلِيفَةُ اللَــهِ لَهَا لافتَكَّــهَا بالســيفِ مِــنهُم وافــتَــدَى

ثم يختم القرطاجني مقصورته ، بتوجيه النصح والإرشاد إلى ممدوحه ، مفتخرا بما قدم في مقصورته ، حامدا الله ومثنيا عليه .

وهكذا يتضح لنا في هذا النوع من الرثاء أن شعراء الأندلس صادقون في حبهم لبلادهم، وقد أرقهم ذهاب مدنهم ، واحتلال جزيرتهم ، وتمكن النصارى منهم ، فصاروا ينظمون أجمل الرثائيات التي تمثل وطناً مسلوباً، وشعباً منكوباً ، وأعراضاً انتهكت ، ومساجد هدمت لعلهم يجدون منقذا يطهر بلادهم، وينقذ جزيرتهم من بطش أعدائهم.

---

(١)القرطاجني: قصائد ومقطعات،ص ٦٧.

(٢)القرطاجني: قصائد ومقطعات، ص٦٨.

الـــدراســـة الفـــنية :

المبحث الأول : بنية القصيدة

المبحث الثاني : اللغة والأسلوب

المبحث الثالث: الصورة الفنية

المبحث الأول: بنية القصيدة

جاءت بنية القصيدة الرثائية في عصري المرابطين والموحدين ، خاضعة للبناء التقليدي المتعارف عليه في الشعر العربي المشرقي ، مشتملة على عناصر البناء وهي : المطلع والمقدمة ، والمضمون ، وحسن التخلص ، والخاتمة[١] .

وقد اهتم الشعراء بالمطلع ، وانتقلوا منه إلى حسن التخلص ، ثم انتهوا إلى الخاتمة . وقد حاول الشعراء في رثائياتهم أن يلائموا بين المطلع والمضمون ، ويقدموا رثاياتهم بما يحسن أن يقدّم به الرثاء ، ثم أجادوا في الغالب في ما يسمّى بحسن التخلص، ثم انتهت رثائياتهم بالخاتمة التي تجوَّد لأنها آخر ما يعلق في الأذهان .

وقد كان للنقاد آراء في تلك العناصر ، ومن أهمهم ابن رشيق القيرواني الذي يرى "أن حسن الافتتاح في القصيدة داعية الانشراح ، ومطية النجاح[٢]" وهو أول ما يقرع السمع وبه يستدل على ما عند الشاعر[٣] "، لهذا ينبغي للشاعر أن يبتعد عن التعقيد في الابتداء ، لأنه أول العي ودليل الفهه[٤] "فالشعر قفل أوله مفتاحه، وبه يستدل على ما عند الشاعر[٥]".

أما حازم القرطاجني ، فالمطلع عنده هو " الطليعة التي تزيد النفس بحسنها ابتهاجا ، ونشاطا لتلقي ما بعدها[٦]".

ومما يشار إليه بالبنان أن مقدمات القصائد الرثائية في هذه الدراسة جاءت ملائمة لموضوعها الذي يناسبه الاستهلال بالبكاء في بعض موضوعاته ، وفي بعضها الآخر يناسبه الابتداء بالحكمة والاعتبار بما سبق من الأمم السابقة ، والقرون السالفة .

ومنهم من بدأ قصيدته شاكيا مصابه إلى الطبيعة عله يجد فيها ما يسليه ، أو يخفف هول الصدمة عنه ، كما فعل ابن خفاجة في معظم قصائده.

---

(١) هلال، محمد غنيمي ، النقد الأدبي الحديث ١٩٧٧، دار نهضة مصر للطباعة والنشر، ص٢٠٢.
(٢)ابن رشيق القيرواني: العمدة في محاسن الشعر وآدابه، ج١، ص،٣٨٧و٣٨٨.

(٣)المصدر نفسه ، ج١، ص،٣٨٧و٣٨٨.

(٤)المصدر نفسه ، ج١، ص،٣٩١.

(٥) المصدرنفسه،ص٣٨٨.

(٦) القرطاجني، حازم ت ٦٨٤هـ ، **(منهاج البلغاء وسراج الأدباء ١٩٨٦م)**، تحقيق: محمد الحبيب الخوجة، دار الغرب الإسلامي ــ بيروت، ط٣، ص٣٠٩.

وقد ظهرت المطالع البكائية عند كثير من الشعراء في هذه الدراسة، و من أهمهم المعتمد بن عباد في كثير من رثائياته ،وقد تكرر لفظ البكاء صريحا عنده في مطالع قصائده ومن ذلك [١]:

يَقُولونَ صَبراً لا سَبيلَ إِلى الصَبرِ سَأَبكي وَأَبكي ما تَطاوَل مِن عُمري

ويخاطب الغيم مرة أخرى مبينا كثرة دموعه ، وغزارتها ، وحرارتها على من فقد، كقوله[٢]:

يا غَيمُ عَيني أَقوى مِنك تَهتانا أَبكي لِحُزني وَما حُمّلتَ أَحزانا

وفي ثالثة يخاطب القُمْرية [٣] :

بَكَت أَن رأت إِلفَين ضَمهُما وَكرُ مَساءً وَقَد أَخنى عَلى إِلفها الدَهرُ

ويرد ذكر البكاء ست مرات ،عنده في هذه القصيدة ، مع ذكره إراقة الدموع ، وإسبال العبرات ، والنواح ، وكتمان الأسى ،وكأن موضوع البكاء راق للشاعر ، ليصور منه حالته النفسية التي تزداد سوءاً ، ساعة عن ساعة ويوما بعد يوم[٤].

ومن الشعراء الذين أجادوا في المطالع البكائية الحكيم الداني في رثاء والدته ، متمنيا استبدال دموعه بالدماء ، وفاءً لأمه وتعبيرا عن مرارة الفراق، ولوعة الأسى، يقول[٥]:

مَدامعَ عَيني استَبدلي الدَمعَ بِالدَم وَلا تَسأَمي أَن يَستهلّ وَتسجمي

لحَقّ بِأَن يَبكي دَماً جفنُ مُقلَتي لأَوجَب من فارقتَ حَقّاً وَأَلزَمِ

---

(١)المعتمد، **الديوان**، ص١٦٨.

(٢)المصدر نفسه، ص١٦٨.

(٣)المصدر نفسه، ص١٦٤.

(٤) المصدر نفسه، ص١٦٤.

(٥)الداني ، الحكيم ، **ديوان الحكيم أبي الصلت** ، ص١٤٢.

وقد صوّر ابن خفاجة الجماد باكيا معه، عندما عزّي قاضي القضاة أبا أمية بوفاة أمه إذ يقول[١]:

في مثله مـن طـارقِ الأَرزاءِ جـادَ الجَمادُ بِعَـبرَةٍ حَـمـراءِ
من كُـلِّ قـانِيَةٍ تَسيلُ كَـأَنَّها شُهُبٌ تَصَوَّبُ مِـن فُـروجِ سَماءِ
تَحـمى فَتَغرَقُ مُـقلَةٌ فـي حاجِمٍ مِنها وَتُحـرَقُ وَجنَـةٌ في مـاءِ

ومن المقدمات البكائية ما جاء به الأعمى التطيلي ، في رائعته التي أبّن بها زوجته آمنة، في البيت الثاني بعد تأكده من خبر نعيها ، وبلاء جمالها،وفي ذلك يقول[٢]:

ونبئتُ ذاك الوجـهَ غَيّرَهُ البِلـى على قُـرْبِ عَهْدٍ بالطّلاقة والبِشْرِ
بكـيتُ عليه بالدُّمـوعِ ولو أبَتْ بكيتُ عليه بالتجلُّدِ والصـبر

ومن المطالع البكائية التي بين فيها الشاعر حزنه ، وبكاءه ما جاء عند أبي المطرف بن عميرة في رثائه لبلنسية، في قوله[٣]:

مـا بَالُ دَمْـعِـكَ لا يَنِي مِـدْرَارُهُ أَمْ مـَا لِقَلْبِكَ لا يَقُرُّ قَـرَارُهُ
أَمْ لِلشَّـبابِ تَقَـاذفَتْ أَوْطَـانـُهُ بَعْدَ الدنـوّ وأخفقتْ أوطـارهُ

ونستطيع القول إن الشعراء أحسنوا القول ، وأجادوا الابتـداء، وجـودوا المطـالع البكائية التي جاءت ملائمة لغرض البكاء ، فكانت تلك المقدمات سهلة سلسة تعبر عن حزن حقيقي ، تجيء عفو الخاطر ، ليس فيها تكلف ، ولا كد للذهن، مستقاة من طبيعـة المـوت الذي يفرض نبأوه على متلقيه البكاء ، وذرف الدموع والعبرات.

(١)ابن خفاجة ، **الديوان** ، ص٢٧٣.

(٢)الأعمى التطيلي، **الديوان** ، ١٣٥.

(٣)الحميري، **صفة جزيرة الأندلس**، ص٥١و٥٢.

ومن المطالع التي أفتتح بها الشعراء الأندلسيون قصائدهم الرثائية ، المطالع الفلسفية الحكمية ، وقد درج الشعراء على أن يستهلوا مراثيهم بفلسفة عامة تعتمد على النغمة الحزينة وهي تنصب ــ في الأغلب ــ على ذكر الموت والفناء(١).

فالموت من أكثر الدوافع التي تجعل الشاعر يعيد النظر في كل ما حوله : في الكون وحركته ، و العالم وتقلباته ، و الماضين ومصيرهم ، والملوك ، ونهايتهم. ويتساوى الجميع في فتكة الموت وبطشته .

وقد بين ابن رشيق القيرواني "أن من عادة القدماء أن يضربوا الأمثلة في المراثي بالملوك الأعزة، والأمم السالفة، والوعول الممتنعة في قلل الجبال والأسود الخادرة في الغياض، وبحمر الوحش المتصرفة بين القفار ، والنسور والعقيان والحيات لبأسها ، وطول أعمارها(٢) ".

ومن أهم الشعراء الذين تميّزوا ببدايات فلسفية حكمية تظهر فيها النظرة العميقة للحياة، و أن نعيمها زائل ، ولا يركن إليها " ابن حمديس الصقلي " في قصيدته التي رثى فيها والده ، إذ يقول(٣) :

يَدُ الدَّهْرِ جارِحَةٌ آسِيَه ... وَدُنَياكَ مُفنِيَةٌ فَانيَه

وَرَبُّكَ وارثُ أَربابِها ... وَمُحيي عِظَامَهُمُ البَالِيَه

رَأَيْتُ الحِمَامَ يبيدُ الأَنَامَ ... وَلَدغَتُهُ مَا لَهَا راقِيَه

فابن حمديس فيما سبق يستهل رثاءه مظهرا تجلدا مرده فناء الدنيا ، وأن البقاء لله وحده وارث الأرضَ ومن عليها. ويظهر في المقدمة السابقة أن الشاعر يعزي نفسه بمن سبق ويقنع نفسه أن الموت والفناء كتبا على الخليقة منذ الأزل، ثم أن الله يحيي تلك العظام البالية وفي هذا يظهر لنا ابن حمديس متدينا مؤمنا بالبعث والنشور بعد الموت والبلاء.

---

(١)خريوش ، حسين يوسف (١٩٨٠) دراسة الجانب الفني في المرثية الأندلسية ، المعرفة (٢١٦) ، ص١٠٠.

(٢)ابن رشيق القيراني، العمدة في محاسن الشعر وآدابه، ج٢، ص٨١٠.

(٣)ابن حمديس، **الديوان** ، ص٥٢٢

وكذلك بدأ ابن حمديس قصيدته بالحكمة عندما رثى زوجته في ميميته التي جاءت على لسان ولديه أبي بكر ، وعمر ، إذ يصور الموت يرمي من يشاء بسهامه، ويبين دورة الحياة من بدايتها ، إلى نهايتها ، فيقول في ذلك[١]:

أَيّ خَطْبٍ عَنْ قَوسِهِ المَوتُ يَرمِي ... وَسِهامٍ تُصِيبُ مِنْهُ فَتُصْمِي
يُسْرِعُ الحَيُّ فِي الحَياةِ بِبُرءٍ ... ثُمَّ يُفضِي إلى المَماتِ بِسُقْمِ

ويظهر ابن حمديس حكيما متجلدا ، يقدم فلسفة الموت والحياة في غير موطن من رثائه ؛ كرثائه لعمته، أو ابنته[٢].

ومن الشعراء من بدأ قصيدته على طريقة القدامى مخاطبا "خليليه " كابن خفاجة في مقطوعته التي أوصى أن تكتب على قبره ، وذلك في قوله[٣]:

خَلِيلَيَّ هَل مِنْ وَقْفَةٍ لِتَأَلُّمِ ... عَلَى جَدَاثِي، أَو نَظْرَةٍ لِتَرَحُّمِ
خَلِيلَيَّ هَل بَعدَ الرَّدى مِنْ ثَنِيَّةٍ ... وَهَلْ بَعْدَ بَطْنِ الأَرْضِ دارُ مُخَيَّمِ

و كذلك فعل ابن لبون في رثاء نفسه ، مستذكرا آثار مسقط اللوى ، ومتكئاً على الماضي السعيد كما فعل غيره في توديعهم للحياة ، "وقد تخلى عن الحس المادي الذي يحيط به ، وهرب منه إلى ما هو أبعد بكثير إلى الحياة الجاهلية التي غابت مادتها ولم يبقَ فيها غير الروح ، كما لم يبق منه إلا روحه، فيحاول أن يضع الروحين في كفتيْ تعادُل ، ويستعير من تلك الحياة ألفاظا وأسلوبا ووقفة على أطلال ، وفي هذا دلالة على حالة النكوص التي يعيشها[٤]".

---

(١)ابن حمديس، **الديوان** ، ص٤٧٧.

(٢) انظر ابن حمديس، **الديوان** ، ص٢٤ و ١٠٣.

(٣) ابن خفاجة، **الديوان**، ص٣٦٣.

(٤) رحيم، مقداد، رثاء النفس في الشعر الأندلسي، ص٢٤٢.

يقول ابن لبون مخاطبا خليليه[١]:

خَليلـيَّ عوجَـا بـي عَلَـى مَـسْقَط اللِّـوَى ... لَعَـلَّ رُسُـوْمَ الـدَّارِ أَنْ تَتَغَيَّـرا
وَأَسْـأَلُ عَـنْ لَيْـلٍ تَـوَلَّى بِأُنْـسِنَا ... وَأَنْـدُبُ أَيَّامـاً تَقْـضَّت وَأَعْـصرا
وَإِذْ كُنْتُ أُسـقَى الـرَّاحَ مِـن كَـفِّ أَغْيَـدٍ ... يُنَاولنيهـا رائحـاً وَمُبكِّـرا

ويرى ابن رشيق أن استخدام " ألا وخليلي" من علامات الضعف[٢]، وأظن أن الكلمة عند كلا الشاعرين أعطت توافقا نغميا حزينا كما ذهب إلى ذلك خريوش [٣] ، فكان المطلع مناسبا للقصيدة ملائما لها ولموضوعها .

ومن المطالع الحسنة، والبديات الموفقة ، التي يلمس فيها القارئ لشعر الرثاء في عصري المرابطين والموحدين ، إجادة الشعر ، وتفوق الشعراء في ذينك العصرين المزاوجة بين الجمل الإنشائية والخبرية ، وفي ذلك "تنبيه ، وإيقاظ لنفس المتلقي[٤]".

ومن أهم الشعراء الذين أجادوا في التنويع بين الجمل الإنشائية والخبرية "ابن الأبار " في رثاء أبي الربيع الكلاعي ، وهو يخاطب صاحبيه ، في صيغة الأمر الذي يفيد الالتماس مظهرا في هذا الأسلوب علو شأن المرثي، وذلك في قوله[٥]:

ألمَّـا بِأَشْـلاءِ العُلَـى وَالمَكَـارِمِ ... تُقَـدُّ بِـأَطْرافِ القَنَـا وَالـصَّوارِمِ
نُحَيِّـي وُجُوهـاً فِـي الجِنَـانِ وَجيْهَـةً ... بِمَـا لَقِيَـتْ حُمْـراً وُجُـوه المَلاحِـمِ
وَأَجْـسَادَ إِيْمـانٍ كَـسَاهَا نَجِيْعُهَـا ... مَجَاسِـدَ مِـنْ نَـسْجِ الظُّبَـى وَاللَّهَـاذِمِ
مُكَرَّمَـةٌ حَتَّـى عَـنِ الـدَّفْنِ فِـي الثَّـرَى ... وَمَـا يُكْـرِمُ الـرَّحْمَنُ غَيْـرَ الأَكَـارِمِ

فالشاعر فيما سبق ، يستخدم الجملة الإنشائية في الشطر الأول ، ثم الخبرية في الشطر الثاني، ولا شك أن ذلك يجذب السامع ، ويجعله في حالة توقد ذهني .

---

(١)ابن خاقان ، **قلائد العقيان**،ص٢٩٤.

(٢)ابن رشيق القيراني، **العمدة في محاسن الشعر وآدابه**، ج٢، ص٨١٠.

(٣)انظرحسين خريوش ، **دراسة الجانب الفني في المرثية الأندلسية**، ص١٠١.

(٤)حازم القرطاجني ، **منهاج البلغاء** ، ص٣١٠.

(٥) ابن الأبار، **الديوان**، ص٢٧٥، ص٢٧٦.

وكذلك فعل ابن الأبار في استصراخه ، واستغاثته للأندلس ، طالبا النصر من الأمير الحفصي للجزيرة ، وقد بدأ بالأمر الذي هو من أهم المطالع الإنشائية في قصيدة الرثاء الأندلسية ، يقول ابن الأبار في ذلك[١]:

أَدْرِكْ بِخَـيْلِكَ خَيْلِ اللَّهِ أندلُـسَاً إنَّ السَّبِيلَ إلَـى مَنْجاتِها دَرَسَـا

وَهَـبْ لَهَا مِنْ عَزيزِ النَّصْرِ مَا الْتَمَسَتْ فَلَمْ يَزَلْ مِنْكَ عِـزُّ النَّصْرِ مُلْتَمَسَـا

وَحـاش مِمَّـا تُعانِيهِ حُـشَاشَتهَا فَطَالَما ذَاقَتِ البَلوَى صَبَاحَ مَسَـا

وأرى أن ابن الأبار جوّد المطلع ، وأحسن البداية ، ولاءم بين القصيدة وما يناسبها ففي قوله في الشطر الأول "ادرك بخيلك خيل الله اندلسا" يجعل فعل الأمر السامع متنبها ، منتظرا ،مشدود الذهن لعظم الأمر المطلوب ادراكه ، أما الشطر الثاني الذي استخدم فيه الشاعر الجملة الخبرية " إن السبيل إلى منجاتها درسا" فيظهر في هذا الشطر ما يؤرق الشاعر ، وهو نجدة الأندلس .

وكما أجاد الشعراء في المطالع فإنهم أجادوا أيضا في حسن التخلص ، الذي اهتم به النقاد وأولوه من العناية الشيء الكثير ، ومن أهمهم ابن رشيق الذي يرى أن التخلص " ما تخلص فيه الشاعر من معنى إلى معنى ، ثم عاد إلى الأول ، أو أخذ في غيره ، ثم رجع إلى ما كان فيه[٢] " . أما ابن الأثير فالتخلُّص عنده يعني" الخروج من كلام إلى غيره بلطيفة تلائم بين الكلام الذي خرج منه ، والكلام الذي خرج إليه[٣] " .

وقد توسع القرطاجني في حسن التخلص ، ووضع له شروطا ينبغي للشاعر الالتزام بها، ومن أهمها التحرز من انقطاع الكلام ، ومن التضمين والحشو والاضطراب ، وقلة تمكن القافية والنقلة بغير تلطف ، وأكد على تحسين البيت التالي لبيت التخلص [٤].

ويدل حسن التخلص عند النقاد على حذق الشاعر ، وقوة تصرفه وقدرته وطول باعه[٥].

والناظر في قصائد الرثاء في هذه الدراسة يجد أن معظم شعرائها ، أحسنوا التخلص ، فكانت قصائدهم متفقة مع شروط النقاد السابقين.

---

(١)ابن الأبار، الديوان، ص٤٠٨.

(٢) القيرواني، **ابن رشيق العمدة** ،ج١، ص٤١٢.

(٣) ابن الأثير، ضياء الدين نصر الله بن محمد بن محمد بن عبد الكريم (ت٦٢٧هـ) **المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر** ، تحقيق: محمد محي الدين عبد الحميد ، المكتبة المصرية . بيروت ،ج٢، ص١٢٥١.

(٤) انظر ، القرطاجني، حازم ، **منهاج البلغاء**، ص٣١٤ ــ٣٢١، وبكار، يوسف ، بناء القصيدة العربية (١٩٧٩)،دار الثقافة للطباعة والنشر ، القاهرة ، ص٢٩٧.

(٥) بكار، يوسف: بناء القصيدة العربية ، ص٢٩٢.

ويعد الشاعر "ابن حمديس " من أهم شعراء الأندلس الذين كان لهم تخلصٌ ينبئ عن شاعرية عالية ، ومثال ذلك رثاؤه لأبيه ،فقد انتقل الشاعر من الحديث عن الدنيا وغدرها ، وتقلبات الدهر إلى أن وصل إلى قبر المرثي، عندها دعا له بالسقيا قائلا : (١):

سَقَى قَبْرَ أبي رَحْمَةً فَسُقيَاهُ رائحَةٌ غاديَه
وَسُيِّرَ عَنْ جِسْمِه روحه إلَى الرَّوْحِ وَالعِيْشَةِ الرّاضِيَه

وما إن وصل الشاعر إلى قبر أبيه حتى جعل هذا البيت مفتاحا لما يليه ، فصار يبين صفات المرثي ، ومناقبه ، وعظيم أخلاقه ، وجوده.

ويبدو لي أن الدعاء للقبر من ميزات التخلص عند ابن حمديس ، وذلك أننا نجده في رثاء عمته يدعو لقبرها بالسقيا أيضا، فيقول(٢):

سَقَىَ اللَّهُ قَبْراً ثَائراً بِسَفاقس سَواجمَ يَرضى التُرْبُ فيها عَنِ السحْبِ
فَقَد عَمّهُ الإعْظامُ مِنْ قَبْرِ عَمّةٍ أَنُوحُ عَليها بِالنَّحيبِ إلى النّحْبِ

أما الشاعر محمد بن جبير الكناني ، فقد تخلص في رثائه ولده من الحزن والاضطراب والهموم إلى أن وصل إلى رثاء الولد ، فقال(٣):

عَلى وَاحِدٍ قَد كَانَ لي فَفَقَدتُهُ عَلى غِرَّةٍ فَقدَ الجَوانِحِ لِلقَلبِ
فَحُزني عَليهِ جَاوَزَ الحَدَّ قَدرُهُ وَلاَ حُزنَ يَعقُوبٍ وَيوسُف فِي الجُبِّ
وَأكثَرُ إشفاقي لأمٍّ حَزِينَةٍ مُقسَّمَةٍ بَينَ الأسَى فِيهِ وَالحُبّ

وما إن يصل الشاعر إلى رثاء الولد حتى تمضي قصيدته على هذا المنوال الحزين ، فيتحول الشاعر إلى وصف مشهد الحزن الذي حل بأهل المرثي إثر غياب الفقيد.

(١) ابن حمديس، **الديوان**، ص٥٢٢.
(٢) المصدر نفسه، ص٣٥.
(٣) ابن خميس، **أدباء مالقة**، ص١٣٢

وكذلك أحسن ابن خفاجة التخلص في قصيدة الجبل ، وذلك عندما انتقل ببراعة إلى الجبل ، فصار يصفه بالعظمة والقوة ، ويحاوره، يقول في ذلك [١]:

وَأَرعَـــنَ طَمَّـــاحِ الذُؤابَـــةِ بَـــاذِخٍ ... يُطَـــاوِلُ أَعْنَـــانَ الـــسَّماءِ بِغَـــارِبِ
يَـــسُدُّ مَهَـــبَّ الـــرِّيْحِ عَـــن كُـــلِّ وِجهَـــةٍ ... وَيَـــزحمُ لَـــيلاً شُـــهبهُ بالمناكِـــبِ
وَقُـــورٍ عَلـــى ظَهْـــرِ الفَـــلاةِ كَأَنَّـــهُ ... طِـــوَالَ اللَّيـــالِي مطـــرقٌ في العَواقِـــبِ

كما كان لابن خفاجة أيضا حسن تخلص ، وذلك عندما عزى أبا أمية في أمه فقد انتقل الشاعر بذكاء من المقدمة التي أشرك الطبيعة فيها، إلى رثاء الأم وعزاء ذوي المرثية، فقال [٢]:

وَلَـــئِن جَزِعـــتَ لِيَـــومِ أُمٍّ بَـــرَّةٍ ... نَـــشَأَت تَطـــولُ أَكـــابِرَ الآبـــاءِ
تَـــصِلُ الـــدُعاءَ إِلى البُكـــاءِ كَأَنَّمـــا ... تَرمـــي الـــسَماءَ بِمُقلَـــةٍ مَرْهَـــاءِ
فَلِمِثلِـــهِ مِـــن يَـــومِ خَطـــبٍ نـــازِلٍ ... جَمَّـــت دُمـــوعُ أَفاضِـــلِ الأَبنـــاءِ
فَـــاسمَح بِـــأَعلاقِ الـــدُموعِ فَإِنَّمـــا ... تُفـــنى دُمـــوعُ العَـــينِ لِلبُرَحـــاءِ

ومن الشعراء الذين أجادوا في حسن التخلص ابن سهل الإسرائيلي، وذلك عندما عزى الوزير علي بن خلاص بأمه ، فانتقلت القصيدة إلى مدح المرثية ، وبيان صفاتها الحسنة ، وفداء النفوس لها ، يقول في ذلك[٣]:

يَـــا بَـــرَّةً لَمّـــا انطَـــوَت أعمالهـــا ... تَاقَـــتْ إليهـــا الـــصُحفُ وَالأَقْـــلامُ
تَهْـــوى نُفـــوسٌ أَن تَكُـــونَ لَـــكِ الفِـــدَا ... فَتَقِـــلُّ عَنـــكِ وَإِنَّهـــا لَكِـــرَامُ
أَوحَشْتِ شَـهرَ الـصَومِ حَتّـى قَـد بَـدَت ... لِلبَـــثِّ فِيْـــهِ وَلِلأَسَـــى أَعْـــلامُ
كَـــمْ جُـــدتِ بِـــالمَعرُوفِ وَهُـــوَ مُـــتَمَّمٌ ... فِيـــهِ، وَقُمْـــتِ اللَّيْـــلَ وَهـــوَ تَمـــامُ

---

(١) ابن خفاجة، **الديوان**، ص٢١٦.
(٢) المصدر نفسه، ص٢٧٣، ٢٧٤.
(٣) ابن سهل، **الديوان** ، ص٣٣٥ وص٣٣٦.

ثم أحسن الشاعر التخلص من الرثاء إلى المديح ، وهذا التخلص محمود في موضوع التعزية ، وذلك أن الشاعر يجمع بين الرثاء والمدح ، وقد تنبه ابن سهل الإسرائيلي إلى ذلك فانتقل بحذق وذكاء من الرثاء إلى المدح ، وذلك بقوله [١]:

خَلَّفْــتِ حِــيْنَ ذَهَبْــتِ خَيْــرَ ابــنٍ كَمَــا ... يَبْقــى الربيــعُ إذا اســتَهَلَّ غَمــامُ
ذَاكَ الهُمَــامُ الفَــردُ لَكِــنْ ثُنِّيَــتْ ... ســِمَةُ الــوزارةِ فيــه فَهِــيَ تــؤامُ
لَــو تُطْبَــعُ الأســيافُ مِــنْ عَزماتــهِ ... لَــمْ يُغــنِ أَبنــاءَ الــوغى استــسلامُ

ومن المهم أن نشير إلى أن شعراء الأندلس أحسنوا التخلص في موضوع رثاء المدن ، وذلك أنهم كانوا ينتقلون بقصائدهم من بكائهم مدنهم وبيان ما حل فيها من الخراب والدمار ، إلى مدح الأمير الذي يتوسمون فيه الخير لإنقاذ بلادهم من الخراب .

ومن أهم الشعراء الذين أحسنوا التخلص في موضوع رثاء المدن ابن الأبار ، وذلك في سينيته التي نظمها مستصرخًا الأمير الحفصي لنجدة الأندلس . وقد كان التخلص من الحديث عما حل بالأندلس إلى مدح ذلك القائد، فقال فيه[٢]:

صِــلْ حَبْلَــها أَيّــها المــَوْلــى الرَّحيــمُ فَــما ... أَبقَــى المِــراسُ لَها حَبْلاً وَلا مَــرَسا
وَأَحْــي مَــا طَمَــستْ مِنــْهُ العــُداةُ كَــمَا ... أَحَيْيْــتَ مِــن دَعوَةِ المَهْــدِيِّ ما طُمِسا

وقد كان ابن الأبار شاعرا مجيدا يحسن التخلص ، كما أحسن غيره من شعراء الأندلس الذين أجادوا في هذا الغرض .

وكما أجاد الشعراء في المطلع وحسن التخلص، فقد أجادوا أيضا في الخاتمة ، وقد نالت أهتماما كبيرا من النقاد، فيرى القرطاجني أن تكون خاتمة القصيدة أحسن مما جاء في حشوها فهي منقطع الكلام وخاتمته ، ولا شيء أقبح من كدر بعد صفو وترميد بعد إنضاج[٣]. .

---

(١) ابن سهل، **الديوان** ، ص٣٣٨.
(٢) ابن الأبار ، **الديوان** ص٤٠٨.
(٣) القرطاجني، **منهاج البلغاء** ،ص٢٨٥.

أما أبو هلال العسكري فيذهب إلى أن آخر بيت في القصيدة لا بد أن يكون أجود بيت فيها ، وأقرب بيت للموضوع الأساسي للقصيدة [١].

وقد أطلق النقاد على الخاتمة اصطلاح " المقطع"، ونظروا إليها مـن الزاوية نفسها التي نظروا من خلالها إلى المطلع ، من حيث الاهتمام بالسامع والمخاطب، لأن الخاتمة في عرفهم قاعدة القصيدة ، وآخر ما يبقى منها في الأسماع فسبيله أن يكون محكما ، وأن يكون قفلا كما كان المطلع مفتاحا.[٢]

وقد تنوعت الخواتيم في هذه الدراسة ، فمن الشعراء من ختم رثاءه بطلب السقيا إلى قبر المرثي كما فعل ابن سهل الإسرائيلي في رثائه لأبي العباس وذلك بقوله [٣]:

فَسَقاكَ مِثلَ مَدامعي فِي فَيضها ... أَو مِثلَ جُودِك وَابِلٌ مِدْرَارُ
وَعَليكَ مِنِّي ما حَيِيْتُ تَحيَّةً ... عمَرَت بِهَا الآصَالُ وَالأَبْكارُ
مَا نَاحَ مِنْ شَجَنٍ عَلَيكَ حَمَائمُ ... وَتَفَجَّرَت مِن عَبْرَتِي أَنْهارُ

وكذلك فقد اختتم ابن جبير الكناني رثاءه لابنه راضيا بقضاء الله وقدره، وطالبا من الرحمن أن يجود المزن على ضريح الفقيد ، يقول[٤]:

رَضِيْتُ بِحُكْمِ اللهِ فِيكَ فَإنَّما ... نُقلْتَ لحِزْبِ الله بُورِكَ مِنْ حِزْبِ
وَإنِّي لَراضٍ عَنْكَ فَابشِرْ بالرِّضَى ... أرجّي لَكَ الزُّلْفَى وَمَغْفِرَةَ الذَّنْبِ
فَجَادَتْ عَلَى مَثْواكَ مُزْنَةُ رَحْمَةٍ ... وَبَوّأَكَ الرَّحمنُ في المَنْزِلِ الرَّحْبِ

وختم بعضهم بالتشوق للمتوفاة[٥]، فمما يؤرق الشاعر ، أن يرى الفقيدة ضجيعة الثرى ، يقول الحكيم الداني في ذلك [٦]:

تَطُولُ لَيالِي العَاشِقِينَ وَإنَّمَا ... يَطُولُ عَليكَ اللَّيلُ ما لَمْ تُهَوّمِ
وَمَا لَيْلُ مَنْ وارى التُرابَ حَبِيْبُهُ ... بِأَقْصَرَ مِن لَيْلِ المُحِبِّ المُتَيّمِ
فَكَمْ بَينَ راجٍ لِلإِيابِ وَآيِسٍ ... وَأَيْنَ جَمِيلُ فِي الأَسَى مِنْ مُتَمّمِ

---

(١) العسكري، ابو هلال(٣٩٥هـ) ، **الصناعتين، الكتابة والشعر ١٩٨٤**،ط٢، تحقيق مفيد قميحة ،دار الكتب العلمية ، بيروت، ص٥٠٢.
(٢) بكار، يوسف: **بناء القصيدة العربية**، ص٣٠١.
(٣) ابن سهل ، **الديوان**، ص١٣٥-١٣٦.
(٤) المصدر نفسه، ص١٣٤.
(٥) انظر ، السعودي، نزار ، **رثاء المرأة في الشعر الأندلسي**، ص١١٩.
(٦) الداني، الحكيم ، **ديوان الحكيم الداني**، ص١٤٣.

ومن الشعراء من ختم رثاءه بالجمع بين التهنئة والتعزية ، حاذيا حذو أبي تمام،كابن الأبار في رثائه للأمير الحفصي ، وتهنئته للمستنصر بالخلافة قائلا[١]:

كَنْـــتُ المُطيـــلَ مُهَنِّئـــاً وَمُعَزِّيـــاً ... وَ لَكِـــن كَفَانِيهَـــا أبـــو تَمَّـــامِ
تِلـــكَ الرَّزِيـــةُ لا رَزِيَّـــة مِثلـــهَا ... وَالقِـــسْمُ لَـــيسَ كَـــسَائِرِ الأَقـــسَامِ

ومنهم من ختم رثاءه بدعوة ذوي المرثي إلى الصبر والاحتساب، وهذا دأب قصائد التعزية ومن أهمهم ابن حمديس في رثائه عمته، فقد أنهى قصيدته طالبا من أبي الحسن الصـبرَ والاحتساب، وقد أحسن ابن حمديس التعزية فبين أن مصابه من مصاب المرثي ، ثم بين أن الصبر جزاؤه الأجر ، وجمع بين الدعوة إلى الصبر ، والدعاء للضريح بالسقيا، فقال [٢]:

أَبَـــا الحَـــسَنِ الأَيَّـــامُ تَـــصْرَعُ بِـــالغِنَى ... وتُعقِـــبُ بِـــالبَلوى وَتَخـــدعُ بِالحَـــبِّ
مـــصَابُكَ فِيهَـــا مِـــنْ مَـــصَابِي وَجَدتُـــهُ ... وَحُزنُكَ مِن حُزْنِـــي وَكَربُـــكَ مِـــنْ كربِـــي
فَـــصَبْراً فلَـــيْسَ الأَجْـــرُ إلاَّ لِـــصَابِرٍ ... على الدَّهرِ إنَّ الدَّهرِ لَمْ يخـلُ مِـنْ خَطْـبِ
ألم تـــرَ أنّـــا فِي نـــوىً مُـــستمرّةٍ ... نَـــروحُ ونَغـــدو كالمُـــصرّ علـــى الـــذّنْبِ

فَدائِمَـــةُ الـــسَقيَا سَـــماءُ مَـــدامِعِي ... لِخَـــدِّي وَأرضُ الخَـــدِّ دَائِمَـــةُ الـــشُّربِ

ومن الشعراء من ختم رثاءه ببيان عظيم صفات المرثي التي تشهد على أنه صاحب خلق، وشمائل طيبة ، ومن أهم الشعراء في هذا الختم ابن حمديس في رثائه للزكومي .يقول في ذلك [٣]:

أَبَـــا حَفْـــصٍ تَرَكْـــتَ بِكُـــلِّ حَـــزْنٍ ... عَليـــكَ الفَـــضْلَ ذا قَلْـــبٍ مَهـــيضِ
يُـــرَوّي اللَّـــهُ تَرْبـــاً نِمْـــتَ فِيْـــهِ ... فبـــاكِي المـــزْنِ مُبتَـــسمُ الـــوميضِ
فَقَـــد أَبقَيْـــتَ أَلـــسنةَ البرايـــا ... بِفَخـــرِكَ فِـــي حَـــديثٍ مُـــستَفيضِ

(١) ابن الأبار، **الديوان** ، ص٢٦٥.
(٢) ابن حمديس، **الديوان**، ص٣٧.
(٣) المصدر نفسه، ص٢٩٥.

ومن الشعراء من اختتم رثاءه طالبا من الله أن يجمعه بالمرثي في الجنة ، لذلك استحسن أحمد بن شكيل للردى هذه الميزة ، فقال[(١)]

عَسَى اللهُ فِي الفِردَوسِ يَجْمَعُ بَيْنَنَا فَإنَّ الرَّدى إنْ كَانَ يَجْمَعُنَا حَسَنْ

وكذلك فعل ابن الزقاق في رثاء أخيه، فقد أختتم رثاءه موقنا بأن لا تلاقي إلا يوم الحشر [(٢)]:

كفى حَزَناً أَنْ لا تَلاقيَ بَيْنَنا وَأَنْ لَيْسَ إِلاَّ مَوْقِفَ الحَشْرِ مَوْعِدُ

ويتبين لنا مما سبق أن شعراء الرثاء في هذه الدراسة كانوا موفقين في اختيار الخاتمة التي تناسب غرض الرثاء، فقد اختتم كثير من الشعراء رثاءهم بطلب السقيا لضريح المرثي ، وهذه الظاهرة ، قد تحمل معنى الخصوبة والخير والحياة والكرم بأنواعه المختلفة[(٣)].
ومنهم من اختتم رثاءه بالعزاء ، وذلك عندما أنهى رثاءه بدعوة ذوي المرثي إلى الصبر والسلوان .

ونستطيع القول: إن المرثية الأندلسية امتازت بالوحدة الموضوعية التي نالت حظا وافرا من اهتمام النقاد القدماء ــ كالقرطاجني ــ الذي يرى أن وحدة القصيدة: هي قوة على تصور كليات الشعر ومقاصده ، ومعانيه الموافقة لتلك المقاصد[(٤)] .

وتعني ــ عند شوقي ضيف ــ "أن القصيدة بنية حية ، تامة الخلق والتكوين وليست ضربا من المهارة ، في صياغة أبيات من الشعر ،وإنما هي بناء متكامل ، بكل ما تحمله كلمة بناء من معنى ، إنها عمل تام كامل ينقسم إلى وحدات ، تسمى أبياتاً ، ولكن كل بيت خاضع لما قبله ... فهو خيط من النسيج ، يدخل في تكوينه ، ويساعد على تشكيله[(٥)]".وقد ظهرت الوحدة الموضوعية في هذه الدراسة بشكل عام ، وتجلت بصورتها الواضحة عند المعتمد بن عباد

---

(١) أحمد بن شكيل ، **الديوان**، ص٨٤.
(٢) البلنسي، ابن الزقاق، **الديوان**، ص١٥٥.
(٣) خريوش، حسين ، **دراسة الجانب الفني في المرثية الأندلسية**، ص١١٨.
(٤) القرطاجني، حازم ، **منهاج البلغاء** ، ص٢٠٠.
(٥) ضيف ، شوقي ، **في النقد الأدبي** ، ط٩، دار المعارف ، مصر، ص١٥٣.

"الذي اتشحت أشعاره بالحزن العميق والشعور بالمرارة واللوعة واليأس ، وحرارة التأثير ، وقوة العبارة ، ومرد ذلك أنه لم يكن لديه أي حظ من التفاؤل ، لأن مملكته قد سقطت في يد آسريه ، ولم يبق له أحد يسعى في خلاصه وينقذه[١] ". وقد وضحت الوحدة الموضوعية في أشعار المعتمد التي قالها في رثاء أولاده ، ومملكته ، ونفسه فكانت تلك الرثائيات ، تعبر عن موضوع واحد ، وهو موضوع الحزن الذي صار أنيسا للشاعر في سجنه، وهو يرى نفسه مجردا من كل شئ.

وظهرت الوحدة الموضوعية في قصائد رثاء المدن ، فقد صور الشعراء في تلك القصائد حزنهم وحياتهم المريرة، وتحدثوا عن الخراب الذي حل بمدنهم، و عن القتل والأسر والسبي، والتشريد الذي مارسه أعداؤهم ضدهم ، وتأسفوا لحلول الكفر محل الإيمان ، ورحيل الإسلام بائسا حزينا من تلك المدن . لذلك دعا الشعراء في نهاية المراثي إلى الجهاد ، ونجد ذلك في طلب النصرة والاستصراخ لمدن الأندلس، وهذا الأمر عام في كل العصور الأندلسية لا سيما العصور المتأخرة منذ عصر المرابطين والموحدين إلى عصر بني الأحمر [٢] .

وقد كان للوحدة الموضوعية حضور بارز في رثاء النفس ، ومرد ذلك أن غالبية أشعار رثاء النفس كانت على شكل مقطعات شعرية ، وكان ديدن تلك الأشعار الحديث عن الموت الذي جعل أولئك الشعراء في حالة ضعف ، فصاروا يطلبون الرحمة من الله كما فعل ابن حمديس، في قوله [٣]:

دُنْيَـــا الفَتَـــى تَفْنَـــى لِـــذَا خُلِقَـــتْ	وَتَمُـــوتُ فِيْهَـــا الجِـــنُّ وَالإِنْـــسُ
يَـــا رَبِّ إِنَّ النَّـــارَ عَاتِيَـــةٌ	وَبِكُـــلِّ سَـــامِعَةٍ لَهَـــا حَـــسُّ
لا تَجعَلَـــنْ جَـــسَدَي لَهَـــا حَطَبـــاً	فِيـــهِ تُحَـــرَّقُ مِنِّـــيَ الـــنَفْسُ
وَارْفُـــقْ بِعَبْـــدٍ لَحْظُـــهُ جَـــزِعٌ	يَـــوْمَ الحِـــسَابِ وَنُطْقُـــهُ هَمْـــسُ

أو كما فعل كثير من الشعراء وهم يكتبون شواهدهم الشعرية على قبورهم ، فكانت تلك الشواهد تتميز بوحدة المضمون والموضوع ، وانصبت جل الأبيات على الحديث عن المرثي ، والتحولات التي جرت له .

---

(١)صلاح ، جرار، **قراءات في الشعر الأندلسي** ، ص١٤٧.
(٢)انظر: العبداللات، فاطمة، شعر الرثاء في الأندلس في ظل بني الأحمر(٢٠٠٢) رسالة ماجستير غير منشورة، إشراف : حمدي منصور ، الجامعة الأردنية، ص١٧٩
(٣)ابن حمديس، **الديوان** ، ص٢٨٣.

اللـــغـــــة والأســـلـــوب:

اللغة وعاء الفكر ، ومادة الأدب ، والوسيلة التي يلجأ إليها الشاعر والناثر ، ليعبران عما يجول في خاطرهما من مشاعر الرغبة والرهبة. ولا غرو إذن أن تبوأت مكانة كـــبيرة مـــن الدراسين والنقاد عبر التاريخ النقدي لها .

ومن النقاد الذين أزالوا إشكالية اللفظ والمعنى ــ وهما ركنا اللغة الأساسيان ــ ابن رشيق القيرواني الذي قال: "اللفظ جسم وروحه المعنى ، وارتباطه به كارتباط الروح بالجسم : يضعف بضعفه، ويقوى بقوته[١] ".

وكذلك وضع العسكري قواعد للكلام الجيد فآثر منه " ما يكون جزلا سهلا ، لا ينغلق معناه ولا يستبهم مغزاه، ولا يكون مكدودا مستكرها ، ومتوعرا متقعرا[٢] " .

واهتم النقاد أيضا بالكلمة الشعرية فاشترطوا فيها أن تكون مستعذبة حلوة غير ساقطة ، ولا حوشية، موضوعة فيما عرف أن تستعمل فيه[٣] ".

وقد جاءت لغة المراثي الأندلسية في عصري المرابطين والموحدين منسجمة مع ما وضعه النقاد السابقون ، فخرجت أشعارهم سهلة رقيقة ، تلائم غرض الرثاء الذي يستحسن فيه أن يكون شاجي الأقاويل مبكي المعاني مثير التباريح ، وأن يكون بألفاظ مألوفة سهلة في وزن متناسب ملذوذ[٤] ".

ومن نافلة القول أن نشير هنا إلى أن الشعراء الأندلسيين في عصري المرابطين والموحدين، عبروا عن أحزانهم ، وما يجيش في صدورهم من مـــشاعر القلق والاضطراب، والخـــوف والدهشة من الموت ، فانطوت الألفاظ الحزينة في عقد العبارة الشجية، كما نجد ذلك واضحا عند المعتمد في رثاء ولديه، فقد استخدم الشاعر ألفاظا حزينة ، تحمل عمقا مأساويا ، ودلالة فنية تبرهن على صدق العبارة، وذلك نحو (سأبكي، وأبكي، مأتم، يخمشن لهفا ، ينحن) وقد صاغ المعتمد كل هذه الألفاظ في قالب شعري ، وفق نسق مخصوص ، فخرجت العبارة الشعرية كمايلي [٥]:

يَقُولـــونَ صَـــبْراً لا سَـــبيلَ إلَـــى الـــصَّبر! سَأبكي وَأَبكـــي مـــا تَطَـــاولَ مِـــن عُمـــرِي
نَـــرى زُهْرَهـــا في مَـــأتَمٍ كُـــلَّ ليلَـــةٍ يُخَمِّـــشْنَ لَهفـــاً وَســـطَهُ صَـــفحةَ البَـــدرِ

---

(١)القيرواني، **ابن رشيق** ، **العمدة في محاسن الشعر**، ج١،ص٢٥٢.
(٢)العسكري، أبو هلال ، **الصناعتين**، ص٨١.
(٣)مفتاح، محمد ، في **سيمياء الشعر القديم** ، **دراسة نظرية وتطبيقية** ، دار الثقافة، الدار البيضاء، ص٤٣.
(٤)القرطاجني، حازم، **منهاج البلغاء** ، ص٣٥١.
(٥) المعتمد، **ديوان المعتمد بن عباد، ملك إشبيلية** ، ص١٦٢.

يـــنُحن علـــى نَجْمَـــينِ أثكلـــنَ ذا وَذا ... ويا صَبرُ ما لِلقَلب فِـي الـصَّبرِ مِـن عُـذرِ
مَـــدى الـــدَّهْرِ، فَليَبْـــكِ الغمـــامُ مُـــصابَهُ ... بِصنوَيْهِ يُعـذَرُ فِـي البُكـاء مَـدَى الـدَّهرِ

وكذلك فعل الأعمى التطيلي في رثاء زوجته ، وهو يبث لواعج الحب والحرمان عبر ألفاظ الحزن ، والثكل ، واللوعة مازجا بين أسلوبي الخبر و الإنشاء . يقول[١]:

وَمـــنْ لِي بِعَـــيْنٍ تَحْمِـــلُ الـــدَّمْعَ كلَـــهُ ... فَأَبْكيـــكِ وَحْـــدي لا أقَـــرُّ وَلا أَدْري
وَلِـــي مُقْلَـــةٌ أَفْـــضَتْ بِهـــا لحظَاتُهـــا ... إِلَـــى عَبَـــراتٍ جَمّـــةٍ وَكَـــرىً نَـــزْر
وَكـــانَ حَرامـــاً أَن تَجُـــودَ بِدمعَـــةٍ ... وَقَـــد تَرَكتـــهَا الحَادثـــاتُ بِـــلا شَـــفر

وقد لاءم ابن حمديس الصقلي ، في معظم رثائه بين اللفظ والمعنى ، ومن ذلك ما جاء عنده في رثاء جاريته جوهرة : [٢]:

أَيـــا رَشَـــاقةَ غُـــصْنِ البَـــانِ مـــا هَـــصرك ... وَيـــا تَـــألُّفَ نَظْـــمِ الـــشَّمْلِ مَـــنْ نَثَـــرك
وَيـــا شُـــؤونِي وَشَـــأنِي كُلّـــهُ حَـــزَنٌ ... فُـــضِّي يواقيـــتَ دمعِـــي واحبـــسِي دُرَرك

وقد أحسن الشاعر أحمد بن شكيل التعبير عن فقد الأخ بما يلائم موقف الرثاء، فرسم الشاعر لنفسه لوحة من البؤس ، والثكل والمعاناة ، وقد صاغ تلك الألفاظ بعبارة مواتيـــة ، متناســـقة، وذلك في قوله [٣]:

أَنا المَيتُ وَالثكـــلانُ وَالصَـــبُّ وَالشَجي ... فَـــأَيُّ شَبيهٍ بَعدَ ذاكَ أُصـــيبُ
أَعـــــاوِدُ لَثـــمَ التُـــرب فـــيهِ كَـــأَنَّهُ ... لِـــرَشفي لَـــهُ ثَغرٌ أَغَرُّ شَبيبُ
بَعـــيداً عَـــنِ الإِخـــوانِ رَهـــنَ قَرارَةٍ ... تَضَـــوَّعُ مِـــن أَنفاسِهِ وَتَطيبُ

---

(١) التطيلي، الأعمى، **الديوان**، ص٧١؛ الأسعد، عمر، **ديوان رثاء الأزواج**، ص١٣٨.
(٢) ابن حمديس، **الديوان** ، ص٢١٢.
(٣) أحمد بن شكيل، **الديوان**، ص٣٦.

وقد كثرت الألفاظ السهلة الرقيقة المتلائمة مع بعضها في هذه الدراسة ، وغالبا ما تظهر السهولة بشكل واضح في رثاء الأقارب ، وسبب هذه السهولة أن الأندلسيين عاشوا في بيئة حضرية مترفة ، فتطورت أساليب حياتهم ، بتطـــور الحياة الاجتماعية وتحضرها ، فكان من الطبيعي أن تتحضر لغتهم، وأن تعكس ذوق العصر وحضارته ، كما كان للطبيعة الأندلسية أكبر الأثر في لغة الشعر، فقد عكف الشعراء عـــلى معجـــم ألفاظ الطبيعـــة يستمدون منه ، فانبثقـــت ألفـــاظ الطبيعة وصورها في قصائدهم ، وكـــان لشيوع ظاهرة الارتجال بصورة واسعة ، أثر في إشاعة السهولة والرقة في أشعارهم(١) .

أما المراثي الرسمية فقد جاء جلُها جزلا قويا يمزج بين المدح والرثاء ، ويظهر ذلك جليا في رثاء ابن الأبار للكلاعي(٢):

أَلمَّــــا بِأَشْـــــلاءِ العُلَــــى وَالمَكَــــارِمِ تُقَـــدُّ بِـــأَطْرَافِ القَنَـــا وَالـــصَّوارِمِ
نُحَيِّــي وُجوهـــاً فِـــي الجِنَـــانِ وَجِيْهَـــةً بِمَـــا لَقِيَـــت حُمْـــراً وُجُـــوه المَلاحِـــمِ
وَأجْـــسادَ إِيْمَـــانٍ كَـــسَاهَا نَجِيْعُهَـــا مَجاسِـــدَ مِـــن نَـــسْجِ الظبَـــى وَاللَّهَـــاذِمِ
مُكَرَّمَـــةٌ حَتَّـــى عَـــنِ الـــدّفْنِ فِـــي الثَّـــرَى وَمَـــا يُكْـــرِمُ الـــرَّحْمَنُ غَيْـــرَ الأَكَـــارِمِ

فالمرثية السابقة خير دليل على أن الشعراء الأندلسيين فخموا العبارة وأجزلوا اللفظ فـــي الرثاء الرسمي .

وقد أكثر ابن حمديس في رثائه للقادة من ذكر أدوات القتال في الرثاء ، وصور تلك الأدوات تبكي صاحبها، ومن ذلك قوله (٣):

بَكَـــى فَقْـــدَكَ العِـــزُّ المُؤَيَّـــدُ وَالمَجْـــدُ وَنَاحتْ عَليــكَ الحـــرْفُ وَالــضُّمَّرُ الجُـــرْدُ
وَقَـــد نَـــدَبَتكَ البِـــيضُ وَالـــسُّمْرُ في الـــوَغَى وَعَـــدّدَكَ التَأييْـــدُ وَالحَـــسبُ العِـــدُّ

(١) انظر :عيسى، فوزي سعد، **الشعر الأندلسي في عصر الموحدين** ، ص٢٣٩-٢٤١.
(٢) ابن الأبار، **الديوان**، ص٢٧٥، ص٢٧٦.
(٣) ابن حمديس، **الديوان**، ص١٧٣.

أما ما يخص الأساليب الشعرية البلاغية فقد كانت مختلفة متباينة عند الشعراء، فمنهم من استخدم الأساليب الإنشائية، كالنداء الذي هو دعوة مخاطب بحرف نائب مناب فعل ، كأدعو أو أنادي[١].

وقد كثر هذا الأسلوب عند الشعراء ،حتى أنه يعد الأكثر وجوداً فيما توصلت إليه في هذه الدراسة، فمنه ما جاء مسبوقا بـــ "يا " التي تصلح لنداء البعيد [٢]، ومنه ما جاء بالهمزة التي هي للقريب ، ومنه ما حذفت أداته.

وجاء مسبوقا بـــ "يـــا" عند غير شاعر، وغالبا ما يدل هذا النوع من النداء على التحسر كما جاء عند الداني في رثائه لوالده المصلوب: [٣]:

صَـــــلَبُوْكَ لا كَلَفـــــاً بِعَـــــيْش فِــــيْهُمُ   يَبْكِــــــي لِفَقْــــــدِهِم وَلا مُتَأَسِّـــــفا
يَـــــا مَـــــنْ رَأَى بَــــدْرَ الــــدُّجَى لِتَمامِـــهِ   عَبَثَـــتْ بِـــهِ أَيْـــدِي الزَّمَـــانِ تَـــصَرُّفا

وأفاد النداء المسبوق بـــ "يـــا" التحسر عند المعتمد في رثاء ولديه ، وهو يخاطب الغيم والبرق مبينا لهما كثرة بكائه، وغزارة دموعه على من فقد: [٤]

يـــا غَـــيْمُ عَـــيْني أقْـــوى مِنْـــكَ هَتانَـــا   أبْكِــي لِحُــزني وَمــا حُمِّلْــتَ أَحْزانَـــا
وَنـــارُ بَرْقِـــكَ تَخبُـــو إثْـــرَ وَقْـــدَتِها،   وَنَـــارُ قَلبِـــي تُبْقِـــي الـــدَّهْر بُركانَـــا

ونجد بعض الشعراء من نادى المرثي بـــ "يا " متحسرا على المآل الذي آل إليه ، والمصير الذي صار إليه ، ويتضح ذلك في نداء ابن جبير ابنه أحمد ، وهو يبث لواعج الحزن، و كوامن الحسرة ، إذ يقول[٥]:

وَيا أحَمد المحمود قَد كُنتَ مُشبِهًا   بِطيبِ الخِلالِ الحُلوِ ، والبَارِدِ العَذْبِ

---

(١) عباس، فضل حسن ، **البلاغة فنونها وأفنانها**(٢٠٠٠) ، علم المعاني ، ط٧، دار الفرقان للنشر والتوزيع عمان، ص١٤٧.
(٢) المصدر السابق، ص ١٤٨.
(٣) ابن خميس، **أدباء مالقة**، ص٣٧٥.
(٤) المعتمد ،**الديوان** ،ص١٦٦.
(٥) ابن خميس، **أدباء مالقة**، ص١٣٣.

لآلِ جُـبَيرٍ فـيكَ أي فجـيعةٍ فما مِنْهمُ مَن يستفيقُ مـن الكـرب

وكذلك فعل ابن حمديس وهو ينادي عبد الرحمن في قوله [١]:

يـا عَابـدَ الـرَّحْمنِ حَـسْبُكَ رَحْمَـةً وَفَّـى لَهَـا بالعَهْـدِ صَـوْبَ عِهَـادِ
بِحَـلاوَةِ اسْـمِكَ لِلمَنـونِ مَـرارَةً طُرِحَـتْ بِعَـذبِ الـوُرْدِ لِلـوُرَّادِ

وقد وفّق الشاعران في ندائهما للمرثيين ، وقد دل النداء عند كليهما على حسرة حقيقية سببها فراق المرثي وذهابه إلى غير عودة ، لا سيما إن علمنا أنهما يرثيان ولدين صغيري السن.

أما ابن عباد ، وهو يقول[٢]:

يـا فَلْـذَتَي كَبِـدي! يَـأبَى تَقَطُّعُهـا مِـنْ وَجْـدِهَا بِكُمَـا مـا عِـشْتُ سُـلْوانا
مُخَفِّـفٌ عَـنْ فُـؤادِي أنَّ ثُكْلَكُمـا مُثَّقِـلٌ لِـيَ يَـوْمَ الحَـشرِ ميزَانـا

فقد دل النداء عنده على التحسر والتفجع معا .

ومن الأغراض البلاغية التي أفادها النداء المدح ، وذلك عند ابن سهل الإسرائيلي في قوله [٣]:

يَـا بَـرَّةً لَمّـا انطَـوَت أعمالهـا تَاقَـتْ إليـه الـصُحفُ وَالأَقْـلامُ
تَهْـوى نفـوسٌ أَن تَكُـونَ لَـكِ الفِـدَا فَتَقِـلُّ عَنـكِ وَإِنَّهـا لَكِـرَامُ

لكن ابن حمديس في رثائه أباه، يجعل النداء دالا على التعجب من هول ما سمع، وذلك عندما وصله نبأ وفاته، يقول[٤] :

أَتَانِـي بِـدارِ النَّـوى نعـيُـهُ فَـيَـا رَوْعَةَ السـمـعِ بِالـدَّاهِـيَـة

(١) ابن حمديس، **الديوان**، ص١٢٢.
(٢) المعتمد، **الديوان**، ص١٦٦.
(٣) ابن سهل، **الديوان** ، ص٣٣٥ وص٣٣٦.
(٤) ابن حمديس، **الديوان**، ص٥٢٢.

ولا يفوت الشعراء الأندلسيون أن يتوجهوا بالدعاء إلى الله القريب منهم ، ولكن الشعراء أنزلوا القريب منزلة البعيد لعظمة المخاطب، وعلو منزلته، ويبرز ذلك عند ابن خفاجة في قوله(١):

فَرُحمـاكَ يَـا مَـولايَ دعـوَةَ ضَـارِعٍ يَمُـدُّ إِلَـى نُعمَـاكَ راحَـةَ راغِـبِ

وابن حمديس أيضاً وهو يستجير بربه من النار فيقول(٢):

يـا رَبِّ إِنَّ النَّـارَ عَاتِيَـةٌ وَبِكُـلِّ سَـامِعَةٍ لَهَـا حِـسُّ
لا تَجعَلَـنْ جَـسَدي لَهـا حَطَبـاً فيـه تُحَـرَّقُ مِنِّـي الـنَفْسُ
وارفُـقْ بعَبْـدٍ لَحظُـهُ جَـزِعٌ يَـومَ الحِـسَابِ ونُطْقُـهُ هَمْـسُ

واستعمل بعض الشعراء الهمزة في النداء ، والتي تكون للقريب(٣) ، ولا شك أن الغرض البلاغي في هذا النداء يكون لقرب الفقيد من نفس الشاعر ، كما نجد ذلك عند ابن حمديس في رثائه ابنته (٤):

أَسَـاكِنَةَ القَـبرِ الَّـذي ضُـمَّ قطْـرُهُ عَلَـى الـبرِّ منـها وَالدِّيانَـةِ وَالفـضلِ

وقد استعمل الأعمى التطيلي النداء المرخم، في رثائه زوجه "آمنة"، وقد أضفى هذا النوع من النداء التحبب والتلطف ، وبيان المكانة العالية التي تتبوأها المرثية من نفس الراثي، يقول(٥):

أآمِـنَ إنْ أجْـزَعْ عَليـكِ فَـإنَّني رُزِئتُك أَحْلـى مِـنْ شَـبابي وَمِـنْ وَفـري
أآمِـنَ لا وَاللهِ مَـا زِلـتُ مُوقِنـا بِبَينِـكِ لَـو أَنِّـي أَخَـذْتُ لَـهُ حِـذْري

وكذلك فعل ابن عبد البر في رثائه وحيدته ، وقد انتقل ببراعة في النداء من القريب إلى البعيد ، وذلك بالهمزة لقرب المرثية من نفسه، في " أواحدتي"، و "يـا" لإظهار الرضا بالعسر

(١) ابن خفاجة، **الديوان**، ص٢١٧.
(٢)ابن حمديس، **الديوان** ، ص٢٨٣.
(٣) عباس، فضل حسن ، **البلاغة فنونه وأفنانها** ، ص١٤٧.
(٤) ابن حمديس ، الديوان ، ص٣٦٦.
(٥) التطيلي، الأعمى، **الديوان**، ص٧٠؛ الأسعد، عمر، **ديوان رثاء الأزواج**، ص١٣٥.

إرضاء لله وإيمانا بالقدر الذي كُتِبَ عليه في " فيا حبذا العسر"، لعل العسر يبتعد عنه بعد أن فقد عينيه وابنته [(١)].

أَوَاحِــدَتِي قَــدْ كُنْـتُ أَرْجُــوْكِ خِلفــةً   لِعَـيْنيَّ أُختَيــك اللَّــتَينِ سَـبَا الـدَّهْرُ
رَضِـــيْتُ بِحُكْـــمِ اللهِ فيمـــا أَصَـــابَني   إِذا لَـمْ يَكُـنْ يَـسُرُّ فَيَـا حَبَّـذَا العُـسْرُ

وأما النداء الذي حذفت أداته، فقد كان غالبه لمخطابة الخليلين، وغالبا ما يدل هذا النوع على الالتماس، كما وَضُحَ ذلك عند ابن خفاجة، وهو يطلب من خليليه أن يتأملا قبره قبل أن يذهبا [(٢)]:

خَليْلَـــيَّ هَـــلْ مِـــنْ وقفَـــةٍ لِتَـــأَلُّمٍ   عَلَـــى جَـــدَثي، أَو نَظـــرَةٍ لِتَـــرَحُّمِ
خَلِيْلَـــيَّ هَـــلْ بَعْـــدَ الـــرَّدَى مِـــنْ ثَنِيَّـــةٍ   وَهَـــل بَعْـــدَ بَطـــنِ الأَرضِ دَارُ مُخَـــيَّمِ

وقد حذف ابن لبون أداة النداء في قوله [(٣)]:

خَلِيْلَـيَّ عوجَـا بِـي عَلَـى مَـسْقَطِ اللِّـوَى   لَعَـــلَّ رُسُـــوْمَ الـــدَّارِ أَنْ تَتَغَيَّـــرا

ويتضح لنا مما سبق أن الشعراء الأندلسيين قد استعملوا النداء على غير وجهه الحقيقي، وقد أفادوا من هذا الغرض إفادة كبيرة، حتى برز سمة أسلوبية في رثائهم وذلك أنهم وجـدوا أنفسهم أمام حقيقة الموت، فلم يجدوا بدا من رفع عقيرتهم في رثائهم، لعل أصواتهم تخفف من وجدهم وحزنهم على من صاروا في جوار رب رحيم .

ومن الأسـاليب البلاغية التي تسترعي التوقف والدراسة بشيء من التريث والأناة "الاستفهام"، وهـو كغيره من الأساليب البلاغية له معنيان:ظاهر جلي ، وجواني خفي.

أما الظاهر الجلي :فيعني استخبارك عن الشيء الذي لم يتقدم لك علم به[(٤)].

---

(١) ابن الأبار، **الحلة السيراء**، ج٢، ص٢٠٨.
(٢) ابن خفاجة، **الديوان**، ص٣٦٣.
(٣) ابن خاقان ، قلائد العقيان، ص٢٩٤.
(٤) عباس، فضل حسن، **البلاغة فنونها وأفنانها** ، ص١١٧.

وأما الجواني الخفي، فله أغراض بلاغية كثيرة، كالتقرير ، والنفي، والإثبات، والتهويل والتحسر، والتمني، والتشويق والتكثير[١] .

وتكمن أهمية الاستفهام ــ بأضربه المختلفة ــ في تعلقه بموضوع الموت الذي أوقف الشعراء الأندلسيين حيارى قلقين لا حول لهم ولا قوة، أمام عظمة الموت وحقيقته الوجودية التي أرقت البشرية منذ الأزل .

وجاء الاستفهام بأدوات مختلفة ، فمنه ما جاء مسبوقا بحرفي الاستفهام الهمزة، أو هل ، ومنه ما جاء مسبوقا بـــ " كيف، أو "أين"، ومنه ما جاء غير ذلك.

أما ما كان من الاستفهام مسبوقا بـ "هل " فقد جاء عند "ابن خفاجة " وهو يتساءل حائرا عن مصيره بعد أن يصير في قبره، ومن ذلك قوله[٢]:

خَليلَـــيَّ هَـــلْ مِـــنْ وقفَـــةٍ لِتَـــأَلُّمِ عَلَـــى جَـــدثِي، أَو نَظـــرَةٍ لِتَـــرَحُّمِ
خَليلَـــيَّ هَـــلْ بَعْـــدَ الـــرَّدَى مِـــنْ ثَنِيَّـــةٍ وَهَـــل بَعْـــدَ بَطْـــنِ الأَرضِ دَارُ مُخَـــيَّمِ

ويفيد أسلوب الاستفهام " هل " فيما سبق التقرير، فابن خفاجة يريد أن يقرر أن واجب الصحبة والخلة يفرض على صاحبيه، أن يقفا متألمين وينظرا مترحمين على رفاته . أما "هل" الثانية، والثالثة فتدل كلتاهما على الإثبات، أو الشك. وربما تكون الثانية مستبعدة ــ أي الشك ــ لأنها إن كانت صوابا، فقد يظهر من خلالها ما يدلل على أن ابن خفاجة كان يشكك في قضية البعث بعد الموت، أو أنه لا يصدق ما قيل عن حياة البرزخ، أو عن الآخرة. وقد نقلت "هل الاستفهامية " في البيت الثاني في صدره وعجزه، ما يدور في فلك ابن خفاجة من حيرة ، وقلق، واضطراب.

وكان للاستفهام معنى التقرير مقرونا بالحسرة والتلهف عند "الأعمى التطيلي"، في رثائه لزوجه "آمنة" ، وهو يتساءل عن معاطفها التي فارقته إلى غير عودة [٣]:

وَهَـــل لَعبـــتْ تِلـــكَ المَعـــاطِفُ بِـــالنُّهى كَـــسالِفِ عَهـــدي فِـــي مجَاسِـــدها الحُمْـــرِ

---

(١) انظر: عباس، فضل حسن، **البلاغة فنونها وأفنانها**، ص١٣٥- ص١٤٦.
(٢) ابن خفاجة، **الديوان**، ص٣٦٣.
(٣) التطيلي، الأعمى، **الديوان**، ص٧٢؛ الأسعد، عمر، **ديوان رثاء الأزواج**، ص١٤١.

وأما الاستفهام بالهمزة فقد كان عند أبي عمران المارتلي، وهو يمزج الزهد برثاء النفس عندما بلغ عمره سبعة وسبعين عاما ، وذلك في قوله[١]:

أَمِنْ بَعْدِ سَبْعِينَ أَرجُو البَقَا ... وَسَبْعٍ أَتَتْ بَعْدَهَا تُعْجِلُ
كَأَنْ بِي وَشِيْكاً إِلَى مَصْرَعِي ... يُسَاقُ بِنَعْشِي وَلا أُمْهَلُ

ويفيد الاستفهام السابق " النفي "، فالشاعر ينفي عن نفسه البقاء بعد أن تقدم به العمر إلى هذا السن .

وقد كان لـ " كيف" الاستفهامية حضورٌ بارزٌ في المرثية الأندلسية فيما توصلت إليه في هذه الدراسة، ومن نافلة القول أن نشير هنا إلى أن كيف يسأل بها عن الحال.[٢]

ومن الشعراء الذين جاءت عندهم هذه الأداة في مرثياتهم، أبو الربيع الموحدي الذي أودى الردى بولده محمد ، فلم يكن من الشاعر إلا أن تساءل عن العزاء بقوله [٣]:

كَيْفَ العَزَاءُ وَقَد أَوْدَى مُحَمَّدُنَا ... فَالصَّبْرُ يُنْسَفُ وَالسَّرَاءُ تُكْتَسَحُ

ويبدو لي أن الشاعر غير قادر على احتمال مصيبة الموت التي نزلت بمحمد ، ودليل ذلك قوله في الشطر الثاني " فالصبر ينسف والسراء تكتسح" لذلك عبرت " كيف" عن يأس الشاعر ، وعجزه عن العزاء فيما أصاب فلذة كبده.

وأما ما جاء عند غير أبي الربيع، وذلك عند مَنْ قال [٤] :

كَيْفَ السَّبِيلُ إِلَى احْتِلالِ مَعَاهِدٍ ... شَبَّ الأَعَاجِمُ دُونَهَا هَيْجَاءَهَا

فقد استطاع الشاعر السابق ، أن يبين حال "بلنسية" عندما احتُلّت معاهدها. وكشفت "كيف" حال "بلنسية" التي صارت بائسة تعاني الويل والثكل والدمار .

---

(١) ابن الأبار، **تحفة القادم**، ص١٣٢-١٣٣.
(٢)عباس، فضل حسن، البلاغة فنونها وأفنانها، ص١٣٤.
(٣) الموحدي، أبو الربيع، **حياته**، ص١٠٦.
(٤)المقري، نفح الطيب، ج٤، ٤٨٢ ، ابن الأبار ، ص٣٥.

أما القرطاجني فقد جاءت " كيف " في مقصورته تحمل معنى التعجب من حال من لا يخاف عاقبة البغي الوخيمة، وذلك في قوله [١]:

وكيف لا يخاف عُقبى البَغي من رَأى عِقَابَ اللهِ فِيمَن قَدْ بَغَى

ومن أدوات الاستفهام التي جاءت في هذه الدراسة "أين " التي يستفهم بها عن المكان.[٢]

وجاءت" أين" عند غير شاعر، كقول ابن حمديس: [٣]

أيــن مَــنْ عَــمّرَ اليــبابَ وجــيلٌ لــبسَ الدهــرَ مــن جــديسٍ وطــسمِ

فقد بينت "أين" في البيت السابق، أن الذين عمروا الأرض ذهبوا، واللاحــق يعتبــر بمــوت السابق ، فالكل إلى فناء. وقد أضفى الاستفهام على القصيدة ثوب العزاء .

أما ابن شكيل فقد تحسر على النعم التي أسبغها عليه أبوه ، وتحسر أيضا على الحنان الذي كان يعرفه به، فدل الاستفهام في مرثيته على التحسر، لأنه فقد المنعمَ ، والحاني[٤]:

فَــأيْنَ الأَيَــادي الــسَالِفَاتُ الــتي بِهَــا شَــهِيْدٌ عَلَــيَّ الطَّفْــلُ وَالكَهْــلُ وَالــيَفَنْ"

وَأَيْــنَ حَنَــانٌ كُنْــتُ أَعْرِفُــهُ بِــهِ فَيَا قَلْــبُ مَــا أَشْــجَى عَلَيْــهِ وَمَــا أَحَــنْ

وقد كان للاستفهام " أين" عند ابن حمديس معنى التحسر والتفجع، وهو يرثي جاريتــه "جوهر" ، فقد عدد مآثر المرثية ومحاسنها ، وندب جمالها ورجاحة عقلها ، والاستفهام في هــذا السياق ضروري لأنه يدعنا في مقارنةٍ مؤلمةٍ تظهر لنا عمق المصاب الذي حل بالشاعر[٥]، بعد أن أفقده الموتُ عزيزا بات يعاني لوعة غيابه، ويقاسي مرارة فقدانه . يقــول ابــن حمــديس متحسرا على جاريته[٦]:

أَيَّ الثَّلاثَــــــة أَبْكِــــــي فَقْــــــدَهُ بِــــــدَمٍ عَمــــيْمَ خُلقِــــك أَمْ مَعنَــــاك أَمْ صِــــغَرك

مــن أيــن يَقْبَــحُ أن أفــنى عــليــكِ أسـى والحــسنُ فــي كُــلِّ فَــنٍّ يَقــتَفي أَثَــرَكْ

---

(١) القرطاجني، قصائد ومقطعات ، ص٦٤.

(٢) عباس، فضل حسن، البلاغة فنونها وأفنانها، ص١٣٤.

(٣) ابن حمديس، **الديوان**، ص٤٧٧.
(٤) أحمد بن شكيل، **الديوان**، ص٨٣.
(٥) انظر: السعودي ، نزار، **رثاء المرأة في الشعر الأندلسي**، ص١٢٨.
(٦) ابن حمديس، **الديوان**، ص٢١٢.

وربما تكون الأمثلة السابقة دليلا كافيا، وبرهانا ساطعا على أن شيوعَ الاستفهام في المرثية الأندلسية ــ في عصري المرابطين والموحدين ــ ظاهرةٌ أسلوبيةٌ يتطلبها موقف الرثـاء مـن الشاعر الذي انتابه الحزن، وأصاب الموتُ عزيزَه ، أو أفقده أنيسَه ، ورفيقَه، فلـم يكـن مـن الشاعر إلا أن بث أسئلة لا يبحث فيها عن جواب ، وإنما يبغي من ورائها أن يخفف عن نفـسه شيئا من آلام الغياب.

ويبرز التمني الذي هو طلب الشيء المحبوب، وقد يكون ممكنا وقد يكون مستحيلا(١)، أسلوبا إنشائيا هاماً من الأساليب الفنية في المرثية الأندلسية، عند الشعراء في عصري المرابطين والموحدين

ومن أهـم الشعراء الذين استعملوا هذا الأسلوب في رثائهم الأعمى التطيلي، وذلك في رثائه زوجه ، فقد تمنى الشاعر أن يواري الشمس مكان "آمنة"، ثم كرر الشاعر ذلك في تمنيه أن يكون قلبه قبرا للفقيدة : يقول(٢):

فَلَيتَهُمُ وَاروا ذُكَاءَ مَكانَهُ ... وَلَو عَرفت فِي أَوجهِ الأنْجُمِ الزُّهرِ
وَليتَهُمُ واروهُ بَيْنَ جَوانِحي ... على فَيْضِ دَمْعي وَاحتِدامِ لَظى صَدرِي

وقد كان لأسلوب التمني " ليت" دلالة فنية تظهر تحسر الشاعر ، على من فارقـت ، ولـن تعود إليه، لذلك لجأ إلى التمني لأن عودة الميت مستحيلة ، بل لن تتحقـق أمـاني التطيلـي إلا بمعجزة إلهية.

وكذلك جاء التمني عند ابن الأبار في قوله(٣):

فَيا لَيتَها والهَجْرُ مُودٍ بِوصْلِها ... كَفَتْنا سُرُورَ الوَصْلِ أو حَزنَ الهجرِ

وقد أفاد التمني حيرة الشاعر من الدهر، الذي جعله يقف مضطرباً أمام تناقـضاته ، فهـو يَسُرُّ مرة ، ويُحزن مراتٍ ، وقد أضفى التمني على النص ثوب القلق والاضطراب لما صـنعته الليالي بأهلها.

---

(١)عباس، فضل حسن، **البلاغة فنونها وأفنانها**، ص١١١

(٢) التطيلي، الأعمى، **(ديوان الأعمى التطيلي**، ص٧٠، وانظر: الأسعد، عمر **(رثاء الأزواج في الشعر العربي)** ص١٣٥.

(٣)ابن الأبار، **الديوان** ، ص٢٠٩.

أما ابن حمديس فقد تمنى مشاهدة نعش عمته، وحضور جنازتها، والمشاركة في دفنها ، فيقول[١]:

فَيَـــا لَيْتَنِـــي شَـــاهَدْتُ نَعْـــشَكِ إذ مَـــشَى ... حَوالَيْـــهِ لا أَهلِـــي حُفَـــاةً وَلا صَـــحبِي
وَدفْنَـــكِ بالأَيْـــدِي الغَرِيبَـــةِ وَالتَقَـــت ... مَعَ المَوتِ فِي إخفاءِ شَخْـصِكِ فِـي حَـدبِ
فَأَبْـــسُطُ خَـــدّي فَـــوقَ لَحْـــدِكِ رَحْمَـــةً ... وَتُـــسْفِي عَلَيْـــهِ التُـــرْبَ عَينَـــايَ بِالهَـــدبِ

وقد أبان التمني شعور الشاعر بالتقصير، لأنه لم يحضر جنازة عمّته ، وتشييع جثمانها.

وأفاد التمني معنى التفدية، عند أبي القاسم المنيشي ، في تعزيته للفتح في وفاة والدته وذلك في قوله [٢]:

اســـتَودِعُ اللهَ نُـــوراً ضَـــمَّهُ كَفَـــنٌ ... كَمَـــا تُـــوارِي بُـــدُورِ الـــتَّمِّ هَـــالاتُ
قَـــضتْ وَلَيـــتَ شَـــبابِي كَـــانَ مَوضِـــعَهَا ... هَيهَـــاتَ لَـــو قُـــضِيَتْ تِلـــكَ اللُّبانـــاتُ

وبرز التمني سمة فنية عند الحكيم أمية ، وهو يرثي نفسه ، في أبيات قالها وهو على فراش الموت ، فكان التمني بصيغة طالما ذكرها الشعراء وهي "فيا ليت شعري" وذلك في قوله [٣]:

فَيَـــا لَيْـــتَ شِـــعْرِي، كَيْـــفَ أَلقَـــاهُ عِنـــدهَا ... وزادِي قَلِيـــــلٌ والـــــذُّنُوبُ كَـــــثِيرُ
فَـــــإنَّ أَكُ مجزِيَّـــــاً بِـــــذَنبِي فَـــــإنَّنِي ... بِـــــشَرِّ عِقَـــــابِ المُـــــذنبِين جَـــــدِيرُ
وَإِنْ يَـــكُ عَفـــوٌ مِنْـــهُ عَنِّـــي، وَرَحْمَـــةٌ ... فَـــثَمَّ نَعِـــيْمٌ، دائِـــمٌ، وَســـرورُ

ومن الجدير بالذكر أن معظم التمني الوارد ذكره في هذه الدراسة قد دل علـى أمـاني لـم يحققها الشاعر الأندلسي، فكانت في معظمها تدل على التحسر.

ومن الأساليب الفنية الواردة في هذه الدراسة الحوار، الذي ظهر جليا عند ابن باجَّة في قوله [٤]:

أَقُـــولُ لِنَفْـــسِي حِـــيْنَ قَابَلَـــهَا الـــرَّدَى ... فَراغَتْ فِـــراراً مِنْـــهُ يُـــسْرَىْ إِلَـــى يُمنَـــى
قِفِـــي تحمِلِـــي بَعْـــضَ الَّـــذِي تَكرَهِينَـــهُ ... فَقَد طالَ مَا اعْتَـــدتِ الفِـــرارَ إِلَـــى الأَهنـــا

(١) ابن حمديس، **الديوان**، ص٣٦.
(٢) الفتح بن خاقان، **المطمح**، ص٣٥٥.
(٣) أبو الصلت، أمية، **ديوان الحكم**، ص٨٧.
(٤) ابن خلكان، **وفيات الأعيان**، المجلد الرابع، ص٤٣١.

وقد أضفى الحوار على المرثية عنصر الحركة، في محاولة النفس الفرار من الردى ، وأظهر قدرة الشاعر على التفلسف، وإظهار الصراع بين العقل والروح.

ويرسم ابن شكيل حوارا بينه وبين أعضاء جسمه ، وذلك في قوله(١):

فَقُلْتُ لِجِسْمي خَالِياً أَنْتَ والضَّنَى	وَلِلْروحِ بِئس الرُّوحُ مَالكَ لَمْ تَبِنْ
فَقَالَ فُؤَادي هَلْ أذُوبُ مِنَ الأَسَى	مَعِي الدَّمُ مَسفُوحاً فَقُلتُ افْعَلي وَإِنْ

وقد بين الحوار عجز ابن شكيل عن تصوير أحزانه التي تدور في نفسه، وفؤاده، فلجأ الشاعر إلى هذا الأسلوب ليبث منه الأسى الذي سببه غياب الأب .

ومن الأساليب الفنية التي بدت جلية واضحة في المرثية الأندلسية في عصري المرابطين والموحدين **التكرار** الذي يكثر في المراثي لمكان الفجيعة ، وشدة القرحة التي يجدها المتفجع(٢)، و مهما كان نوعه يستفاد منه زيادة النغم وتقوية الجرس(٣) .

وقد حرص الشعراء الأندلسيين في ذينك العصرين على تكرار ألفاظهم وعباراتهم مدركين ما له من دور في تأكيد المعنى، ووضوح الدلالة ، وبث ما يدور في أنفسهم من أحزان .

ولعله من المفيد أن نشير إلى أشهر معاني التكرار التي أشار إليها القدماء ، وهي : التوكيد، وزيادة التنبيه، وزيادة التفجع والتحسر ،وزيادة الاستبعاد ، وزيادة المدح ، والتلذذ بذكر المرثي والتنويه بشأن المذكور، والتشوق والاستعذاب، والتهديد والوعيد، والتقرير، والتوبيخ(٤).

وقد تنوعت أساليب التكرار في هذه الدراسة ، فمنه ما كان في الألفاظ ، ومنه ما كان في الأدوات كتكرار النداء ، والتمني ، والاستفهام ، ومنه ما كان في غير ذلك .

---

(١)أحمد بن شكيل، **الديوان**، ص٨٢.
(٢)انظر: ابن رشيق ، العمدة، ج٢، ص٦٨٧.
(٣)الطيب، عبد الله ، المرشد إلى فهم أشعار العرب وصناعتها ، ص٥٦٨.
(٤)عاشور، فهد ناصر(٢٠٠٤)، **التكرار في شعر محمود درويش** ، ط١، وزارة الثقافة ، عمان، ص٣٠.

ومن أهم الشعراء – الذين كان لتكرارهم جرسٌ موسيقيٌّ، ودلالة شعرية حزينة،وورد في ألفاظهم مصحوبا بأداة النداء المحذوفة – "ابن جبير" في رثاء ابنه، عندما قال [(١)]:

بُنَيَّ أَجِبْهَا فَهِيَ تَدْعُوكَ حَسْرَةً ... وَأَدْمُعُها تَنْهَلُّ غَرْبَاً عَلى غَرْبِ
بُنَيَّ أَعِرْنِي مِنْ مَنَامِكَ ظُلَّةً ... لَعَلِّيَ أَنْ أَلْقَى خَيالَكَ بالغَيْبِ
بُنَيَّ أَرِحْنِي بالإجَابَةِ مُخْبِراً ... فَقَد كَتمْتُ مَا بِي فَمَا لَكَ لا تُنْبِي
بُنَيَّ أحَقّاً صِرتَ رَهنَ يَدِ البِلى ... وَنَهبَ الثَّرَى أمسيتَ يَا لك مِن نَهبِ
بُنَيَّ عَساهَا نَومَةٌ فانتباهَةٌ ... فكَم ذا أنادي العَينَ طالَ الكَرى تَعبي
بُنَيَّ وَفِي طَيِّ الحَشَا كُنْتَ ثَاوِياً ... فَكَيْفَ سَخَتْ نَفْسِي بِدَفْنِكَ فِي التُّرْبِ

وقد تكررت كلمة " بنـي " ست مرات ، و في كل مرة كانت تؤكد حرقة الأب وحسرته ، ولوعته ، على ذلك الغائب الذي أرق غيابه الأمُ فجاءت "بنـي الأولـى" على لسان الأب طالبا من الابن أن يجيب نداء الأم الثكلى المتحسرة .

أما "بني الثانية" فأظهرت قناعة الشاعر من زيارة طيف المرثي له ولو في المنام. أما "بني الثالثة" فقد أبانت قلق الأب واضطرابه، ووصول الحزن عنده إلى آخر مداه.

وكانت "بني الرابعة" تفيد إقرار الشاعر ، ورضاه بالواقع المر فقد تبين له ما يخافه وأيقن أن الابن صار رهن يد البلى.

وفي "بني الخامسة" صار الشاعر يدعو للمرثي بالراحة وهو في قبره، ولكنه ظل في حزنه وسهره وأرقه.

وكانت "بني السادسة" تمثل انكسار الشاعر أمام عظمة القدر الذي يجعل أعز الناس وأحبهم يباشر دفن الميت، ويسفي عليه التراب.

ويتراءى لي أن الشاعر في تكراره لكلمة "بني" يستأنس في هذه الكلمة التي تفيد التحبب وجمع أيضا بين التسلية و الاستعذاب للقدر الذي جعل الأب يبقى حزينا، والابن يرحل بعيدا ، ويحل في قبره وحيدا.

---

(١) ابن خميس، أدباء مالقة ، ص١٣٢.

أما ابن شكيل فقد كان للتكرار في قوله[١]

حـــذار حذار من الركون إلى الـــزمـــن ... فـــمن ذا الـــذي يبـــقى علـــيه ومن ومنْ
فَكَمْ سَكَـــن الدنـــيا مـــلـــوك أعـــزة ... تـــفـــانـــوا فلم تستبق منه ثرى الجـــننْ
وكَـــمْ فـــي الثَّـــرَى دَسَّت جَبِيـــنَ مُتَوَّجٍ ... فَـــأَصْبَـــحَ بِالأقْـــدَام يوطـــا وَيُمْتَهَـــنْ

وقد أفاد التكرار " حذار" التوكيد فالشاعر يؤكد لسامعه أن يبقى على حذر من الدنيا وقد كرر الشاعر أيضا " من " و"من" في الشطر الثاني ليبين لسامعه ضلال من يركن للدنيا الخداعة.

أما تكراره لـــ"كم" الخبرية فقد أفاد التكثير والتعظيم. ويبدو أن الشاعر في تكرار " حذار، و"كم الخبرية" أراد أن يعزي نفسه بكثرة من عضتهم الدنيا بأنيابها ، وأصابتهم بحوادثها.

وقد أفاد التكرار عند ابن خفاجة معنى الاستبطاء في قوله [٢]

فَحَتّـــى مَتَـــى أَبْقَـــى وَيَظْعَـــنُ صَـــاحِبٌ ... أُوَدِّعُ مِنْـــــهُ راحِـــــلاً غَيْـــــرَ آيِـــــبِ
وَحَتَّـــى مَتَـــى أَرْعَـــى الكَواكِـــبَ سَـــاهِراً ... فَمِـــنْ طَـــالِعٍ أُخْـــرى اللَّيَـــالِي وَغَـــارِبِ

ويبدو من تكرار " حتى متى" أن ابن خفاجة يستبطئ الفرج الذي لم يحن أوانه ، فالشاعر في قلق دائم مبعثه بقاؤه وحيدا ، ورحيل الصحب إلى غير أوبة.

ومن الجدير بالذكر أن النداء تكرر عند غير شاعر كالتطيلي في تأبين زوجه آمنة وقد دُرِسَ ذلك في النداء، ولا ضير إن أضفنا إن تكرار "أأمن" أفاد التحبب والتلطف ، مقرونا بالحسرة والتلهف.

أما المعتمد فقد كرر البكاء في كثير من رثائياته، ومنها هذه المقطوعة التي يقول فيها [٣] :

يَقُولـــونَ صَـــبْراً لا سَـــبِيلَ إِلَـــى الـــصَّبْر! ... سَأبكِي وَأَبكِـــي مَـــا تَطَـــاولَ مِـــن عُمـــرِي
نَـــرى زُهْرَهَـــا فِـــي مَـــأتَمٍ كُـــلَّ ليلَـــةٍ ... يُخَمِّـــشْنَ لَهفـــاً وَسْـــطَهُ صَـــفحةَ البَـــدرِ
يَـــنُحن علـــى نَجْمَـــينِ أثكلـــنَ ذا وَذا ... ويا صَبرُ ما للقَلب فِـــي الـــصَّبرِ مِـــن عُـــذرِ
مَـــدى الـــدَّهْرِ، فَلِيَبْـــكِ الغمـــامُ مُـــصابَهُ ... بِصنوَيْه يُعـــذَرُ فِـــي البُكـــاءِ مَـــدَى الـــدَّهرِ

(١) أحمد بن شكيل، **الديوان**، ص٨٣.
(٢) ابن خفاجة ، الديوان ، ص٢١٦.
(٣) المعتمد، **الديوان** ، ص١٦٢.

وإذا ما قمنا بإحصاء التكرار الوارد عند الشاعر في هذه المرثية فسنجد أن الشاعر كرر "الصبر أربع مرات "، وكرر البكاء صريحا " أربع مرات " ، "ومدى الدهر" مرتين.

ويخيل لي أن التكرار عند المعتمد قام بدور كبير في خدمة المعنى، وإشاعة الحزن مقترنا بالحسرة التي انطوى عليها قلب الشاعر إثر فقده لأبنائه، فصار يكرر الألفاظ دون قصدٍ بل أنه من المناسب القول :إن المعتمد يستأنس بالبكاء ، ويعده وفاء لأبنائه الذين طوتهم يد الردى.

ومن المعاني التي يفيدها التكرار التحذير ، ومن أمثلة ذلك ما جاء في رثاء بني الأفطس عند الشاعر ابن عبدون في قوله [١]

الـــدّهْـــرُ يُفْجِعُ بَعْدَ العَيْنِ بِالأَثَرِ فَمَا البُكَاءُ عَلَى الأشْبَاحِ وَالصُّوَرِ

أَنْهَـــاكَ أَنْهَـــاكَ لا أفاك واحدة عَن نَومَةٍ بَيْنَ نَابِ اللَّيثِ والظُّفُرِ

وقد أفاد التكرار في البيت الثاني، تأكيد الشاعر للسامع الحذر من غدر الدنيا التي نكّلت ببني الأفطس وأذاقتهم صروف العذاب .

وكذلك برز تكرار الاستفهام"من" في رثاء ابن عبدون لبني الأفطس ، سبع مرات في تساؤل: [٢]:

مَـــن لِلأَســـرَّةِ أَو مَـــن لِلأَعِـــنَّةِ أَو مَـــن لِلأَسِنَّـــةِ يُهديـــها إِلـــى الثـــغـــرِ

مَـــن للظُّـــبى وَعَوالي الخَـــطِّ قَـــد عُقِدَت أَطـــرافُ أَلسنِها بِالعـــيِّ وَالحَـــصَرِ

مَـــن لِليَـــراعَـــةِ أَو مَـــن لِلبَراعَـــةِ أَو مَـــن لِلسَـــماحَةِ أَو لِلنـــفـــعِ وَالضَرَرِ

أو دَفْـــعِ كَـــارِثَـــةٍ أَو رَدْعِ آزِفَـــةٍ أَو قَـــمْعِ حـــادِثَةٍ تُعْـــيي عَلَى القَـــدَرِ

فالتكرار السابق للاستفهام "من" يظهر فيه معنى التحسر على فقده إذ ليس هناك من يسد مكانهم بعدهم.

---

(١)البستي ،: **شرح قصيدة أبن عبدون (البسامة)** ص ٩ ـــ ١١.

(٢)المصدر نفسه ، ص٢٩٧.

ومن السمات الأسلوبية التي امتازت بها المراثي الأندلسية في عصري المرابطين والموحدين "المبالغة" وهي أن تبلغ بالمعنى أقصى غاياته، وأبعد نهاياته، ولا تقتصر في العبارة عنه أدنى منازله ، وأقرب مراتبه"[١].

وتتمثل المبالغة في رثائية ابن الأبار ، وذلك في قوله [٢]:

مَـــا للنُّجـــومِ طَوَالعـــاً؟ مَـــا للجِبَـــا ل رَوَاســـيا؟ مَـــا لِلْبِحَـــارِ طَـــوَامِي
لِمَ لَمْ تَغُر، لِـمَ لَـمْ تَـزلْ، لِـمَ لَـمْ تَغُـصْ مِـــنْ شِـــدَّة الحَـــسَرَات وَالآلامِ

وأظن أن مبالغة الشاعر السابق هي من المبالغات الممقوته ، والتي تنبئ عن قصور الشاعر أو أن ابن الأبار في المرثية السابقة ناظم يقول رثائه تصنعا، ويتكلف المعاني تكلفا.

وقد جاءت المبالغة حسنة المعنى، ظريفة العبارة تظهر حزنا حقيقيا على المرثية عند الحكيم الداني ، حين صوّر دموعه قد تحوّلت دما قانيا على قميصه ، وأنه لا يشتكي فقد الصباح، لأنه في ليل الأحزان المستمر ، يقول[٣]:

كَـــأَنّ جُفُـــوْني يَـــوْمَ أَودَعْتُـــكَ الثَّـــرى نَـــضَحنَ عَلـــى جَيْـــبِ القَمـــيصِ بِعَنْـــدَمِ
ومـــا اشْـــتَكـــي فَـــقْـــدَ الصَّـــباحِ لأنَّـــني لِـــفَقْـــدِكِ في لَـــيْلٍ مَـــدَى الـــدَّهْرِ مُظْلِمِ

ومن الأساليب الفــنية الواردة في هذه الدراسة **التأثر بالموروث الديني والمشرقي،** فالشعراء الأندلسيون لم يكونوا بمعزل عن التراث العربي ، لذلك نهلوا من القرآن الكريـــم ، وبدا تأثرهم بالكتاب العزيز واضحا جليا ، وقد بينا في هذه الدراسة بعض التأثر الواضح في القرآن كما جاء عند ابن حمديس رثاء أبيه ، وعند غيره من الشعراء[٤].

وكذلك ظهر تأثر ابن حمديس في ر ثائه للقائد عبد الغني الصقلي ، وهـو يـصور الجميـع متساوين في حكم الموت ، وذلك في قوله [٥]:

كَـــمْ مَلِيْـــكٍ وَســـوقة وَشُـــجاعٍ وَجَبَـــانٍ وَطَـــائعٍ وَعَـــصيّ
نَـــشَرهَمْ حَيَـــاقُم أَيّ نَـــشْرٍ وَطَـــواهُمْ حِمَـــامُهُمْ أَيَّ طَـــيّ

---

(١)العسكري، أبو هلال، **الصناعتين**، ص٤٠٣.

(٢) ابن الأبار، **الديوان**، ص٢٦٣.
(٣) الداني، الحكيم، **الديوان**، ص١٤٣.
(٤)انظرهذه الدراسة، ص١٢، ١٣، ٥٨،٦١، ٧٢، ٩٢.
(٥) ابن حمديس، **الديوان**، ص٥٢٦.

فَهُـــــم في حَـــــشا الـــــضَّريح سَـــــواءٌ   وَلَقَـــــد كَـــان ذا لـــــذا غَيْـــرَ ســـيّ

فقد تأثر ابن حمديس فيما سبق بالمتنبي الذي يقول [١]:

يمـــــوتُ راعي الضأنِ في جهله   مِيتـــةَ جَالِينوسَ في طِبِّه

ومن المهم أن نشير إلى ظاهر التضمين التي بدت واضحة عند بعض شعراء هذه الدراسة والتضمين كما يقول ابن رشيق" قصدك إلى البيت من الشعر أو القسيم فتأتي به آخر شعرك أو في وسطه كالمتمثل[٢] "

ومن أمثلة ذلك ما كان عند ابن الأبار، عندما جمع بين العزاء والتهنئة، متأسيا ومقتديا بأبي تمام في قوله [٣]:

كَنْـــــتُ الُمطيـــــلَ مُهَنِّئـــــاً وَمُعَزِّيـــــاً   لكِـــــن كَفَانيهَـــــا أبـــــو تَمَّـــــامِ
تِلـــــكَ الرَّزِيـــــةُ لا رَزِيَّـــــة مِثلـــــهَا   وَالقِـــــسْمُ لَـــــيسَ كَـــــسَائِرِ الأَقْـــــسَامِ

وظهر التضمين أيضًا عند ابن خفاجة في رثائه بلنسية ، وذلك في قوله في معرض الحديث عن الخراب ، والدمار اللذين غيرا ملامح مدينته الحبيبة [٤]:

كَتَبَـــتْ يَـــدُ الحَـــدَثَانِ فِي عَرَصَاتِهَا   "لا أَنْتِ أَنْتِ وَلا الدِّيَارُ دِيَار"

وهذا مأخوذ من أبي تمام ، وذلك في قوله[٥]:

لا أَنــتَ أَنتَ وَلا الــدِيــارُ دِيــارُ   خَـــــفَّ الهَـــوى وَتَـــوَلَّتِ الأَوطــــارُ

ونلحظ في التضمينين السابقين ، أن كلا الشاعرين ضمن من أبي تمام.

---

(١) المتنبي ، **الديوان**، ص٦٣.
(٢)القيرواني، **العمدة**، ص٨٤.

(٣)ابن الأبار، **الديوان**، ص٢٦٥.

(٤)ابن خفاجة ، **الديوان** ، ص ٣٥٤.

(٥) أبو تمام،حبيب بن أوس الطائي ت٢٣١هـ، **ديوان أبي تمام** ، فسر ألفاظه ووقف على طبعه، محيي الدين الخياط، د. ط المركز العربي للبحث والنشر ، ص١٤٤.

ومن أمثلة التضمين ما كان عند ابن أبي خلصة في رثاء بلنسية في الشطر الثاني [(١)]

لَــوْ أَنَّــهَا نَــطَقَــتْ قَالَــتْ لِفَقْــدِهُمُ "بَانَ الخَلِــيطُ وَلَمْ يَأوَوا لِمَن تَرَكُوا"

والتضمين السابق ، مأخوذ من قول زهير [(٢)]

بان الخليطُ ولم يأوَوا لِــمَنْ تــركوا وزودوك اشتياقا أيّةً سلكــوا

و من أمثلة استيحاء التراث المشرقي ما كان عند الحكيم أبي الصلت ، وهو يبرهن على أن حزن فقد الأحبة بالموت ، أكثر من حزن فقد الأحبة بالبُعد، وذلك عندما تحــول الظــروف دون أن يظفر الحبيب بمحبوبته ، وكان هذا عندما قارن بين جميل الذي أحب بثينــة ، ولــم يتزوجها فظل يعاني ويلات حب لم يكتب له أن يكلل بالزواج ، وويلات متمم الذي فقد أخــاه مالكا في حروب الردة ، فكان ذلك برهانا للشاعر في أن الحزن على مَن فُقِدَ أكثر ممن بَعُــدَ ، كما في قوله [(٣)]:

تَطُــــول ليــــالي العَاشــــقِينَ وَإِنَّمَــــا يَطُــولُ عَليــكَ اللَّيْــلُ مــا لَــمْ تُهَــوّمِ
وَمــا لَيْــلُ مَــنْ وارى التُــرابَ حَبِيْبُــهُ بِأَقْــصَر مِــن لَيْــلِ المُحِــبِّ المُتَــيَّمِ
فَكَــمْ بَــينَ راجٍ لِلإِيــابِ وَآيِــسٍ وَأَيْــنَ جَميــل فِــي الأَسَــى مِــنْ .مُــتَمّمِ

---

(١) الحميري، **صفة جزيرة الأندلس** ، ص٤٨.

(٢) زهير بن أبي سلمى، **الديوان ١٩٦٠**، تحقيق : كرم البستاني ،بيروت ــ دار صادر، د. ط، ص٦٠.

(٣) الداني، الحكيم، **الديوان**، ص١٤٣.

الصورة الفنية

الصورة الفنية خيال مبدع يُعتمَدُ في رسمه على مهارات متعددة في صياغة القول نابعة من أعمق المشاعر والأحاسيس الذاتية التي هي من واقع الحال الدافع الحقيقي في خلق هذه المهارات الفنية المميزة(١).

والصورة الفنية تكون في أبهى سماتها ، وأفضل تجلياتها إذا كانت مستمدة من الواقع الفني لها ، ويظهر هذا في المنهل الذي يمتح منه الشاعر المواد الأوليّة للصورة الفنية ، وهو يتناول الأغراض الشعرية المختلفة(٢). وقد جاءت الصورة الفنية عند شعراء هذه الدراسة مستوحاة من مظاهر الطبيعة الصامتة والصائتة ، ومن ذلك أنهم أشركوا الطبيعة في مصابهم ، وبكائهم ،و كذلك فقد حرص الشعراء في مراثيهم على صور تثير في نفوس قارئيها الحزن ، والحسرة ، فالرثاء يقال والأكباد تحترق ،ولا شك أن هذه الحرقة كانت عند ابن حمديس وهو يرثي والده، ومن الصور التي جاء بها قوله (٣):

فَحَمَّـــرَ مَـــا ابْـــيَضَّ مِـــنْ عَبْرَتِـــي وَبَـــيَّضَ لِمَّتِـــي الدَّاجِيَـــة
وَنُحْـــتُ كَثَكْلَـــى عَلَـــى ماجِـــدٍ وَلا مُـــسْعِدٌ لِـــي سِـــوَى القافِيَـــة

فقد برز اللون عنصرا أساسيا من عناصر الصورة الفنية عند الشعراء الأندلسيين ، ويتضح ذلك عند ابن حمديس في رثاء أبيه "فَحَمَّرَ مَا ابْيَضَّ مِنْ عَبْرَتِي " فالشاعر يبين أنه بكى دما بدلا من الدموع ، ثم عاد في الشطر الثاني إلى لمته ليبين أنها شابة من هول ما سمعت .

أما البيت الثاني فقد كانت الصورة البيانية فيه مباشرة، فابن حمديس يشبه نفسه الحزينه بالثكلى التي فقدت ولدها فهي تنوح عليه . والصورة في كلا البيتين تدل على قوة الشاعر، وبراعته في التصوير الفني.

أما الصورة الثانية التي جاء بها ابن حمديس في قوله(٤)

وَمَـــا خَـــمَـــدَتْ لَـــوعَـــةٌ تَلتَـــظي وَلا جَـــمُـــدَتْ عَـــبْـــرَةٌ جـــاريـــة

---

(١) الحلو، سلوى ، **نقد الصورة الفنية في شعر ابن خفاجة من الوجهة النفسية** ، رسالة دكتوراة غير منشورة ــ جامعة حلب ، إشراف عصام قصبجي ٢٠٠٢ ، ص١٣.
(٢) المصدر نفسه،ص١٤.
(٣) ابن حمديس، **الديوان**، ص٥٢٣.
(٤) المصدر نفسه، ص٥٢٤.

وهنا يشبه ابن حمديس لوعته بالنار التي لا تنطفئ ، ويشبه توقف دموعه بالجمود، وفي هذه الصورة يبرز ابنُ حمديس فيزيائيا، يحسن التصوير عندما شبه توقف الدمع بالجمود، وكثرة البكاء بالجريان.

وتبرز الصورة الفنية جلية عند ابن شكيل في قوله عندما فقد الأب والأخ [١]:

فَيَا لَكُمَا بَدْرَيْ عَلاءٍ تَساقَطَا ... وَكَانَا سَنَا عَيْنِي وأسْنَاهُمَا الأسَنْ
تَضَمَّنَ شَوَّالُ مَنَاياهُمَا مَعَاً ... فَبَيْنَهُمَا حَوْلٌ وَفَقْدُهُمَا قَرَنْ
تَلا فَقْدَ هَذَا فَقْدُ ذَا مُتَتَابِعَاً ... فَشَمْسٌ تَلَتْ بَدْرَاً وَأَصْلٌ تَلا غُصُنْ

وإذا ما توقفنا عند صور ابن شكيل نجده يشبه أباه وأخاه بالبدرين اللذين تساقطا تباعا، وتعبر هذه الصورة عن رفعة المرثيين، لذلك شبههما بالبدرين اللذين سقطا ، وفي هذا السقوط دلالة الموت غير المتوقع الذي فجع الشاعر بهذين العزيزين ، ثم عرج الشاعر على صورته الأولى مبينا أن موت الأب والأخ تباعا أشبه ما يكون بالشمس التي تتبع البدر، والأصل الذي يتلو الغصن ، ويدل هذا البيت على أن الأخ هو أول من مات ، ثم لحقه الأب.

ويمكن تشبيه الصورة بالمعادلة التالية

الأب = الشمس وهو الأصل وقد تبعه الأخ = البدر و هو الغصن.

(التابع) (المتبوع)

و تدل هذه الصورة المعبرة على شاعر حاذق، وماهر.

أما الداني فقد استطاع أن يقلب صورة المصلوب ، ويجعل منه رمزا للشموخ والعز ويبدو ذلك في قوله [٢]:

فَاضَتْ دُموعُكَ أَن قَاموُا بِأَعظُمِهِ ... وَقَد تَطَايرَ عَنْهُ اللَّحْمُ وَانتَشَرا
وَأَوْثَقُوهُ إِلَى شَمَّاءَ ماثلَةٍ ... يُنَكِّسُ الطَّرفَ عنهَا كُلُّ مَنْ نَظَرا
ضَاقَت بِهِ الأرضُ مِمَّا كَانَ حَمَّلَهَا ... مِن الأيَادي فَمَجَّتْ شِلْوَهُ ضَجَرا
وَعَزَّ إذ ذَاكَ أَنْ يَحْظَى بِهِ كَفَنٌ ... فَمَا تَسَرْبَلَ إلا الشَّمْسَ وَالقَمَرا

فالمقطوعة السابقة تحوي جملة من الصور الفنية البيانية من أبرزها، تشبيه كثرة الدموع وغزارتها على المرثي بالفيضان، وتشبيه اللحم الذي أخذ يتناقص من ضرب السياط بالشيء

---

(١) أحمد بن شكيل ، الديوان ، ص٨٢.

(٢) ابن سعيد، **اختصار القدح المعلى**، ص١٣٢.

الذي يتطاير ، وينتثر في الهواء ، وتصوير كرم المرثي وجوده وعظيم صفاته حتى أن الأرض ضاقت وصارت حائرة أين تضع هذا الجثمان الطاهر، وفي هذا التشبيه دلالة على كثرة الخيرات والأعمال الصالحة التي فعلها المرثي قبل أن ينال هذا المصير المأساوي ، ثم انتهت الصورة إلى أن الشمس والقمر هما من تكفلا بدفن المرثي ، وما هذا إلا لعلو مكانته، وعظيم إنجازاته.

وقد جاءت الصورة مقلوبة عند المعتمد في رثائه أبناءه ،ويظهر ذلك في قوله (١):

وَبَرْقٍ ذَكي النَّارِ حَتَّى كَأَنَّمَا   يُسَعَّرُ مِمَّا فِي فُؤادِي مِنَ الجَمْرِ

فالشاعر جعل البرق يستمد ناره من قلبه ، وتكشف هذه الصورة مدى حزن الشاعر ومصيبته، وثكله وتدل أيضا على الحرقة واللوعة والألم الذي يعاني منه الشاعر.

وكثيرا ما صور المعتمد في رثائه الغيم باكيا ، والقمرية نائحة ، والنجوم ، والزهرة يخمشن الوجوه، ويشققن الجيوب على مصيره المأساوي ، وما حل به وبعائلته من قتل وأسر وسجن . ونلحظ أن أغلب الصور عند المعتمد مستمدة من الطبيعة، وسبب ذلك أنه وحيد لا يرى إلا النجوم والغيوم والبدر والقمرية فأسقط ما في نفسه من ثكل وويل وحزن عليها ليرسم منها صوره الفنية .

أما أبو الربيع الموحدي فقد كانت له صورةٌ ذوقيةٌ في قوله (٢):

يَذُوقُ المَوْتَ مَنْ يَفقِد بَنِيهِ   لأَنَّ البَعْضَ في بَعْضِ القُبُورِ

وقد شبه أبو الربيع نفسَه تذوبُ أسى على فراق أخيه أبي حفص (٣):

فَإن ذبتُ صَبراً أَو أَسى ما عَلمتَني   عَلى أَحد إلا عَليك أذوب

وقد جاءت الصورة الفنية عند ابن الزقاق البلنسي في رثاء أخيه حسن مباشرة تعتمد على التشبيه المفرد، ومن ذلك قوله(٤):

فَرُحْتَ كَمَنْ راحَتْ بَنَانُ يَمينِهِ   عَنِ اليَدِ فَاعتَلَّتْ لِفُرْقَتِهَا اليَدُ
وَقَدْ كُنْتُ كَالعَذْبِ الزُلالِ (إِذَا صَفا)   فَلَمْ يَصْفُ لِي مذ غِبْتَ فِي اللَّحْدِ مَوْرِدُ

---

(١) المعتمد، **الديوان**، ص١٦٢.
(٢) الموحدي، أبو الربيع، **حياته**، ص١٠٦.
(٣)الجراري، عباس، **الأمير الشاعر، أبو الربيع سليمان الموحدي ، حياته وشعره** ،ص٢١٤.

(٤) البلنسي، ابن الزقاق، **الديوان**، ص١٥٠.

فالشاعر يشبه نفسه بعد موت أخيه باليد التي تفقد أصابعها، فتصير عالة عليلة، لا تقوى على القيام بما يوكل إليها من مهام . وفي البيت الذي يليه يعقد الشاعر مقارنة بين ما كان عليه، وما صار فيه، فقد كان كالماء العذب الصافي ، وبعد أن ظفر الموت بأخيه تعكّر مورده ، وفي هذا دلالة على أن غياب الأخ ترك أثرا واضحا على الشاعر.

ومن الصور التي جاء بها ابن الزقاق، وهو يرثي أخاه "حسناً" ، تصويره الموت جاثياً أمام الميت(١):

وَلَمْ أَنْسَهُ وَالمَوْتُ جَاثٍ أَمَامَهُ وَعَامِلُهُ ذَلْقُ الغِرارِ مُسَدِّد

فالشاعر في هذه الصورة يجعل الموت يستأذن الميت في أخذ روحه ، وقد يكون السبب الذي جعل الشاعر يأتي بهذه الصورة هو المرض الذي كان يلازم المرثي.

أما ابن خفاجة فقد جاءت الصورة الفنية عنده في غالبها مستمدة من الطبيعة، ومن أمثلة ذلك ما قاله في رثاء ابن أخته(٢):

وَإِنِّي إِذا ما اللَيْلُ جَاءَ بِفَحْمَةٍ لأُورِي زِنادَ الهَمِّ فِيهَا فَأَقْدَحُ

فالشاعر فيما سبق ، يستمد صورة الليل من اللون ، فقد جعل الليل يجيء بفحمه الأسود وتعد الصورة اللونية عند ابن خفاجة في البيت السابق صورة تعتمد على المعنيين : المادي والمعنوي، أما المادي فقد أخذ الشاعر مادته من الواقع، فالفحم والليل يشتركان في اللون الأسود، وأما المعنوي فلا شك أن اللون الأسود يدل على البؤس والحزن، اللذين يعانيهما الشاعر عندما حل الموت بقريبه.

وقد صور ابن خفاجة نفسه، وهو يعاني غياب قريبه بالغريق ، وهو لا يغرق في بحر من الماء، بل في بحر من الدمع ، والهم ،وتبين هذه الصورة نفسية محطمة، وحزنا وحيرة تسيطر على الشاعر ، وهو ينظم هذه المرثية (٣):

وَلَو كَانَ بَحْرًا وَاحِدًا كُنْتُ أَسْبَحُ غَرِيْقَاً بِبحرِ الدَّمعِ وَالهَمِّ وَالدُّجَى

(١)البلنسي، ابن الزقاق، **الديوان**، ص١٥٣.

(٢) ابن خفاجة، **الديوان**، ص٢٦٨.

(٣) المصدر نفسه ، ص٢٦٨

وقد أجاد ابن خفاجة في الصور الفنية السمعية ، ومن ذلك ما جاء عنده في رثاء والدة الفقيه أبي أمية [١]:

وَاقــرَع لَهــا بــابَ الــسَماءِ بِــدَعوَةٍ تَــستَمطِرُ الخَــضراءَ لِلغَــبراءِ
حَتّــى تَجــودُ بِكُــلِّ عــارِضِ رَحمَــةٍ تَستَــضحِكُ الأَنــوارَ لِلأَنــواءِ
زَجِــل الرُعــودِ كَأَنَّمــا مَــسَحَت بِــهِ كَــفُّ الــصَبا عَــن ناقَــةٍ عــشراءِ

فالصور الفنية في الأبيات السابقة تعتمد على الصور الحسية السماعية ، فالشاعر يطلب أن تبلغ دعوة الابن لأمه باب السماء، فينزل الغيث، وتخضر الأرض، و يدوي صوت الرعد كالناقة العشراء ، التي تصدر صوت حنينها لصغيرها.

وبرزت الصورة الفنية الشمية واضحة جلية عند ابن حمديس ، وهو يشبه الأم بحنانها بالناقة الرؤوم الحنون التي تعرف صغيرها من رائحة ثم تعطف عليه وترضعه ، وفي ذلك يقول[٢]:

بِحَنــانٍ كَأَنَّهَــا فِــي رِضَــاعِي أُمُّ سَــقْبٍ دَرَّتْ عَليــهِ بِــشَمِّ

ومن الصور الفنية المستمدة من الطبيعة تصوير الميت بالبدر، والموت بالمحاق وقد وردت هذه الصورة عند ابن حمديس [٣]:

وأَقُــول بَــدْراً دَبَّ فيــه مُحاقُــهُ إنَّ الكَمَــالَ إلَيْــهِ غَــيرَ مُعــادِ

ومن الصور الفنية التي جاءت عند ابن حمديس، تصويره نفسه وقد كبرت سنه ولم يقو على المشي الطبيعي دون الحاجة إلى العصا، بالكسير، ثم يبين الشاعر أنه لم يعد يقوى على دفع الأذى الذي يلاقيه فهو في خوف دائم من الموت الذي يصوره الشاعر عاديا عليه . ثم يصور نفسه ، بالروضة التي تذبل ويدل الذبول على اقتراب الأجل، ونستشف من هذا التشبيه أن

---

(١)ابن خفاجة، **الديوان**، ص٢٧٤.
(٢) ابن حمديس، **الديوان** ، ص٤٧٧.
(٣) المصدر نفسه، ص١٢١.

الشاعر ينتظر أجله ، ويعلم أن عمره يتناقص، ويستعد للموت [١].

أَنَــا فِــي الثَّمــانينَ الَّتــي فَتلَــت بِهَــا قَيْــدي الزَّمَانَــةُ، عِنْــدَ ذُلِّ قِيَــادي
أمْــشِي دَبِيبــاً كَالكَــسيرِ وَأَتَّقــي وَثْبَــاً عَلــيّ مِــن الحِمَــامِ العَــادي
ذَبُلَــتْ مِــن الآدابِ رَوْضَــتِي الَّتــي جُلِبَــتْ نَــضَارَتُها عَلَــى الــرُّوادِ

أما الحكيم الداني ، فيشبه كثرة قبور أحبابه ، وخلانه، وصحبه بكثرة أشجانه ، ويدل هذا التشبيه على الهموم التي يعانيها الشاعر، و أن هاجس الموت يزيد الهموم على الشاعر . يقول[٢]:

فَقَــدْ كَثُــرَتْ فِــي كُــلِّ أَرْضٍ قُبُــورُهُم كَكَثْــرَةِ أَشْــجاني وَلَهْفــي عَلَــيهم
ومــا تِلْــكَ لَــو تَــدْرِي قبُــورُ أَحبّــةٍ وَلَكِنّهــا حَقّــاً مَــساقط أَنجُــمِ

ويحمل هذا التصوير حزن الداني على أمه التي فارقته، وبقاء الشاعر يكابد لوعته.

ومن الصور الفنية التي تدل على قوة الشعراء الأندلسين ، وتدل على الصدق الفني الممزوج بالخوف من الموت الذي ينتظر أبا جعفر بن عطية، قوله [٣]:

فَعَفْــواً أَمــير المُــؤمنِينَ، فَحَــقَّ لَنَــا بِــرَدِّ قُلُــوبٍ هَــدَّهَا الخَفَقَــانِ

فالشاعر السابق يصور قلبه قد هُدَّ من كثرة خفقانه، ونلمح في هذه الصورة الذعر، والرعب اللذين يعانيهما الشاعر .

أما قول الشاعر نفسه [٤]:

وَصِــبيةٍ كَفِــراخِ الــوُرْقِ مِــنْ صِــغَرٍ لَــمْ يَــأْلَفُوا النَّــوحَ فِــي فَــرْعٍ وَلا فَــنَنِ
قَــد أَوجَــدهُم أَيَــادٍ منــك ســابِغةٍ وَالكُــلُّ لَــولاكَ لَــمْ يُوجَــدْ وَلَــمْ يَكُــنِ

ويبدو أن الشاعر في تصويره السابق لأولاده بفراخ الورق، متأثر بالحطيئة عندما مدح عمر بن الخطاب ، واستعطفه بأبنائه ، وذلك بقوله[١]:

---

(١) ابن حمديس ، **الديوان** ، ص١٢٤.
(٢) الداني، الحكيم، **الديوان**، ص١٤٢.
(٣) المقري، **نفح الطيب**، ج٥، ص١٨٥.
(٤) المقري، نفح الطيب، ج٥، ص١٨٦.

مــاذا تَــقــولُ لأَفــراخٍ بِــذي مَــرَخٍ حُــمــرِ الحَــواصِــلِ لا مــاءٌ وَلا شَــجَــرُ

أَلــقَــيتَ كــاسِبَــهُم في قَــعــرِ مُــظلِــمَةٍ فَاغــفِر عَــلَيكَ سَــلامُ اللَهِ يــا عُــمَــرُ

وأظن أن الشاعر في تشبيهه السابق أراد أن يشبه ممدوحه بعمر بن الخطاب ، فينال العفو كما ناله الحطيئة، ولكن هذه الصورة لم تؤت أكلها ، فليس عبد المؤمن الفاروق.

ومن الصور التي جاءت عند أبي جعفر وهو في سجنه ، قوله:[٢]

أَنُــوحُ عَلَــى نَفــسِي أَم أَنْتَظِــرُ الــصَّفحَا فَقَــد آنَ أَن تُنــسَى الــذُنُوبُ، وَأَنْ تُمحَــى

فَهَــا أَنَــا فِــي لَيــلٍ مِــن الــسُّخْطِ حَــائرٌ وَلا أَهْتَــدي حَتَّــى أَرى للرِّضَــا صُــبحَا

ويطل علينا البيت الثاني في صورة فنية رائعة فريدة ، وهي تصوير الشاعر السخط الــذي حل به بالليل، وتصويره للرضا الذي يرتجيه ويتشوق إليه بالصبح.

وتظهر الصورة الفنية ما يختلج في نفس الشاعر من مشاعر القلق والاضطراب ،

وفي رثاء المدن برز التصوير الواقعي سمة مميزة لهذا اللون من الرثاء ، وظهرت هذه السمة عند الشاعر هــارون بن موســى ، وهــو يصف أسباب هــزيمة المسلمين، وانتصار النصارى.

يقول في ذلك[٣]:

ثَارَتْ حَــفَائظُ للتــثّليثِ فَــابْتَدَرُوا وَأَيْقَــظُوا مِــن سِنَاتِ الغَفْلَــةِ الهِــمَمَا

وَأَنْشَــرُوا مــيِّتَ الأَحْقَــادِ بَيْنَهُمُ وَلَــو أَطَاقُــوا لَعَمْرِي أَنْشَــرُوا الرِّمَمَا

وَيَمَّمُــوا حِمْصَ فِي جَــمْعٍ يَضِيقُ بِهِ ذَرْعُ الفَــضَاءِ فَسَــوَّى الوَهْد وَالأَكَمَا

فالصورة الفنية السابقة هي صورة للواقع الذي كان سببا في ضياع الأندلس ، فيصف الشاعــر أهــل التثليث أنهم ثائرون ،يحثون بعضهم على قتال المسلمين وهذه دلالة حقيقية واقعية، ثم بين أنهم أنشــروا أحقادهم الدفينة ، وحــاولوا جمع أكبر ما يمكن جمعه من

---

(١)الحطيئة ،جرول بن أوس بن مالك العبسي ت ٤٥هـ، **(الديوان١٩٩٢)**، ط١ شرح يوسف عيد، دار الجيل ــ بيروت، ص١٠١.

(٢) المقري، **نفح الطيب**، ج٥، ص١٨٦.

(٣)البيان المغرب ، ج٣ / ٣٨٢.

الجند وحاصـــروا إشبيلية وشددوا الخناق عليها ، وقد صور الشاعر هنا الأعداء تفتح أفواهها، تريد أرواح المسلمين، يقول في ذلك:

وَقَــدْ أَحَــاطَتْ بِنَا الأعْــدَاءُ فَاغِــرَةً أَفْــوَاهَها تَبْتَغِي أَرْوَاحَــنا طُعْمَا

أما ابن الأبار فقد صور البلاد قد تنجست من أدران النصارى ، وصور الحفصي ، مطهرا للبلاد من نجاستهم، وفي هذا يقول[١] :

طَهِّــر بِــلادَكَ مِــنْهُم إِنَّــهم نَجَــسٌ ولا طَــهَارة مَــا لَــمْ تَغسِــلْ النَّجَسَا

فالصورة الفنية السابقة يظهر فيها قدرة ابن الأبار على التصوير الشنيع الفظيع مما حل بمدن الأندلس لذلك لجأ الشاعر لمثل هذه الصورة ليبين فيها خطورة الأمر وفداحته .

وهكذا بتضح لنا أن التشبيهات والصور الفنية التي جاءت في هذه الدراسة مستمدة من الطبيعة الأندلسية ، من جانب ، ومن جانب آخر كانت تقليدية تنبئ عن تأثر الأندلسي بالمشرقي.

---

(١) ابن الأبار، **الديوان** ، ص٤١٢.

الخـــــاتمـــــة

حاولت هذه الدراسة أن تعطي صورة واضحة للرثاء في الشعر الأندلسي ، في عصري المرابطين والموحدين ، فخرجت بالنتاجات الآتية:

أولاً: نظم الشعراء رثائياتهم في الأقارب ، والأباعد ، والنفس والأصدقاء ، والملوك والمدن ، والجواري ، فتفاوتت تلك الرثائيات من شاعر لآخـــر ، حـــسب التجربـــة والموهبة ، وعلاقة الشاعر بالمرثي ، فمنهم من كانت قـــصائده مـــوّارةً بالعاطفـــة صادقة في التعبير يظهر فيها حزناً حقيقياً على الفقيد ، ومنهم من كانـــت قـــصائده واضحة الصنعة ، بينة التكلف.

ثانياً : أشرك الشعراء الأندلسيون الطبيعة الصائتة والصامتة في مراثيهم ، فكثيراً ما أسقط الشعراء أحزانهم عليها ، وبكوا مصابهم لها .
ثالثاً : تأثر الشعراء الأندلسيون في هذه الدراسة بالتراث العربي المشرقي ، وظهر التأثر الواضح بالقرآن الكريم ، والمعاني الإسلامية النبيلة .

رابعاً : أبدع الأندلسيون في رثاء المدن ، وظهر في هذا اللون من الرثاء إخـــلاص الأندلسي لمدينته ، وإلى جزيرته عموماً، وقد أجاد الشعراء في تصوير المأساة التي حلّت بالمسلمين ، ووقفوا على أسبابها ووضحوا سبيل الخلاص منها ، وذلـــك فـــي العودة للدين الإسلامي ، والوحدة العربية الإسلامية.

خامساً : كانت الصور الفنية في معظمها تقليدية ، فيها حـــضور واضـــح للتـــراث العربي المشرقي ، وإن بدا هنالك بعض ملامح التجديد والابتكار عند بعض الشعراء وأخيراً : نلحظ أن الألفاظ في مجملها سهلة سلسلة، ليس فيها كثير مـــن التعقيـــد ، ولعل هذا يعود إلى البيئة الأندلسية.

ثبت المصادر والمراجع:

- القرآن الكريم

- ابن الأبار، أبو عبد الله محمد بن عبد الله القضاعي البلنسي ، ت٦٥٨هـ :(**الحلة السيراء١٩٨٥)** ،تحقيق حسين مؤنس ، ط٢، دار المعارف : القاهرة .
- ابن الأبار، **(ديوان ابن الأبار١٩٨٥)**. (قراءة وتعليق الدكتور عبد السلام الهراس)،د.ط فاس: الدار التونسية للنشر .
- ابن الأبار **(المقتضب من كتاب تحفة القادم١٩٨٩ م)** ، تحقيق: إبراهيم الابياري، ط٣، دار الكتب المصرية : القاهرة.
- ابن الأثير، ضياء الدين نصر الله بن محمد بن محمد بن عبد الكريم (ت٦٢٧هـ) **المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر** ،د.ط، تحقيق: محمد محيي الدين عبد الحميد ، المكتبة المصرية : بيروت .
- ابن الأثير، عز الدين أبو الحسن علي بن أبي الكرم محمد بن محمد الشيباني (٥٥٥-٦٣٠هـ). **الكامل في التاريخ**. (تحقيق: خليل مأمون شيحا)، د.ط،: دار المعرفة: بيروت.
- الأسدي، بشر بن أبي خازم، (١٩٧٢). **الديوان**. (تحقيق: عزة حسن)، (ط٢)، منشورات وزارة الثقافة: دمشق.
- ابن سهل، (ت: ٦٠٩هـ/١٢١٢م-٦٤٩هـ/١٢٥١م)، (١٩٨٥). **ديوان ابن سهل الإسرائيلي**. (جمعه وحققه وقدم له محمد قوبعة)،د.ط، منشورات الجامعة التونسية: تونس.
- الأسعد، عمر، (١٩٩٥). **ديوان رثاء الأزواج في الشعر العربي**. (ط١)، دار سبيل الرشاد- بيروت.
- أشباخ، يوسف، (١٩٥٨). **تاريخ الأندلس في عهد المرابطين والموحدين**. (ترجمه ووضع حواشيه محمد عبد الله عنان)، (ط٢)، مؤسسة الخانجي: القاهرة.
- الأصفهاني (علي بن الحسين ت ٣٥٦هـ) **الأغاني** ، تحقيق : عبد السلام هارون، دار إحياء التراث : بيروت لبنان ،

- الأصفهاني، عماد الدين ، **خريدة القصر وجريدة أهل العصر**١٩٦٤م ، القسم الرابع، ج٢، تحقيق: عمر الدسوقي، وعلي عبد العظيم، دارنهضة مصر للطباعة والنشر ، الفجالة: القاهرة.
- بالنثيا، آنجل غونثاليث ، **تاريخ الفكر الأندلسي١٩٩٠**، ترجمة حسين مؤنس ، مكتبة الثقافة الدينية.
- السبتي ،ابن بدرون أبو القاسم ،عبد الملك بن عبد الله بن بدرون الحضرمي،ت٦٠٨هـ: **شرح قصيدة ابن عبدون (البسامة)١٩٢١** الطبعة الأولى ــ الناشر:محيي الدين صبري الكردي:القاهرة .
- بكار، يوسف ، بناء القصيدة العربية (١٩٧٩)،دار الثقافة للطباعة والنشر ، القاهرة.
- البلنسي، ابن الزقاق، ( ). **الديوان**. (تحقيق: عفيفة محمود ديراني)،د.ط، دار الثقافة : بيروت.
- البلنسي، الحافظ أبو عبد الله محمد بن عبد الله بن أبي بكر القضاعي، (د.ت). **التكملة في كتاب الصلة**.
- بوتشيش، إبراهيم القادري١٩٩٣، **المغرب والأندلس في عصر المرابطين، د.ط ،دار الطليعة : بيروت .**
- البيومي، محمد رجب ، **رثاء المدن بين الأندلس والمشارقة** ، مجلة الأديب ، الجزء الخامس ، مايو١٩٦٥.
- **تاريخ الدولة العباسية ، وما رافقها من الممالك١٩٩٨**، القسم الثاني ، خلاصة تاريخ ابن كثير للقاضي محمد بن أحمد بن كنعان ، مؤسسة الرسالة بيروت .
- التجيبي، أبو بحر صفوان بن إدريس (١٩٧٠)، **زاد المسافر وغرة محيّا الأدب السافر**. (أعدّه وعلق عليه عبد القادر محداد) دار الرائد العربي: بيروت.
- الترمذي، أبو عيسى محمد بن عيسى ت٢٧٩هـ **(جامع الترمذي١٩٩٩)**، دار السلام للنشر والتوزيع: الرياض.
- التطيلي، الأعمى، (ت: ٥٢٥هـ). **ديوان الأعمى التطيلي ومجموعة من موشحاته**. (تحقيق إحسان عباس)، (ط١)، بيروت: دار الثقافة.
- أبو تمام،حبيب بن أوس الطائي ت٢٣١هـ، **ديوان أبي تمام** ، فسر ألفاظه ووقف على طبعه، محيي الدين الخياط، المركز العربي للبحث والنشر:القاهرة.

- ابن جبير، أبو الحسين محمد بن أحمد الكناني ت ٦١٤هـ ،**شعر ابن جبير١٩٩١**. (جمع وتحقيق فوزي الخطبا)، منشورات دار الينابيع للنشر والتوزيع: عمان.
- الجراري ، عباس ،الأمير الشاعر أبو الربيع سليمان الموحدي، عصره ، حياته وشعره(١٩٨٤)، ط٢،دار الثقافة : الدار البيضاء.
- ابن حنبل، أحمد بن محمد، **المسند ١٩٩٥**،تحقيق: أحمد محمد شاكر وحمزة أحمد الزين، الطبعة الأولى ،دار الحديث: القاهرة
- أبو حسين، محمد صبحي، (٢٠٠٣). **صورة المرأة في الأدب الأندلسي "في عصر الطوائف والمرابطين"** عالم الكتب الحديث :إربد.
- الحطيئة ،جرول بن أوس بن مالك العبسي ت ٤٥هـ، **(الديوان١٩٩٢)**، ط١ شرح يوسف عيد، دار الجيل : بيروت .
- الحلو، سلوى ، **نقد الصورة الفنية في شعر ابن خفاجة من الوجهة النفسية٢٠٠٢** ، رسالة دكتوراة غير منشورةـ جامعة حلب ، إشراف عصام قصبجي.
- ابن حمديس، (١٩٦٠). **الديوان**، (صححه وقدم له: إحسان عباس)، دار صادر: بيروت.
- الحميري، أبو عبد الله محمد بن عبد الله بن عبد المنعم ت٩٠٠هـ ، (١٩٨٨). **صفة جزيرة الأندلس، منتخب من كتاب الروض المعطار في خير الأوطار**، دار الجيل: بيروت.
- ابن خاقان، أبونصر الفتح بن محمد بن عبيد الله، (المتوفى سنة ٥٢٩هـ)، (١٩٨٣). **مطمح الأنفس ومسرح التأنس في ملح أهل الأندلس**. (تحقيق محمد علي شوابكة)، (ط١)، مؤسسة الرسالة: بيروت.
- ابن خاقان، (١٩٨٩). **قلائد العقيان ومحاسن الأعيان**. (تحقيق: حسين يونس خريوش، الطبعة الأولى، مكتبة المنار : الزرقاء.
- خالص، صلاح، (١٩٦٥). **إشبيلية في القرن الخامس الهجري**، دار الثقافة:بيروت.
- خريوش ، حسين يوسف (١٩٧٣) **الرثاء في الأدب الأندلسي** ، رسالة ماجستير ، جامعة القاهرة ـ كلية الآداب .

- خريوش ، حسين يوسف (١٩٨٠) **دراسة الجانب الفني في المرثية الأندلسية** ، المعرفة (٢١٦) .
- ابن الخطيب، لسان الدين، أبو عبد الله محمد بن عبد الله ت٧٧٦هـ ، **الإحاطة في أخبار غرناطة ١٩٧٧**، تحقيق: محمد عبدالله عنان ط١، مكتبة الخانجي : القاهرة.
- ابن الخطيب، لسان الدين، (٢٠٠٤). **(أعمال الإعلام فيمن بويع قبل الاحتلال من ملوك الإسلام)**. (تحقيق وتعليق: ليفي بروفنسال)، (ط١)، مكتبة الثقافة الدينية: القاهرة.
- ابن خفاجة، أبو إسحق إبراهيم بن أبي الفتح بن عبد الله الأندلسي ت٥٣٣هـ،. **الديوان**(١٩٧٩). (تحقيق السيد مصطفى غازي) دار المعارف: الإسكندرية.
- ابن خلدون، عبد الرحمن بن محمد، ت٨٠٨هـ. **تاريخ ابن خلدون**(١٩٩٩). ج٦، تحقيق: تركي فرحان المصطفى، دار إحياء التراث العربي: بيروت.
- ابن خلكان، أبو العباس شمس الدين أحمد بن محمد (ت: ٦٨١هـ)،. **وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان**(١٩٧٨)، تحقيق: إحسان عباس، دار صادر: بيروت.
- الخليل : بن أحمد ، (ت١٧٠هـ/٧٨٦م). **كتاب العين**، تحقيق مهدي المخزومي، وإبراهيم السامرائي)دار مكتبة الهلال.
- ابن خميس، أبو بكر محمد بن علي، (ت: ٦٣٩هـ)، **أدباء مالقة، المسمى مطلع الأنوار ونزهة البصائر والأبصار فيما احتوت عليه مالقة من الأعلام والرؤساء والأخيار، وتقييد ما لهم من المناقب والآثار(١٩٩٩)**. (حققه وقدم له صلاح جرار)، (ط١)، دار البشير : عمان.
- الخنساء (تماضر بنت عمرو بن الحارث بن عمرو الشريد السلمية ت ٢٤هـ) **الديوان**١٩٨٨، شرحه ثعلب أبو العباس ، أحمد بن يحيى بن سيار الشيباني النحوي الطبعة الأولى ،ت ٢٩١هـ ، تحقيق : أنور أبو سويلم ـ جامعة مؤتة ـ دار عمار: عمان.
- الداني، أبو الصلت أمية بن عبد العزيز، (ت: ٥٢٩هـ). **ديوان الحكيم أبي الصلت أمية بن عبد العزيز١٩٧٩**، (جمع وتقديم محمد المرزوقي)، (ط٣)، دار بوسلامة للطباعة والنشر: تونس.
- الداية، محمد رضوان، (٢٠٠٠). **في الأدب الأندلسي**. دار الفكرالمعاصر–بيروت.

- الدغلي، محمد سعيد(١٩٨٤)، **الحياة الاجتماعية في الأندلس وأثرها في الأدب العربي الحديث وفي الأدب الأندلسي**، دار أسامة:دمشق.
- رحيم، مقداد٢٠٠٧، **رثاء النفس في الشعر الأندلسي**،الطبعة الأولى،دار جهينة: عمان.
- ابن رشيق ، أبو الحسن بن رشيق القيرواني (ت: ٤٦٥ هـ)، **العمدة في محاسن الشعر وآدابه** (١٩٨٨)، (تحقيق : محمد قرمزان)، الطبعة الأولى- دار المعرفة: بيروت.
- الرصافي البلنسي، أبو عبد الله محمد بن عابد (ت: ٥٧٢هـ)، **ديوان الرصافي البلنسي(١٩٨٣)**، (جمعه وقدّم له إحسان عباس) دار الشروق: بيروت .
- الرقب، شفيق محمد، **شعر الجهاد في عصر الموحدين** (١٩٨٤) مكتبة الأقصى : عمان.
- الرندي ، أبو البقاء صالح بن شريف (ت ٤٦٨هـ) . **الوافي في نظم القوافي** ، تونس: دار الكتب الوطنية ، رقم :١٨٠٧٧ مركز الوثائق والمخطوطات ــ الجامعة الأردنية ، رقم ٩٦٥. (صورة بالميكرو فيلم) .
- ابن الرومي،أبو الحسن علي بن العباس ، **الديوان(١٩٩١)**، شرح وتعليق: عبد الأمير علي مهنا ، مج٦ ، منشورات دار مكتبة الهلال : بيروت .
- زهير بن أبي سلمى، **الديوان ١٩٦٠**، تحقيق : كرم البستاني ،دار صادر ــ بيروت.
- سطاني ، الجيلاني:(**اتجاهات الشعر في عصر المرابطين بالمغرب والاندلس١٩٨٧**)جامعة دمشق، كلية الآداب ، رسالة ماجستير غير منشورة ، إشراف محمد رضوان الداية- دمشق.
- السعودي، نزار جبريل، (٢٠٠٥). **رثاء المرأة في الشعر الأندلسي**. رسالة ماجستير غير منشورة، إشراف الدكتور : صلاح جرار، الجامعة الأردنية، عمّان- الأردن.
- ابن سعيد، أبو الحسن علي بن موسى، (ت:٦٨٥هـ)، (١٩٥٩). **اختصار القدح المعلى في التاريخ المحلى**(١٩٥٩). (اختصره: محمد بن عبد الملك بن خليل)، (تحقيق إبراهيم الأبياري) الهيئة العامة لشؤون المطابع الأميرية:القاهرة.
- السعيد، محمد مجيد، (١٩٨٠). **الشعر في عهد المرابطين والموحدين بالأندلس**. دار الرشيد للنشر:بغداد.

- أبو سويلم ، أنور : **مرثاة الخنساء الإنسانية** ، مجلة أبحاث اليرموك ١٩٨١.
- الشنتريني،ابن بسام أبو الحسن علي (ت٥٤٢هـ) **الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة.** (تحقيق سالم مصطفى البدري)، (الطبعة الأولى) دار الكتب العلمية: بيروت .
- ابن شكيل، أبو العباس أحمد، (١٩٩٨). **شاعر شريش**، (تقديم وتحقيق حياة قارة)، (الطبعة الأولى) المجمع الثقافي: أبو ظبي.
- شلبي، سعد إسماعيل١٩٧٨، **البيئة الأندلسية وأثرها في الشعر**، دار نهضة مصر للطباعة والنشر: القاهرة.
- شيخه، جمعه (**الفتن والحروب وأثرها في الشعر الأندلسي ١٩٩٤**) ط١ ، ج١ و ج٢. المطبعة المغاربية للطباعة والنشر: تونس.
- أبو صالح، وائل، (١٩٨٥). **الجواري في الأندلس**. منشورات دار القلم : رام الله.
- الصفدي ، صلاح الدين خليل بن أيبك، ت٧٦٤هـ، **الوافي بالوفيات ٢٠٠٠** ، تحقيق: أحمد الأرناؤوط ، تركي مصطفى ، الطبعة الأولى- دار إحياء التراث العربي: بيروت .
- الضبعي، المتلمس جرير بن عبد المسيح ت٥٠ق.هـ،. الديوان(١٩٨٨)، رواية الأثرم وأبي عبيدة عن الأصمعي. (تحقيق: محمد التنوخي)، (ط١)، دار صادر: بيروت.
- الضبي (أبو العباس المفضل بن محمد ت١٦٨هـ) **ديوان المفضليات**، شرحه : أبو محمد القاسم بن محمد بن بشار الأنباري ، مطبعة الآباء اليسوعيين ــ بيروت .
- ضيف ، شوقي ، **تاريخ الأدب العربي ، عصر الدول والإمارات الأندلس** ، الطبعة الثالثة ، دار المعارف ــ القاهرة.
- ضيف ، شوقي ، **في النقد الأدبي** ، ط٩، دار المعارف.
- الطاووسي، محمد إبراهيم، (١٩٩٨). **رمز الفقد في يائية مالك بن الريب: دراسة نصية**، مكتبة زهرة الشرق: القاهرة.
- الطريفي ، يوسف عطا(**شعراء العرب في المغرب والأندلس ٢٠٠٧**) الأهلية للنشر والتوزيع: عمان .
- عباس، إحسان، (١٩٧٤). **تاريخ الأدب الأندلسي عصر الطوائف والمرابطين**. (ط٣)، دار الثقافة :بيروت .

- عباس، إحسان، (٢٠٠١). **دراسة في الرحالة ابن جبير الأندلسي البلنسي الكناني، وآثاره الشعرية والنثرية**. (ط١) دار الغرب الإسلامي: بيروت.

- عباس، فضل حسن ، البلاغة فنونها وأفنانها(٢٠٠٠) ، علم المعاني ، ط٧، دار الفرقان للنشر والتوزيع: عمان.
- عبد الكريم، مصطفى، (١٩٦٨). **الأدب الأندلسي في عهد المرابطين**. جامعة الخرطوم: الخرطوم.
- ابن عبد ربه : (**العقد الفريد١٩٩٩**) ،أحمد بن محمد ت٣٢٨هـ ،الطبعة الثالثة– دار إحياء التراث : بيروت .
- العبداللات، فاطمة مفلح، شعر الرثاء في الأندلس في ظل بني الأحمر(٢٠٠٢) رسالة ماجستير غير منشورة، إشراف : حمدي منصور ، الجامعة الأردنية– عمان.
- عصمت دندش، (١٤٢٥هـ). من مظاهر الحياة الاجتماعية بالأندلس: "طقوس الجنائز"، مجلة دراسات أندلسية، (١٣).
- عيد ، يوسف: **الشعر الأندلسي وصدى النكبات** ٢٠٠٢، ط١، دار الفكر العربي: بيروت .
- عيسى، فوزي، (٢٠٠٧). **الشعر الأندلسي في عصر الموحدين**. (ط١)، دار الوفاء: القاهرة.
- ابن قتيبة، أبو محمد عبد الله بن مسلم الدينوري ت٢٧٦هـ (**الشعر والشعراء**) ، حققه: مفيد قميحة، دار الكتب العلمية: بيروت.
- قدامة بن جعفر، (١٣٠٢هـ). **نقد الشعر**. (ط١). مطبعة الجوائب: القسطنطينية.
- القرطاجني (أبو الحسن حازم بن محمد ت ٦٨٤هـ) **قصائد ومقطعات١٩٧٢** ، تقديم وتحقيق محمد الحبيب الخوجة ، الدار التونسية للنشر: تونس.
- القرطاجني، حازم ت ٦٨٤هـ ، (**منهاج البلغاء وسراج الأدباء ١٩٨٦م**)، تحقيق: محمد الحبيب الخوجة الطبعة الثالثة، دار الغرب الإسلامي : بيروت.
- ابن اللبانة، أبو بكر محمد بن عيسى (ت: ٥٠٧)، (**الديوان٢٠٠١**). تحقيق: منجد مصطفى بهجت، الجامعة الإسلامية : ماليزيا.

- لهي، ثريا، أبو الربيع سليمان بن موسى بن سالم الكلاعي: حياته وآثاره، (١٩٩٤). وزارة الأوقاف والشؤون والمقدسات الإسلامية: الرباط.
- المبرد ، أبو العباس محمد بن يزيد (٢٨٦هـ). **التعازي والمراثي والمواعظ والوصايا والحكم**١٩٩٣ ، تقديم وتحقيق: محمد إبراهيم الجمل) ،دار نهضة مصر للطباعة والتوزيع والنشر: القاهرة.
- المتنبي، أبو الطيب أحمد بن الحسين ، (د.ت). **شرح ديوان المتنبي**. منشورات دار مكتبة الحياة: بيروت.
- محمد بن شريفة، (١٩٩٩)، **أبو بحر التجيبي أديب الأندلس، (ت: ٥٩٨هـ) عمر قصير وعطاء غزير**، الطبعة الأولى، مطبعة النجاح الجديدة: الرباط.
- محمد، عبد الرحمن حسين١٩٨٣م ، **رثاء المدن والممالك الزائلة في الشعر العربي حتى سقوط غرناطة** ، الطبعة الأولى ــ القاهرة .
- محمود، حسن أحمد، ( ). **قيام دولة المرابطين صفحة مشرقة من تاريخ المغرب في العصور الوسطى**. دار الفكر العربي : بيروت .
- مخيمر، صالح (). **رثاء الأبناء في الشعر العربي**، مكتبة المنار: الزرقاء.
- ابن عبد الملك المراكشي ،ابن عذاري أبو عبد الله أحمد بن محمد ت ٦٩٥هـ،. **البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب (١٩٨٥)، (قسم الموحدين)** ، ط١، تحقيق محمد إبراهيم الكتاني وآخرون، دار الغرب الإسلامي : بيروت.
- ابن عبد الملك المراكشي، (١٩٨٣). **البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب.** (تحقيق ومراجعة إحسان عباس)، (ط٣)، دار الثقافة: بيروت.
- ابن عبد الملك المراكشي (١٩٦٥). **الذيل والتكملة**. (تحقيق إحسان عباس)، دار الثقافة :بيروت.
- ابن عبد الملك المراكشي، عبد الواحد الراكشي ت ٦٤٧هـ، (**المعجب في تلخيص المغرب ١٩٩٤)**، تحقيق محمد زينهم محمد عزب، دار الجرجاني للتوزيع والنشر.
- المعتمد، محمد، (ت: ٤٨٨هـ)، (١٩٧٥). **ديوان المعتمد بن عباد، ملك اشبيلية.** (جمع وتحقيق: رضا الحبيب السويسي) الدار التونسية للنشر: تونس.

- المقري ، أحمد بن الحسين ت١٠٤١هـ،**نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب (١٩٨٨)** تحقيق : إحسان عباس ، دار صادر ــ بيروت .
- مفتاح، محمد ١٩٨٢، في **سيمياء الشعر القديم ، دراسة نظرية وتطبيقية** ، دار الثقافة: الدار البيضاء.
- ملحس، ثريا عبد الفتاح، (١٩٨٨). **المرابطون اللمتونيون**. (ط١) الشركة العالمية للكتاب ودار الكتب اللبنانية :بيروت.
- منصور، حمدي، (٢٠٠٣). **الطبيعة في الشعر الأندلسي**، ط١، دار الجوهرة : عمان.
- ابن منظور محمد بن مكرم بن علي (ت٧١١هـ/١٣١١م).**لسان العرب** ، ط١، دار صادر للطباعة والنشر : بيروت.
- موسوعة تاريخ المغرب العربي، (١٩٩٤م). **المغرب العربي بين الفاطميين والمرابطين والموحدين ٢٩٦-٦٦٨هـ/٩١٠-١٢٧٠م دراسة في التاريخ الإسلامي**. ج٣، (ط١). مكتبة مدبولي: القاهرة.
- الميداني، أبو الفضل أحمد بن محمد بن أحمد ت ٥١٨هـ،. **مجمع الأمثال**(٢٠٠٢). (ط١)، تحقيق: عبد الله توما، دار صادر: بيروت.
- النابغة الذبياني ت١٨ق.هـ،. **ديوان النابغة الذبياني**(٢٠٠٤). (شرح وتقديم: عباس عبد الساتر)، (ط١) دار الكتب العلمية: بيروت.
- النويري ، (شهاب الدين أحمد بن عبد الوهاب ، ت٧٣٣هـ/١٣٣٣م) ، **نهاية الأرب في فنون الأدب ٢٠٠٤**، تحقيق: يحيى الشامي ، دار الكتب العلمية : بيروت.
- هلال، محمد غنيمي ، النقد الأدبي الحديث ١٩٧٧، دار نهضة مصر للطباعة والنشر: القاهرة.
- والي، فاضل فتحي، (١٩٩٦). **الفتن والنكبات الخاصة وأثرها في الشعر الأندلسي**. (ط١)، دار الأندلس للنشر والتوزيع : الرياض.